الثقافة الجديدة



274



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

274

كانون الثاني ـ شباط ١٩٩٧

محتويات العدد

ليتسع الحوار ويتعمق ـ ملف م ٦

● الغلاف الأمامي للفنانة ناجحة هادي

● لوحة الغلاف الأخير : «علاقة» للفنان خالد بابان

أغلق تحرير العدد أواخر تشرين الثاني ١٩٩٦ .

واقع النظام الملكي وثورة ١٤ تموز

(٢ من ٢)

د. حسان عاكف حمودي

النظام في أعوامه الأخيرة

رغم كل أعمال الارهاب والغش فازت الجبهة الوطنية الموحدة بعشرة دوائر انتخابية، في انتخابات أيار ١٩٥٤. فطار صواب اقطاب الحكم، وقال نوري السعيد وكان يومها في لندن «لن أدع هذا المجلس يجتمع ساعتين»(١٤) وفعلاً تحقق للباشا ما أراد، فأخذت وزارة ارشد العمري تماطل في عقد اجتماع المجلس، وهو ما لم يحدث سابقاً. ولم ينعقد المجلس الا بعد مرور عدة أسابيع، ولم يستغرق انعقاده سوى أقل من ساعتين، استمع خلالها الى خطاب العرش. ثم صدرت الارادة الملكية بتعطيل اجتماعاته الى نهاية شهر تشرين الثاني. ولم يحضر رئيس الوزراء العمري هذه الجلسة ـــ كما جرت العادة ـــ بل تعمد السفر للاصطياف على شواطئ البسفور. وفي ٤ آب حل المجلس عندما شكل نوري السعيد وزارته، بعد ضغط السفير البريطاني على عبد الاله لتكليفه بتأليف الوزارة. فكان أول مجلس لم يعقد سوى اجتماع واحد.

وبعد موافقة الملك على شروط نوري السعيد لتأليف الوزارة، التي تضمنت تعطيل الدستور، وحل مجلس النواب، واجراء جملة «اصلاحات»، تهدف الى «تعزيز الروح الوطنية بين المواطنين ومكافحة ذوي المبادئ الهدامة الموالين للاستعمار أيا كان»(١٥) وجّه نوري السعيد كلمة إلى الشعب مليئة بالوعد والوعيد، وكانت ايذاناً ببدء حملة جديدة من الارهاب السافر، وصفتها جريدة «صوت الاهالي» في ٨/٨/ ١٩٥٤، عن حق بانها

«من مظاهر هستريا المكارثية المحمومة» وانها «هوس وعار على الدولة» وقالت عنها جريدة «الاستقلال» بانها «مكارثية المحتوى». وتوالت المراسيم المخالفة لميثاق حقوق الإنسان وقواعد القانون الاساسي:

١ـــ المرسوم رقم ١٦ لسنة ١٩٥٤ «مرسوم وماشابه ذلك»، الذي اضاف فقرة جديدة الى المادة ٨٩ آ من قانون العقوبات البغدادي رقم ٥١ لسنة ١٩٣٨، بحيث تشمل عقوبة السجن أو الاعدام ليس دعاة الشيوعية فقط، بل تنسحب أيضاً على انصار السلام والشبيبة الديمقراطية وماشابه ذلك.

٢ـــ المرسوم رقم ١٧ لسنة ١٩٥٤، الذي اجاز اسقاط الجنسية عن العراقي المحكوم عليه وفق المادة السابقة.

٣ـــ المراسيم ١٨ و ١٩ و ٢٤ بغلق جميع الأحزاب والصحف و ٤٥٥ نادياً ونقابة وجمعية تعاونية وخيرية. واذا كان قانون المطبوعات لسنة ١٩٣٢ وتعديلاته اللاحقة قد همّش حرية الصحافة والنشر وجعل تقييد حرية الصحافة، قاعدة، فان مرسوم المطبوعات ٢٤ الغى هذه الحرية تماماً.

٤ـــ مرسوم الاجتماعات العامة والمظاهرات رقم ٢٥ لسنة ١٩٥٤.

في هذا الجو المشحون اجرى نوري السعيد الانتخابات بمهزلة جديدة إذ فاز بالتزكية ١٢١ نائباً من أصل ١٣٥. أما الباقون فقد فازوا بانتخابات صورية. وحصل حزبه «الاتحاد الدستوري» على أكثر من ٩٠٪ من مقاعد المجلس في حين كان الحزب قد فشل قبل أربعة أشهر فقط، أي في انتخابات ايار ١٩٥٤، في الحصول الا على ٥٦ مقعداً من ١٣٥ مقعداً[١٦].

كانت تهمة «الشيوعية» و «الافكار الهدامة» تستخدم لمحاربة اي مواطن يدعو للاصلاح او لفكر وطني يرفض الاحلاف والمعاهدات المذلة، فها هو بهجت عطية مدير «التحقيقات الجنائية» للسنوات من ١٩٤٧ ـــ تموز ١٩٥٨ يترجم المقصود من ذلك في كتابه المرقم ٤٤٨٩ في ٢٨ تموز ١٩٥٧ المعنون الى وزير الداخلية معتبراً فيه جميع العرائض التي تنشر في الصحف الداخلية لتأييد عرب عُمان ضد الانكليز عملاً شيوعياً محضاً، مطالباً باتخاذ التدابير بحق امثال هذه الصحف[١٧]. ولم يكن سعيد قزاز الذي شغل، منذ عام ١٩٥٣ حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، منصب وزير الداخلية في سبع وزارات بحاجة إلى هذه النصيحة. فشهدت هذه الحقبة وقائع تعذيب وهتك للاعراض والحرمات والمساكن ومجازر للسجناء السياسيين الشيوعيين واسقاط للجنسية وانتهاك أبسط

حقوق الانسان، وفي دفاعه امام محكمة الشعب عام ١٩٥٩ قال سعيد قزاز «اني فخور باني كافحت الشيوعية بدافع اسلاميتي ووطني، وتنفيذاً لقانون لايزال يعتبر من شريعة البلد، فخور بأني كنت وزيراً فعالاً أعمل بوحي من ربي وعقل في رأسي وقلب في صدري، محذراً من شرور الشيوعية واخطارها على وطني العزيز»[١٨]. وشهدت الفترة استقدام مستشارين بريطانيين متخصصين في شؤون القمع والارهاب، وذاع صيت «ماكنتوش»، مستشار وزارة الداخلية، المتخصص في قمع التظاهرات والتجمعات الجماهيرية في المستعمرات البريطانية الذي جيء به من هونك كونگ.

ومنذ وقت مبكر من الخمسينيات شنّت السلطة حملات انتقامية واسعة استهدفت الطلاب والمدرسين والمثقفين من مختلف الاتجاهات الوطنية بتعاون وزارة المعارف مع مديرية التحقيقات الجنائية، التي تمنح الطلاب والطالبات شهادة «حسن السلوك» كشرط للقبول في الكليات وللتعيين في مؤسسات الدولة والسفر[١٩].

وجرى تجنيد بعض العمادات والادارات والطلاب في اعمال تجسسية، كذلك كان دور الملحقيات الثقافية وبعض الدبلوماسيين في مراقبة تحرك ونشاط الطلبة والمواطنين العراقيين في الخارج. وشاعت ظاهرة الكتب السرية المتبادلة بين وزارتي المعارف والداخلية والتحقيقات الجنائية وعمادات الكليات لـ «اتخاذ ما يلزم لطرد الطلاب طرداً نهائياً وتزويد وزارتي الداخلية والدفاع بالمعلومات لاتخاذ الاجراءات والتدابير اللازمة»[٢٠]. فالطالب «أصبح عنصر هدم في الدولة» وينبغي «ايقاف التلاميذ عند حدهم»[٢١] على حد تعبير وزير المعارف، خليل كنه و أن «المدرسين والاساتذة يجب أن يكونوا كالجنود يؤمرون فيطيعون»[٢٢] وعلى استاذ الجامعة أن يفهم انه «لايستطيع ان يعبر عن رأيه السياسي، له الحق في أن يكون له رأي سياسي، ولكن يجب ان يحتفظ بهذا الرأي لنفسه»[٢٣] وفق سياسة خليل كنه صهر نوري السعيد، التي كان يصرح بها في لقاءاته العامة مع اساتذة الكليات والمعاهد، والتي فاقت في تطبيقاتها النص المجحف للفقرة (و) من المادة الرابعة من قانون انضباط موظفي الدولة التي حرمت على الموظف «الاشتغال بالامور الحزبية السياسية»، ولاحقت اساتذة الكليات بالطرد والسجن لانهم «تجرأوا» على رفع مذكرة الى رئيس الوزراء والبلاط تحدثوا فيها عن أمور عامة تخص شؤون البلد. ولم يكن الجيش بمنأى عن هذه السياسة فكانت قياداته العليا تستمد الارشاد والتوجيه من العميد دانيال، رئيس الهيئة الاستشارية البريطانية في الجيش العراقي، بمساعدة الملحق العسكري لكل من السفارتين البريطانية والامريكية. وانتشر الضباط

البريطانيون في صنوف الجيش بصيغة الانتداب والتفتيش والارشاد. وكانت لهؤلاء الكلمة العليا فيما يتعلق بالجيش وقياداته. وظهر «الوكلاء» و «السريون» في الوحدات العسكرية لمراقبة المتذمرين. وفرضت القيادات العسكرية على الامراء تقديم تقارير شهرية يتعهدون فيها بعدم وجود ميول «شيوعية» لدى ضباطهم وجنودهم.

واستمر الامر على هذه الحال حتى ١٤ تموز ١٩٥٨.

مؤشرات الواقع الاقتصادي الاجتماعي عشية ثورة تموز

تطرقنا حتى الآن الى الملامح السياسية للنظام الملكي، ولابد لاستكمال الصورة من نظرة سريعة على الطابع الاقتصادي ـ الاجتماعي للنظام، باعتبار ذلك القاعدة التي تنبثق منها مؤسساته وقوانينه، والوجه الآخر المتمم لهذه «الديمقراطية». فالديمقراطية السياسية بمقوماتها ومؤسساتها، على اهميتها الاستثنائية، تحتاج لان تتكامل بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية. والحريات، عامة كانت أو سياسية او مدنية، تبقى ناقصة من غير تحرر المواطنين من الاستغلال والتبعية الاقتصادية والاجتماعية، اي من غير الديمقراطية الاجتماعية، من غير العدالة الاجتماعية.

ظل النظام الملكي على مدى اربعين عاماً بمؤسساته وقوانينه ممثلاً لمصالح الفئات الارستقراطية العسكرية والمدنية ومصالح الاقطاعيين وشيوخ العشائر ومدافعاً عنها، بالضد من مصالح السواد الاعظم من ابناء الشعب. وبقي الاقتصاد العراقي متخلفاً مشوهاً تابعاً في سماته بما كان يحمله من مظاهر الاستغلال والاحتكار والطفيلية والاثراء غير المشروع من جهة، والفقر والفاقة من الجهة الاخرى. وسادت في الريف العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية. وادى ذلك الى استقطاب واضح بين طبقات الشعب وفئاته الاجتماعية، الامر الذي ترك نتائج اجتماعية خطيرة مست حياة ومصالح الاكثرية الساحقة من الشعب.

وكان واضحاً، في العقد الاخير من عمر النظام الملكي، على اقل تقدير، كم هي حاجة البلاد الى اصلاح اجتماعي جذري يمس الاسس التي تقوم عليها العلاقات المادية الانتاجية والعلاقات الاجتماعية الاخرى، الحقوقية والسياسية والاخلاقية، وهو ماكانت تخشاه الفئة الحاكمة «التي تستشعر الامان والحماية لمصالحها في ظل النظام القديم القائم»[٢٤]. وافرز هذا الأمر سخط ومعارضة اوسع فئات السكان، وفرض بالمقابل على السلطة اللجوء الى الوسائل البوليسية لاسكات وقمع اية مطالبة بالاصلاح والتغيير.

ـ بلغ عدد الاميين ٢ر٤ ملايين نسمة من مجموع سكان العراق البالغ ٥ر٦ مليون نسمة حسب احصاء عام ١٩٥٧[٢٥].

ـ كان أكثر من ٨٥٪ من سكان الريف لايملكون شبراً واحداً من الأرض، في حين كان أقل من ١٪ من سكان الريف يملكون ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية. وكان بعض كبار الملاكين يستغل ٢٠ الف عائلة فلاحية[٢٦]، ومساحة الأرض التي يملكها بعضهم قد تجاوزت الـ ٤٠٠ الف دونم. وكان هناك مائة مالك تزيد ملكية كل واحد منهم على مليون دونم، من امثال امير ربيعة[٢٧]. علماً بان الفلاحين كانوا اغلبية السكان.

ـ وصل عدد العمال عام ١٩٥٧ الى نصف مليون عامل غالبيتهم بدون الحد الأدنى من الضمانات الاجتماعية والصحية.

ـ وكان ربع سكان الريف واكثر من نصف سكان المدن عاطلين عن العمل.

ـ على الصعيد الصحي، فان نقص التغذية يعتبر السبب في وفاة ٥٠٪ من الأطفال. وان متوسط الاعمار كان ٣٠ عاماً[٢٨].

ـ لم تزد المصروفات الحكومية على شؤون التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية عن عشرة ملايين دينار، اي سدس مجموع المصروفات، وبلغت المصروفات المكرسة لاجهزة القمع تسعة ملايين دينار[٢٩].

تحرك القطعات العسكرية في ١٤ تموز

«من الضروري ان يتولى القانون حماية حقوق الانسان، لكي لا يضطر المرء اخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم»

الاعلان العالمي لحقوق الانسان في ١٠/١٢/١٩٤٨

لا خلاف مع القائلين بالخطورة المتمثلة بنزعة القادة العسكريين في اقامة سلطة عسكرية دكتاتورية تعطل الحياة البرلمانية الدستورية والتطور الديمقراطي، خصوصا عندما تتخلف الاحزاب والقوى الديمقراطية عن لعب دورها المطلوب في السلطة والمجتمع. ولاخلاف ان العسكريين، مقارنة باقرانهم المدنيين، هم اكثر تشبثاً بالسلطة بعد الوصول اليها. ولم تقلل الاحزاب الوطنية المعارضة للنظام الملكي من خطورة زج الجيش في العمل السياسي. وفي مناسبات عدة عبرت هذه الاحزاب عن خشيتها من ذلك، وحذرت منه، مؤكدة ان غياب الحياة البرلمانية الحقيقية، وتعطيل إرادة الشعب وغياب الاحزاب والمنظمات الجماهيرية، وكذلك الصراعات بين رجال الحكم هي عوامل تدفع

عناصر من القوات المسلحة وتشجعها على التحرك لحسم الاوضاع والصراعات القائمة. وحتى عام ١٩٥٦ لم يطرح اي من الاحزاب الوطنية فكرة اسقاط النظام او تغييره بالطرق العنفية، بل كانت مطالبها مقتصرة على إجراء التغييرات في إطار النظام القائم. غير أن استمرار القمع والارهاب، تحريك القوات المسلحة لقمع التحركات الجماهيرية، واهمال المعالجة الجذرية للمشكلات الاجتماعية، هو الذي صعّد من حدة وعنف المجابهة بين الشعب والحكام، ودفع الجماهير وطلائعها السياسية للتفكير باستخدام الاساليب العنفية، ومنها التنسيق مع القوات المسلحة، لأجراء التغيير المطلوب. ففي ظل دكتاتورية غاشمة يكون من واجب القوى الديمقراطية لا بل من حقها عدم التقيّد بأساليبها السلمية المعتادة، وعليها حينئذ ان تسلك طريق الثورة، ولو كانت بقوة السلاح، لم يكن هذا رأي الشيوعيين وحدهم بل جاء أيضاً على لسان الاستاذ كامل الچارجي منذ ١٩٤٦(٣٠).

وضمن هذا السياق جاءت ثورة تموز «كتعبير عسكري عن الارادة الوطنية للشعب» بتعبير المؤرخ العراقي ـــ الامريكي د. مجيد خدوري (٣١). وكان تحرك الجيش بمثابة الاسلوب العنفي الممكن آنذاك في قلب السلطة التي فقدت مقومات بقائها واصبحت عقبة أمام تطور البلاد. وجمعت الثورة بشكل تام بين ثورتين، ثورة الجيش وثورة الجماهير، التي كانت مهيأة للأنفجار في أية لحظة(٣٢). وشكل نزول الملايين الى الساحات والميادين العامة في الساعات الاولى للثورة إنتفاضة شعبية حقيقية كانت متممة للثورة العسكرية

واذا كان هناك ماهو استثنائي ومخالف للعادة في تحرك الجيش لتفجير ثورة تموز، فهو ليس السبق في فتح بوابات الثكنات العسكرية للسماح للجيش في تقرير شؤون البلاد الخطيرة، انما كون هذا التحرك كان اول تحرك عسكري من نوعه يجري لصالح الشعب وقضيته العادلة منذ تأسيس الدولة العراقية. لقد قامت السلطات الملكية باستخدام الجيش قرابة ٤٥ مرة ضد التظاهرات الجماهيرية والتحركات الفلاحية والعشائرية واضرابات العمال والثورات الكردية وغيرها، وفي مناسبات عدة جرت الاستعانة بسلاح الجو البريطاني ايضا. وان حركتي ١٩٣٦ و ١٩٤١ لم تخرجا عن كونهما انقلابين باستغلال الاستياء الشعبي لتصفية الحسابات بين المتنافسين على كرسي الحكم(٣٣). والمفارقة ان الزعيم المدني للانقلاب العسكري الاول هو حكمت سليمان، ثاني رئيس للبرلمان العراقي، وتزعم الانقلاب الثاني رشيد عالي الگيلاني اول رئيس للبرلمان. وفي آب ١٩٣٧ اطاح انقلاب عسكري مضاد بحكومة حكمت التي جاء بها انقلاب بكر صدقي، وفرض القادة العسكريون على الملك غازي، خلافاً لرغبته، تكليف

جميل المدفعي بتشكيل الحكومة الجديدة. وفي نهاية عام ١٩٣٨ اسقط العسكريون حكومة المدفعي. واجبروا الملك غازي ثانية على تكليف نوري السعيد بتشكيل الوزارة.

واكثر من ذلك لم تتردد السلطات في العهد الملكي عن استخدام الجيش العراقي في الصراعات السياسية الداخلية لبلدان عربية شقيقة، لدعم حلفائها من الحكومات والقوى اليمينية، ومعلوم ان القطعات العسكرية للواءين التاسع عشر والعشرين التي فجرت ثورة ١٤ تموز جرى تحريكها من ثكناتها من قبل السلطة الملكية لغرض إرسالها عبر الأردن الى لبنان لقمع انتفاضة الشعب اللبناني بوجه سلطة كميل شمعون ذيل السياسة الامريكية في المنطقة في ذلك الحين. كما بذلت السلطة الكثير من الجهود بين ١٩٤٨ ــ تموز ١٩٥٨ لزج الجيش في محاولات تدبير انقلاب عسكري في سوريا، بذريعة منع التغلغل الشيوعي هناك.

والقت افادات وشهادات القادة العسكريين والمسؤولين العراقيين امام «محكمة الشعب» بعد الثورة وكذلك المحاكمات التي جرت قبلها في دمشق، الاضواء على تفاصيل هامة من تلك الخطط والتحركات العسكرية، فذكر غازي الداغستاني نائب رئيس اركان الجيش واحد الاقطاب الفعالة في تلك النشاطات، ان «الحكومات العراقية المتعاقبة قد قبلت مبدأ التدخل في امور سوريا الداخلية منذ عهد حسني الزعيم إن لم يكن قبل ذلك»، مستعرضاً كيف تولدت الـ «قناعة لدى عبد الاله ونوري السعيد، ولدى بعض الساسة من السوريين أنفسهم، ان الطريق الوحيد لضمان النجاح هو استخدام الجيش العراقي وسوقه لغزو سورية»(٣٤). واكدت افادات وشهادات رفيق عارف رئيس اركان الجيش، واحمد مرعي مدير الاستخبارات العسكرية، وأحمد مختار بابان رئيس الديوان الملكي، ومسؤولين آخرين كيف استحوذت فكرة استخدام الجيش العراقي لتغيير النظام في سورية على عدد من رؤساء الوزارات الى جانب عبد الاله ونوري السعيد. وفي مذكرة قدمها توفيق السويدي وزير الخارجية الى السفير البريطاني في بغداد في ٥ حزيران ١٩٥٨ قال «ان الخطر الشيوعي اصبح يهدد الحكومة العراقية من سورية والكويت».

وإذا شئنا العودة الى البدايات الاولى لتأسيس الجيش العراقي نرى ان الحكم الملكي ومن ورائه الانكليز اناطوا بالجيش منذ تأسيسه مهمة بوليسية داخلية، وزجوه فيما بعد في الصراعات السياسية الداخلية، رغم انهم حرّموا العمل السياسي بين أفراد القوات المسلحة. وليس من المبالغة القول انهم ارادوا لهذه المهمة ان تعلو على مهمته في حماية حدود الوطن التي كانت منوطة في سنوات الانتداب بقوات الاحتلال البريطانية. فالقوات

العراقية بحجمها وتسليحها لم تكن قادرة على مواجهة الاخطار الخارجية المتمثلة بمطالبة تركيا بولاية الموصل، والتهديدات الايرانية في شط العرب والحدود الشرقية، وغزوات قبائل نجد على المناطق الجنوبية الغربية. ويندر ان نقرأ منهاجاً وزاريا آنذاك دون ان يؤكد على حاجة المملكة الى جيش تستخدمه في «حفظ امنها الداخلي» و «اخماد الاضطرابات الأهلية» الى جانب الدفاع عن الوطن(٣٥).

إن ذلك يؤكد حقيقة ان الجيش والشرطة والتشكيلات الاخرى للقوات المسلحة هي، كالقوانين والمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ادوات فعالة بأيدي اي نظام لتثبيت دعائمه. ثم ان القوات المسلحة في أي بلد هي جزء من الشعب، تنحدر من طبقاته وشرائحه الاجتماعية المختلفة، ويتأثر كل عسكري بأفكار واحلام طبقته واوهامها. وتدخل الجيش في الامور السياسية وممارسة النشاط السياسي بين افراد القوات المسلحة ظاهرة اعقد كثيراً من أن تعالج بالتمنيات النبيلة بابعاد الجيش عن العمل الحزبي والسياسي والمطالبة المشروعة للقوات المسلحة باحترام المؤسسات الدستورية والبرلمانية وخضوعها لقراراتها.

ان قيام حكومة ثورة ١٤ تموز بالغاء مؤسسة البرلمان واخفاقها في احلال البديل يشكل ردة الى الوراء من وجهة النظر التاريخية العامة. كما ان تراجع زعيمي الثورة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف عن العهد الذي اتفق عليه الضباط الاحرار، لتشكيل مجلس قيادة ثورة، باعتباره شكلاً من السلطة التشريعية المؤقتة في مرحلة الانتقال، يشكل هو الآخر تراجعاً عن دور القيادة الجماعية، ونزوعاً الى الاستئثار والتفرد. غير انه لايجوز للباحث الموضوعي الاقتصار في تحليله على وجود او عدم وجود النصوص القانونية وهياكل المؤسسات القائمة واغفال جوهرها وتجلياتها العملية في واقع الحياة السياسية الفعلي. فعدا عن كونها حررت البلاد من السيطرة والنفوذ الاجنبي، ساهمت ثورة تموز المجيدة في اطلاق طاقات الملايين من ابناء الشعب في ميادين النشاط السياسي والاجتماعي المختلفة، بعد ان تذوقت طعم الحرية لأول مرة منذ قرون. وهيأت الثورة الظروف للمنظمات الاجتماعية والمهنية والثقافية والنقابات لممارسة نشاطها علنا. وعملت الاحزاب السياسية على المكشوف لأول مرة في تاريخ العراق الحديث بالرغم من انها لم تكن مجازة رسمياً، وكان لهذه الاحزاب صحفها ومطبوعاتها التي توزع في مختلف مدن البلاد.

واذا كان النظام الملكي قد طارد السياسيين، وحاسب على الشبهات ووشايات

الشرطة السرية، ووضع القانون تحت رحمة البوليس السري ورغبات الملك واسياده، فان قاسم، رغم فرديته ونزوعه نحو الديكتاتورية، وضع «الرحمة فوق القانون» وانتهج سياسة «عفا الله عما سلف» في التعامل مع أغلب رجالات العهد الملكي، ومع خصومه السياسيين بمن فيهم اولئك الذين خططوا لقتله.

والى جانب ذلك دشنت ثورة تموز مرحلة من الديمقراطية الاجتماعية بانتهاج سياسة اقتصادية اجتماعية لصالح اوسع فئات السكان، حيث توجهت الثورة منذ ايامها الاولى لانهاء مقومات الاقطاع بقانون الاصلاح الزراعي الذي حدد سقف الملكية واقر توزيع الأراضي على الفلاحين، وقانون الاحوال الشخصية الذي منح المرأة في العراق، ولأول مرة، حقوقاً متساوية مع الرجل. كما اقرت المادة الثالثة من الدستور المؤقت، ولأول مرة، بان العرب والاكراد شركاء في الكيان العراقي. واعلن انسحاب العراق من المنطقة الاسترلينية لتحرير الدينار. وبالقانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ استرجع العراق ٥ر٩٩٪ من اراضي الامتيازات النفطية التي كانت تحتكرها الشركات الاجنبية. والى جانب ذلك بوشر بتنفيذ برنامج للتنمية والاصلاحات الاجتماعية والثقافية والصحية لرفع مستوى معيشة السكان خصوصاً من ذوي الدخل المحدود، الامر الذي منح الزعيم قاسم، الى جانب عوامل اخرى، شعبية واسعة لم يتمتع بمثلها اي حاكم عراقي قبله او بعده.

ويصعب على المتابع المنصف ألاّ يرى انه رغم غياب المؤسسات الدستورية، وتبلور ملامح نظام دكتاتوري فردي، ودخول القوى الوطنية في متاهات الاحتراب، تبقى الفترة الممتدة من ١٤ تموز ١٩٥٨ حتى ٨ شباط ١٩٦٣، خصوصاً في سنواتها الاولى، من الفترات التي تمتع بها المواطن بنوع من الحريات العامة لم يشهدها منذ تأسيس الدولة العراقية حتى يومنا هذا.

جمح الحصان ثم كبا

ظل الوطنيون العراقيون، على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم السياسية، على مدى اعوام طوال، يفاخرون بثورة ١٤ تموز، ويتغنون بمنجزاتها، معتبرين ماحدث في ذلك اليوم معلما تاريخيا، وانعطافة نوعية في المسيرة الوطنية الديمقراطية للبلاد، الى جانب كونه تتويجاً طبيعياً لكل النضالات والمنازلات التي خاضها الشعب ضد الحكومات المتعاقبة، من أجل الاستقلال الوطني الناجز، واقامة نظام برلماني دستوري حقيقي، يضمن حرية التنظيم السياسي والنقابي والاجتماعي، ويصون حقوق المواطن وكرامته.

واذا كان السياسيون العراقيون (المدنيون منهم والعسكريون) قد اختلفوا حول الموقف من التعامل مع «الحصان الجامح، الذي ينبغي اعادته الى الحظيرة (كما وصفت جريدة «التايمس» اللندنية ذلك الحدث الخالد مؤلبة عليه) ــ فان اختلافهم هذا يعود الى التنافس المدمر الذي نشب بين القائمين بالثورة، من الضباط الأحرار والقوى والفعاليات السياسية، حول من يمتطي صهوة ذلك الحصان الأصيل، ويمسك بقياده، وبأي اتجاه ينبغي ان ينطلق فدخل الجميع في دوامة صراع مرير وسم تلك الفترة المبكرة من عمر الثورة بالاضطراب والتمزق. ولم يجدوا مايتهم بعضهم بعضاً به أفضل من الادعاء بأن الطرف الخصم قد «اغتصب الثورة» او أنه يريد اغتصابها وحرفها عن مسارها الوطني الديمقراطي. ولم يقل هؤلاء او اسلافهم، بمن فيهم من ناله من الاصطراع الاذى الكثير او شعر بالغبن لان الثورة لم تنصفه، إن ما حصل في ذلك اليوم هو خطأ تاريخي، ولم يشكك احد بنضج الاسباب والمقدمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية له. حتى صدام حسين، عندما اراد تهميش ذلك العيد الوطني ومحوه من ذاكرة الشعب لاحلال انقلابه في ١٧ - ٣٠ تموز محله، لم يجرؤ على الطعن بالثورة والتشكيك بوطنيتها وضرورتها الموضوعية، رغم انه طعن بالوطنيين المخلصين من رجالاتها، وفي المقدمة منهم الشهيد عبد الكريم قاسم وزملاؤه من الضباط الوطنيين والديمقراطيين والشيوعيين، ليبرر مواقف حزبه ومعاداته لمسيرة الثورة.

غير أن الأمر اختلف في السنوات التي اعقبت اجهاض انتفاضة اذار ١٩٩١ المجيدة، وما سببه ذلك من انتشار روح اليأس وخيبة الأمل بين أوساط واسعة من الشعب والقوى السياسية المعارضة للدكتاتورية، وما حققته اطراف خارجية في مقدمتها الامبريالية الامريكية، من نجاحات في سعيها المتواصل لترويض السلطة وتيئيس العراقيين، معارضة وشعباً. في جو الاحباط والهزيمة هذا اخذت كتابات تحاول النيل من ثورة ١٤ تموز، وتلوم رجالها والقوى التي عملت لانبثاقها، على اساس أن الثورة مهدت لالتفاف العسكريين على الحياة البرلمانية والدستورية التي كانت قائمة في العهد الملكي، وبالتالي فهي مسؤولة عن الأوضاع المأساوية التي وصلت اليها بلادنا. ولاغرابة في الأمر عندما تصدر مثل هذه التقييمات من قوى وطبقات تضررت مصالحها بالثورة . تقييمات ينبغي محاورتها، بعيداً عن الطعون والاتهامات الجاهزة، أو عندما تصدر عن قوى تدعو لاعادة الملكية الى العراق، أو اقامة نظام برلماني ليبرالي، كما هو حال فئة التكنوقراط وبعض الجماعات الليبرالية التي ظهرت في الساحة السياسية خلال السنوات الأخيرة. الا أن

مايثير الانتباه هو صدور تقييمات من أفراد او اتجاهات لازالت تفاخر بهويتها الديمقراطية اليسارية، لكنها تنظر الى ثورة ١٤ تموز باعتبارها «نكبة وطنية كبرى»، وتلوم الاحزاب المعارضة للنظام الملكي، السرية منها والعلنية، لانها «لم تدرك اهمية وجود حكم مدني دستوري، وفتحت بذلك الطريق للجيش لينطلق من ثكناته، ويحطم بجزمته المؤسسات القانونية والدستورية، التي كانت قائمة في العهد الملكي».

يرى مجيد خدوري أن الانعطافات والتغييرات الحادة في طابع الصراع داخل المجتمع العراقي، منذ ثورة تموز حتى الآن، ترتبط أساساً بالاتجاه الموضوعي، بعد تموز، نحو بلورة طبقة حاكمة جديدة من كبار ضباط الجيش والبرجوازية الصاعدة، مناهضة لطبقات النظام القديم من جهة، ومتناقضة مع القوى والطبقات الاجتماعية الديمقراطية من جهة اخرى [٣٦]. يضاف الى ذلك الصراعات السياسية والعقائدية التي شهدها المجتمع بين فئات العسكريين المتنافسة من جهة، وبين الأحزاب السياسية من جهة أخرى. بهذه العوامل ترتبط حالة الانعطافات والتداعيات في المجتمع العراقي أكثر من ارتباطها بالكيفية والاداة، العسكرية او المدنية، التي أطلقت ثورة تموز. ثم ان التآمر الداخلي والخارجي الذي تعرضت له بالشكل الذي لم يسبق لثورة مماثلة ان تعرضت له، لعب هو الآخر دوراً سلبياً في زيادة حدة التوتر الاجتماعي، وتعميق الصراعات الداخلية، واضعاف النضال من أجل انهاء الفترة الانتقالية والتوجه لارساء حياة دستورية برلمانية حقيقية.

ملاحظات اخيرة

اولاً: ان تقييم اي حدث تاريخي او ظاهرة اجتماعية، بعد استنفاد الحدث امكاناته وتبلور ملامحه، يكون اكثر موضوعية من تقييم يجري في معمعان الصراع والتناحر، فمن يقف خارج الغابة يستطيع ان يرى اشجارها افضل ممن يقف داخلها. غير ان العلمية والموضوعية تتطلبان أيضاً عدم اغفال معايير ومعطيات الحقبة موضع التقييم، وتجنب معاينتها بمعايير حقبة اخرى. بديهي ان يكون الجيل الحالي اكفأ من الذي سبقه في محاكمة الاشياء، ليس ذلك لاننا اذكى من اسلافنا، وانما ببساطة لان ماهو متوفر لدينا من معارف، ومتراكم من تجارب، اكبر مما كان لديهم قبل ثلاثين او اربعين عاماً. وانطلاقاً من ذلك فان تقييم حدث بخطورة ثورة ١٤ تموز يتطلب عدم تجاوز شهادات الاحياء والاموات من خيرة مفكري وسياسيي العراق الذين عاصروا عملية التحضير للثورة ومخاضاتها وساهموا في تفجيرها وعاشوا تفاصيل احداثها، المدونة في عشرات الكتب.

ثانياً: ان الحق بالثورة ضد الظلم، ومقاومة الحكومات الجائرة، حق طبيعي لكل انسان وشعب، مارسته البشرية، قبل ان تثبته دساتير ومواثيق وطنية ودولية، كاضافة ثمينة الى المفاهيم الحضارية والى مقومات الحياة المدنية المعاصرة، بما تنطوي عليه من حقوق للانسان والشعوب (٣٧).

ثالثاً: ان المآسي التي حلت ببلادنا جراء سيطرة الانظمة الدكتاتورية المتعاقبة، خصوصاً بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، ينبغي الا تكون المعيار لتقييم ثورة ١٤ تموز، وتدفعنا للترحم على ايام نوري السعيد. ان اعداء ١٤ تموز، على اختلاف تلاوينهم، حققوا نجاحات لا يستهان بها في محاصرة الثورة، واجهاض مسيرتها، وقادوا البلاد باتجاهات مدمرة، مغايرة تماماً للاهداف التي انبثقت من أجلها.

رابعاً: ان الحديث عن الترابط بين ثورة ١٤ تموز وما جرى ويجري اليوم مقبول، اذا كان القصد منه ان تاريخ الشعوب هو سلسلة من الحلقات المترابطة والمتفاعلة، غير أن ما يطرح امامنا يتجاوز هذا الفهم الى اتهام الثورة بانها المسؤولة عن مآسينا الحالية بما فيها جريمتي القادسية وام المهالك.

واذا اردنا الحكم على احداث التاريخ من خلال هذا الفهم فعلينا مثلاً ان ندين اهم انقلابين ثوريين غيرا مسيرة البشرية خلال القرنين المنصرمين واعني بهما الثورة الفرنسية وثورة اكتوبر الاشتراكية، لأن قادة الاولى حصد بعضهم رؤوس البعض وانجبت نابليون الأول، المشبع بروح الغزو والعدوان، ونابليون الثالث المهووس بالاستبداد والتسلط. والثورة الثانية لو لم تكن لما كانت صورة القرن العشرين على ماهي عليه من غليان واضطراب، و «نكبات متعددة الجنسيات» في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، ولما عاش العالم عقوداً عديدة في ظل توازن الرعب وهاجس فناء البشرية. واذا شئنا الاسترسال على هذا المنوال نقول، ان ظهور الاسلام مسؤول عن اندلاع الحروب الصليبية. وان لجوء الكرد لرفع السلاح بوجه الحكومات الشوفينية، لنيل حقوقهم القومية، مسؤول عن مجزرة الانفال وقصف المدن بالسلاح الكيمياوي ومحو آلاف القرى من الوجود.. .الخ. ويمكن ان نسطر وفق هذا المنطق قائمة طويلة من الأمثلة، لكنها لاتقود الا الى التشوش والضياع.

ختاماً فان حرية الرأي والاجتهاد ضرورية لمجتمعنا وحركاته السياسية، فلنستثمرها بحثاً عن الحقيقة التي تخدم الناس في السير نحو تحقيق الحلم الأزلي في بناء مجتمع الحرية والرفاه والعدالة الحقة.

الهوامش

(١٤) جريدة لواء الاستقلال، ٨/ ٩/ ١٩٥٤.

(١٥) الحوادث، ٥/ ٨/ ١٩٥٤

(١٦) تاريخ الاقطار العربية المعاصر / دار التقدم، موسكو.

(١٧) محكمة الشعب، الجزء الثاني، ص ٣٠١١.

(١٨) محكمة الشعب، الجزء العاشر، ص ٤٠١٤.

(١٩) من/ وزارة المعارف، (العدد: ١٥٤٧/ سري. التاريخ: ١٠ كانون الاول ١٩٥٠) الى مديريات الشرطة العامة: الموضوع/ شهادات حسن السلوك: يرجى التعميم على كافة مديريات الشرطة في الالوية بالامتناع عن اعطاء شهادات حسن السلوك لمراجعيها من الطلاب والطالبات. وان يطلب اليهم مراجعة مديرية التحقيقات في بغداد لتزويدهم بتلك الشهادات واعلامنا.

(التوقيع: وزير المعارف، خليل كنة)

(٢٠) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٥٦٤–٤٥٨٦–.

من/ وزارة المعارف:(التاريخ: ٣١/ ٥/ ١٩٥٥) الى/ دار المعلمين العالية: نرفق طياً نسخة من التقرير المتضمن بعض المعلومات المرسلة الينا من الجهات المختصة حول الطلاب الواردة اسماؤهم ادناه. يرجى اتخاذ مايلزم لفصلهم حالاً فصلاً نهائياً من المعهد وتزويد كل من وزارة الداخلية والدفاع بالمعلومات اللازمة عنهم. (التوقيع: وزير المعارف خليل كنة)

(٢١) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٠٧ /شهادة الدكتور عبد الله اسماعيل، استاذ كلية الحقوق.

من/ عمادة دار المعلمين العالية الى/ وزارة المعارف: نرفق قائمة بثلاث نسخ باسماء خريجي الكلية لعام ١٩٥٢–١٩٥٣ مع ملاحظاتنا التفصيلية حول من لا نوصي بتعيينهم بالنظر لاعتناقهم المبادئ الهدامة ولانهم في نظرنا يكونون خطراً على توجيه التعليم في المملكة. التوقيع: عميد دار المعلمين العالية.

(٢٢) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٢٩/ شهادة الدكتور مهدي المخزوني، عميد كلية الاداب.

(٢٣) محكمة الشعب، الجزء الحادي عشر، ص ٤٢٣٢/ شهادة الدكتور مصطفى كامل ياسين ـــ استاذ كلية الحقوق.

(٢٤) مجيد خدوري، العراق الجمهوري، ص٢.

(٢٥) ليث الزبيدي، مصدر سابق، ص ٣١، عن المجموعة الاحصائية لعام ١٩٥٧.

(٢٦) زكي خيري. ملاحظات دولية عن الاصلاح الزراعي المنشود في العراق، ص ٤٣.

(٢٧) ليث الزبيدي، مصدر سابق، ص ٣٣.

(٢٨) هشام متولي / اقتصاديات القطر العراقي، مركز الدراسات الاقتصادية دمشق، ١٩٦٤.

(٢٩) حليم احمد/ موجز تاريخ العراق الحديث ١٩٢١—١٩٥٨. ص ١٢٨.

(٣٠) كامل الچارچي/ جريدة صوت الاهالي ٢١/١/١٩٤٦.

(٣١) مجيد خدوري، العراق الجمهوري.

(٣٢) مجيد خدوري، مصدر سابق، ص ٧٤.

(٣٣) د. رحيم عجينة/ الثقافة الجديدة، عدد ٢٣٦، ص ١٢٠.

(٣٤) محكمة الشعب/ الجزء الأول، ص ٢٧١.

(٣٥) ورد في منهاج الوزارة الاولى التي تشكلت بعد تتويج الملك فيصل في ايلول ١٩٢١ الاشارة الى حاجة المملكة الى جيش «يلم شعثها داخلاً، ويدافع عن كيانها خارجاً» ومن أجل ان «تكون المملكة العراقية في سكون من الغوائل والمشاكل الداخلية..».

— وجاء في المادة الثامنة من الاتفاقية العسكرية المعقودة طبقاً للمادة السابعة من المعاهدة العراقية البريطانية لعام ١٩٢٢ تأكيد واضح على استخدام الجيش العراقي «بأعمال عسكرية لحفظ النظام الداخلي» أو «إخماد أي اضطراب أهلي» الى جانب «صد أي تجاوز خارجي».

— اما المادة سادساً من منهاج الوزارة السعدونية الاولى في تشرين الثاني ١٩٢٢ فقد اكدت على «اتخاذ جميع التدابير لاحداث قوة وطنية من الجيش والشرطة تكفل حفظ الامن وصيانة البلاد من كافة الطوارئ».

— وعلى غرارها ذهبت المادة ١١ من منهاج الوزارة العسكرية الاولى في كانون الاول ١٩٢٣ حين اشارت الى «تقوية القوات الوطنية على ان تكون قادرة لحفظ الامن داخلا، ومنع التجاوز من الخارج»(٣٤).

— وفي لائحة قانون التجنيد الاجباري التي قدمها رئيس الوزارة الى مجلس النواب في حزيران ١٩٢٧ جاء إن مهام الجيش هي «للأمن الداخلي والدفاع عن الوطن»(٣٥).

(٣٦) مجيد خدوري/ العراق الجمهوري.

(٣٧) حسين جميل/ مصدر سابق. ص ٢٥٨.

نقص المياه وبعض مشكلات البيئة في الشرق الأوسط

د. حسن الجنابي

الوضع المائي في العراق والدول المجاورة حرج للغاية بسبب ازدياد حدة الخلافات حول تقسيم المياه، بخاصة مياه الرافدين دجلة والفرات، والبرامج المعلنة لدول المنطقة للتجارة بها أو استعمالها كاداة للضغط السياسي. فلقد بيّنا في بضع مقالات سابقة(١) بعض تجليات ازمة المياه العذبة والاهتمام الدولي بشأنها في منطقتنا التي تعتبر نموذجاً لما يحصل في مناطق وقارات اخرى ليست بالبعيدة عن الاهتمام الدولي أيضاً. يتعلق الأمر بنوعية حياة الاجيال القادمة وهل ستضطر للعيش في عالمٍ مليء بالنزاعات المائية أم أن الجيل الحالي سيتمكن من تطوير آليات ووسائل تضمن استمرار التقدم مع الحفاظ على البيئة ومصادرها الضرورية للحياة.

انعكس القلق الدولي بالمشكلة في مؤتمرات عدة عقدت خلال العقد الاخير كمؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو ومؤتمر برلين ومؤتمر السكان في القاهرة وفي حزيران المنصرم في مؤتمر اسطنبول الذي تكرر فيه تحذير منظمة الامم المتحدة للعالم حول نقص المياه والتلوث البيئي في المدن الكبرى على وجه الخصوص. فقد اشار التقرير الافتتاحي لهذا المؤتمر الى أن أكثر من مليار ونصف المليار انسان سيواجهون في العام ٢٠٢٥ ظروفاً تهدد حياتهم وصحتهم بالخطر اذا لم يتم إتخاذ تدابير جذرية لحل مشكلات التحضر المتفاقمة، وما يرافقها من فقر وتشرد وبطالة وانهيار القيم الاجتماعية لمجاميع كبيرةً من البشر ممن لا يتمتعون بشروط مناسبة للسكن والتغذية والملبس

والتعليم. وقدّر التقرير عدد الوفيات الناتجة عن تناول مياه شرب ملوّثة في مدن العالم الثالث الكبرى بعشرة ملايين وفاة سنوياً. وكان المفترض ان يتمخض المؤتمر عن التزام دولي باعتبار السكن الصحي حقاً من حقوق الانسان الاساسية التي يجب أن تسهر على توفيرها الدول لولا معارضة الولايات المتحدة الامريكية لذلك(٢).

لاتقتصر شحة المياه على مدن العالم الثالث الكبيرة بل تشمل مدن غربية واوروبية عديدة كلوس انجلس وكارديف ووارشو وغيرها، وتقدر احصائيات الامم المتحدة عدد الذين لايحصلون على مياه شرب صحية بأكثر من مليار انسان، وتعزى هجرة أكثر من ٢٥ مليون انسان سنوياً الى تدهور ظروف الحياة وانهيار التوازن البيئي في اماكن سكناهم ويسميهم نورمان مايرز من جامعة اوكسفورد «لاجئي البيئة» مؤكداً أن عوامل كالتصحر والجفاف والتلوث هي السبب وراء نزوحهم ومفاقمة مشكلات الاسكان والبطالة والفقر. أما علماء المناخ والمختصون الآخرون فيقرعون ناقوس الخطر من ارتفاع حرارة الارض التي يُعتقد ان لها علاقة مباشرة بانتشار حالات الجفاف في مناطق لم تشهدها من قبل كالشمال الاوروبي، حيث شهدت بريطانيا في العام الماضي أقسى جفاف في تأريخها، كما قلّت مناسيب المياه في موسكو لهذا العام بنسبة ٦٠٪ عن المألوف.

الزيادة السكانية و «الامن» الغذائي

إن أكبر مشكلة تتعلق بالمياه العذبة هي سرعة تزايد سكان العالم. فآخر الدراسات تقدر ان عدد سكان الأرض سيرتفع من ٣ر٥ مليار حالياً الى ٣ر١١ مليار (بدلاً من ٢ر١٠ كما كان مقدراً في السابق، في نهاية القرن المقبل، وسيرتفع العدد الى ١٤ مليار قبل أن يصل الى حالة تشبه الاستقرار. بحلول العام ٢٠٢٥ سيبلغ عدد السكان حوالي ٥ر٨ مليار أي بزيادة مقدارها ٤٥٪ خلال ثلاثين سنة أكثر من ٩٠٪ منها ستحصل في دول العالم الثالث.

ان الزيادة السكانية الهائلة هذه تتطلب زيادة في الانتاج الغذائي العالمي بنسبة ٣-٤٪ سنوياً وهذا يفترض زيادة سنوية في المساحات المزروعة بمقدار خمسة ملايين هكتار، ستحتاج بالطبع الى مياه إضافية لأن جميع الأراضي الصالحة للزراعة الديمية مستثمرة حالياً. وجدير بالذكر ان السنوات القليلة القادمة ستشهد خسارة ما يقرب من ٨٠ مليون هكتار من الأراضي المزروعة نتيجة للتملح والادارة السيئة واستنزاف الموارد المائية وتلويثها.

قد يكون من الصعب للبعض تصور ان المياه يمكن ان تكون العامل المحدِّد الرئيسي للانشطة الانسانية، خاصة وإن ثلاثة ارباع الكرة الأرضية مغطى بالمياه!. يتعلق الامر، ببساطة بـ ٥ر٢٪ فقط من تلك المياه التي تملأ المحيطات والبحار والانهار وهي المياه العذبة الضرورية للانسان. أضف الى ذلك فإن ثلثي تلك الكمية متجمد في القطبين، وما تبقى فهو موزع بشكل غير منتظم في الانهار والبحيرات وتحت سطح الأرض، وإن ٤٠٪ من تلك المياه مشتركة بين اكثر من دولة مما يؤدي الى اختلافات وتوترات وحتى مناوشات عسكرية تنبئ بنزاعات خطيرة مقبلة في بعض المناطق.

مبادرات دولية

لقد خصصت الامم المتحدة ٢٢ آذار يوماً سنوياً أسمته «اليوم العالمي للمياه» وكان شعاره لهذه السنة «المياه للمدن العطشى» بهدف جلب انتباه العالم للمخاطر الناجمة عن اهمال قضية المياه أو العبث بها[٣]. كما تم بناءً على توصية اخرى انشاء المجلس العالمي للمياه كأكبر منظمة غير حكومية لدراسة الشؤون المائية بما فيها شحتها والمحافظة على نوعيتها وتطوير أسس وأطر موحّدة عالمياً لمعالجة المشكلة المائية، وقد انتخب الخبير المصري د. محمود ابو زيد رئيساً انتقالياً للمجلس الى حين اكتمال الاجراءات الفنية والتشريعية التي يفترض استكمالها في اجتماع جنيف في اواسط تموز من هذا العام تنفيذاً لقرارات مؤتمر ريو دي جانيرو ومتابعة لتنفيذ ما تم الالتزام به آنذاك على غرار مؤتمر برلين.

في تقريره الشامل عن ادارة المياه على مستوى العالم، اضاء اسماعيل سراج الدين، نائب رئيس البنك الدولي لشؤون البيئة، حجم المشكلة التي تواجه البشر حيث يعاني ٤٠٪ من سكان الارض موزعين في ٨٩ بلداً درجات مختلفة من شحة المياه[٤]. وجدير بالذكر ان البنك الدولي أكبر مستثمر للأموال في قطاع الماء وتبلغ استثماراته في هذا القطاع ٣ر٢ مليار دولار في افريقيا وحدها موزعة على ٤٤ مشروعاً. أما مجموع استثماراته عالمياً خلال الثلاثين سنة الاخيرة فقط فتقدر بـ ٤٠ مليار دولار أي بمعدل ٣ر١ مليار في السنة.

يقدر التقرير المذكور حاجة المجتمع الدولي للتغلب على المشكلات المتعلقة بشحة المياه خلال السنوات العشر المقبلة بحوالي ٦٠٠ مليار دولار وهذا رقم فلكي قياساً بامكانات الدول الفقيرة الأكثر معاناة من شحة المياه وتلوثها، ويبرز منطقتي الشرق

الأوسط والشمال الافريقي باعتبارهما أكثر مناطق العالم تعرضاً لنقص المياه البالغ ٤٠٪ للشخص الواحد حالياً، وسيصل الى حوالي ٨٠٪ في العام ٢٠٢٥ حيث ستبلغ حصة الفرد ٦٦٧ متراً مكعباً في السنة بعد أن كانت ٣٤٣٠ متراً مكعباً في ١٩٦٠. لقد طور البنك استراتيجية خاصة للعمل في افريقيا، قسّم خلالها الدول في هذه القارة الى ثلاث مجاميع. كل مجموعة يمكنها الاستفادة من نوع مختلف من المساعدات حسب استقرارها السياسي آخذين بالاعتبار الظروف المميزة لكل بلد في تطوير خططه المائية بعيداً عن الاعتماد على التقنية الهندسية والاستشارات الخارجية المرتفعة الكلفة غالباً والبعيدة عن معرفة حاجة السكان المحليين لهذا المصدر، كما نؤكد على المقاربة الاقليمية المتكاملة للدول المشتركة بالحوض المائي بعيداً عن تحقيق فوائد لطرف واحد على حساب الاطراف الاخرى(٥).

ضمن سلسلة النشاطات الدولية الهادفة الى تعزيز الوعي العام بحجم المشكلة المائية التي تواجه البشرية يقام في آب من هذا العام (بناءاً على دعوة معهد ستوكهولم المائي) مؤتمر دولي حول مشكلة المياه سيتحدث خلاله عدد من الشخصيات العالمية بضمنهم الأمير صدر الدين أغا خان الذي قاد عمليات الامم المتحدة للاغاثة في العراق غداة حرب الخليج الثانية. سيركز المؤتمر على محاولات الاجابة على عدة اسئلة تتعلق بمستقبل البشرية وعلاقتها بالمياه في ضوء تحديد الاولويات على أسس اخلاقية وفيما اذا كانت للانسان خيارات فعلية مابين الظروف البيئية والصحية والاقتصادية، ثم علاقة ذلك بالقضايا ذات الابعاد الاخلاقية كالتعليم والعمل والمساواة وغيرها.

الشرق الأوسط حقل تجارب

ان الخصائص الديموغرافية والهيدرولوجية والسياسية هي التي تجعل منطقة الشرق الأوسط والشمال الافريقي محط اهتمام مركز. فسكان المنطقة يشكلون ٥٪ من سكان الأرض في حين تمثل المياه المتجددة المتاحة للاستعمال ١٪ فقط من مجموع مياه الأرض العذبة، وتقدر حصة الفرد الواحد من الماء بحوالي ١٢٥٠ متراً مكعباً في السنة، علماً ان التوزيع السكاني بين بلدانها لا يتناسب مع توزيع المياه سواء على مستوى الدول أو الجهات (الاقاليم) في حين تتقارب نسبة النمو السكاني المرتفعة في جميع البلدان، وتزيد على ٣٪ في أغلبها، مما يزيد في المنافسة للحصول على الكميات المطلوبة من المياه لتحقيق مستوى حياة صحية معقول. وفي الوقت الحاضر، يقدر البنك الدولي عدد

السكان الذين لا يحصلون على مياه شرب صحية في المنطقة بـ ٤٥ مليوناً، وعدد السكان المحرومين من انظمة التصريف الصحية بـ ٨٠ مليون نسمة ويتوقع ان ترتفع هذه الارقام بسرعة انسجاماً مع سرعة التزايد السكاني وتلكؤ التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العديد من البلدان وما ينتج عنها من افقار لفئات عديدة من السكان. من الواضح ان المنطقة لاتستطيع سد النقص الحاصل في مصادر المياه دون اتباع وسائل جديدة اذا ما اريد تحقيق النمو الاقتصادي، أو على الأقل الاستقرار السياسي والعسكري الحرج القائم حالياً، وتجنب حدوث مجاعات وكوارث اجتماعية. فانتاج الحبوب، مثلاً، بحاجة الى أن يرتفع بمقدار ٧٠٪ خلال الثلاثين سنة المقبلة، ومعروف ان انتاج الكيلوغرام الواحد من الرز يحتاج الى ٥٠٠٠ ليتراً من الماء من الصعب جداً توفيرها اذا لم تكن على حساب القطاعات الاخرى المستهلكة للماء والتي تعاني أصلاً من العجز.

بهذا الصدد يقترح البروفسور ج.آ. آلان من «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن» استيراد الغذاء والكف عن التوسع الزراعي حيث ان كلفة استيراد الغذاء أقل من كلفة انتاجه، ويقدر أن كمية المياه التي تحتاجها عائلة فلاحية واحدة تكفي لسد حاجة عشر عوائل غير فلاحية (الايكونوميست ٢٣/ ك١/ ١٩٩٥). أما استاذ الاقتصاد بجامعة هارفرد فرانكلين فيشر، فيرى أن الحل يكمن باقامة سوق مائية دولية في الشرق الأوسط، ويقدم لذلك نموذجاً رياضياً (موديل) سماه «موديل هارفرد» لحل المشكلة المائية، أو على الأقل الخلافات بشأنها، على أسس تجارية بحتة، باعطاء قيمة مادية للماء. وهو يعتقد ان نموذجه سيحقق الاستعمال الكفوء للماء في القطاعات الانتاجية المهمة تستطيع معه السلطات المسؤولة السيطرة النوعية على طرق توزيع واستعمال المياه. يعتمد «الموديل» على جملة فرضيات منها ان الدولة في الشرق الاوسط ليست حرّة باستعمال مياهها بل أن عليها ان تدفع مبلغاً معيناً كما لو انها تشتري حصتها، ويمكنها كذلك بيع كل أو جزء من تلك الحصة لدولة اخرى. ويفترض أن يؤخذ في الحسبان اختلاف قيمة المياه من منطقة الى اخرى وكذلك الاهمية الاجتماعية والثقافية التي تختلف عن قيمته المادية المقدرة بالعملة.

من الطريف في هذا «الموديل» انه يقدر قيمة المياه التي تنازلت عنها اسرائيل للفلسطينيين حسب اتفاق اوسلو بثلاثة ملايين دولار فقط، وقيمة المياه المتنازع عليها بين سوريا والاردن واسرائيل والفلسطينيين بحوالي ١١٠ مليون دولار فقط وسوف لن تزيد في العام ٢٠٢٠ عن نصف مليار دولار. وهذه بالطبع ارقام صغيرة قياساً بحجم

الاقتصاد في المنطقة وكلفة المعدات العسكرية والمواجهات العسكرية المحتملة بشأنها.

تحويل المياه وتجارتها

أخذت الدول الغنية المعروفة بشحة مياهها تفكر بنقلها من مناطق اخرى منذ عقود، ويبدو الآن ان استيراد وتصدير المياه عملية لامفر منها في المستقبل القريب للعديد من دول العالم، وهذه وإن كانت لاتمثل حلاً نهائياً لشحتها وسوء توزيعها، الا أنها اجراء انتقالي معقول عند توفر المال والامكانيات التقنية لمدّ انابيب نقل المياه المستوردة والخزانات الخاصة باستقبالها وتوزيعها للمستهلكين في القطاعات الاقتصادية المختلفة. ومن الجدير بالذكر إن نقل المياه من أماكن تواجدها الطبيعي الى أماكن اخرى يعد أمراً في منتهى الخطورة على المستوى البعيد فيما يتعلق بالنتائج البيئية والايكولوجية وبالطبع الهيدرولوجية، التي حتمت التوزيع المعروف لمياه الأرض. وسيكون لها تأثير سلبي بالغ على الانظمة الايكولوجية في المناطق التي تقع هيدروليكياً في الجهات السفلى للاحواض المائية (الانهار)، ويتوقع، بالارتباط مع تقليل نسب جريان الانهار، خلق مشكلات سياسية واقتصادية وعسكرية في حالة اشتراك أكثر من دولة واحدة بالنهر.

ان نقل المياه من حوضها الاصلي الى حوض آخر هو أمر مرفوض بيئياً وتعترض عليه حركات البيئة الناشطة، لكن القضية شائكة أكثر مما قد يبدو للوهلة الأولى. فالماء، بالضد من بعض المعتقدات الدينية والتقاليد الثقافية، في طريقه لأن يصبح سلعة تباع وتشترى في الأسواق العالمية بعد أن كان هبة يتمتع بها الانسان دون قيد. وإن نظرة بسيطة لاقتصاديات المياه في العالم[٦] كافية لتلمس اتجاه تحويل المياه الى سلعة، وتأسست لذلك شركات عملاقة مختصة بالعمل في الاقتصاد المائي[٧].

لقد اجريت دراسات شاملة لنقل المياه من دولة الى اخرى بنفس الطرق التي يتم بها تصدير النفط الخام. ويتزايد عدد الدول التي تعلق آمالاً على حلّ جانب من مشكلة الحاجة للمياه عن هذا الطريق في جميع القارات بما فيها اوروبا الغنية بمصادرها المائية، فمثلاً يجري الآن التفاوض لتصدير المياه من فرنسا الى اسبانيا التي يضر بها الجفاف منذ عدة سنوات. ومما يغري باستيراد المياه لبعض الدول (في الخليج مثلاً) هو قلة كلفته قياساً بالوسائل الاخرى للحصول على مياه صالحة للاستعمال كتحلية مياه البحر. فاستيراد المتر المكعب من المياه من الباكستان الى السعودية يكلف ٧٩ سنتاً ومن السودان ٢٩

سنتاً ومن مصر بحدود ٦٠ سنتاً، في حين تصل كلفة المتر المكعب من المياه المحلاّة الى دولار ونصف[٨].

محاولات استيراد المياه في الشرق الأوسط

يشكل الشرق الأوسط ساحة نموذجية لاقتصاد المياه وتجريب الوسائل والخطط للتغلب على نقصها، وهي مرشحة كي تكون سوقاً مائية مربحة. فاستيراد المياه، على مستوى الدراسات، له تاريخ طويل يبدأ في العام ١٩٥٣ حين انجزت دراسة مشروع تزويد الكويت بالمياه العراقية من قبل شركة بريطانية، تبعتها شركة سويدية استمر عملها حتى مطلع السبعينات. غير أن المشروع لم ينفّذ بسبب انعدام ثقة الحكومة الكويتية بنظيرتها العراقية. لكن صدام حسين بفضل «قادسيته» الأولى استطاع استعادة ثقة الكويتين وحمل حكومتهم على الوقوف الى جانبه في الحرب ضد إيران فبادر «برد الجميل!» بالطلب الى شركة فرنسية لاستكمال دراسات المشروع القاضي بتصدير ٦١٦٥ متراً مكعباً في اليوم من المياه الى الكويت، ومنها ١٨٥٠ متراً مكعباً من مياه شط العرب و ٤٣١٥ متراً مكعباً في اليوم من دجلة. وقد استكملت الدراسة فعلاً في العام ١٩٨٨، وقام اثرها ولي العهد الكويتي في شباط ١٩٨٩ بزيارة بغداد حيث أعلن الاتفاق بين الحكومتين[٩]. ومعروف بالطبع ما صدّر صدام للاشقاء الكويتين بدلاً من المياه في مغامرته الثانية التي حتّمت تخلّيه الطوعي عن نصف مياه شط العرب لصالح ايران وهي الحصة التي زعم انه حارب من أجلها ثمانية اعوام عجاف أهدرت دماء زهاء مليون انسان.

لقد كان من نتائج الحرب مع ايران تشجيع الدول المجاورة للجوء الى وسائل أنانية، وفي أغلب الحالات غير اخلاقية، بالتصرف بالمياه التي تشكل جزءاً من السيادة الوطنية العراقية وحقاً من حقوق سكان وادي الرافدين منذ وجد الانسان على تلك الأرض. فالحكومة الايرانية إقترحت تزويد دولة قطر بمياه نهر (القارون) وهو رافد من روافد شط العرب[١٠]. أما تركيا فقد واصلت بعناد لا اخلاقي برنامجها المائي متحديةً بذلك ليس فقط الشروط البيئية والتحديدات الفيزيائية للفرات، بل كذلك التاريخ والمصالح المشتركة والقيم الدينية عن طريق مشروع مؤشرات الفشل فيه اكثر من مؤشرات النجاح.

ويُنفذ بطريقة ابتزازية فيها من الاستفزاز والتعنت والعجرفة الشيء الكثير وبموافقة الفئات السياسية التركية معارضة كانت ام حكومية، ولاتشذ عن ذلك الحكومة الجديدة التي يقودها الاسلاميون الاتراك[١١]. ويستثنى من ذلك نفر قليل من علماء البيئة الاتراك

الذين يعارضون بعض جوانب المشروع لنتائجه السلبية على المدى البعيد، وكونه اهداراً للموارد المالية التي تحتاجها بالحاح القطاعات الاقتصادية الاخرى. ومما له دلالة خاصة أن البنك الدولي اوقف دعمه للمشروع التركي ما لم يتم التوصل الى اتفاق تركيا مع سوريا والعراق مما اضطرها لتمويله ذاتياً وبالتعاون مع شركات غربية.

لا نهدف في هذه الفقرة المناقشة الشاملة للمشروع التركي، الذي سبق وعرضناه في أكثر من مقال، بقدر اضاءة السعي التركي لتسويق مشروع تصدير المياه. فهذا هو الهدف الرئيسي لمليارات الدولارات المصروفة في اقامة المنشآت الهيدروليكية التركية في حوضي الفرات ودجلة. يتناغم السعي التركي في لعب دور القوة الاقليمية العظمى، من خلال التحكم بعصب الحياة (المياه) في المنطقة، مع السعي الاسرائيلي بنفس الاتجاه، وكان من نتائج ذلك عقد الاتفاقات العسكرية والاقتصادية وبضمنها الدراسة الجدية لتصدير المياه التركية الى اسرائيل من نهري سيحون وجيحون[١٢].

من جهتها فإن اسرائيل، بعد ان تنازلت عن بعض الحقوق المائية التي اغتصبتها في حروبها السابقة، تنافس تركيا في الحماس لتجارة المياه وتعرض منشآتها لتخزين المياه المستوردة لتنقل لاحقاً الى دول اخرى. وهي ترى حل الأزمة المائية مؤقتاً بنقل مياه النيل من مصبه عند البحر المتوسط الى قطاع غزّة، ومياه نهر الليطاني اللبناني الى بحيرة طبرية ثم الضفة الغربية واسرائيل والادرن، وبالطبع المياه التركية للاردن والخليج. وهي تمارس ضغوطاً متنوعة على الاردن والسكان العرب في الضفة الغربية فيما يتعلق باستعمال المياه، وقد ألمح مسؤول اردني بأن اسرائيل تضخ مياه بحيرة طبرية المالحة الى نهر الاردن مما يساهم بتدهور نوعية المياه الجارية فيه[١٣].

تعتبر الباكستان من الدول الغنية مائياً وتحاول بعض دول الخليج استيراد المياه منها. فالامارات المتحدة تفكر بشراء ٥٢٠ ألف متر مكعب في اليوم من نهر هنغوي الباكستاني اليها ومد انابيب تحت بحر العرب على عمق ٦٠٠ متر، وقد أنجزت دراسة ذلك في العام ١٩٨٩ من قبل شركة بريطانية. أما السعودية فتدرس بدائل عديدة لاستيراد المياه من الباكستان والسودان ومصر وتركيا وكذلك كندا. غير ان حرب الخليج الثانية ساهمت بتأجيل تلك المشاريع لاغراض الأمن الوطني، ليس فقط في السعودية بل مجمل المنطقة، باستثناء الاتفاق الاخير بين تركيا واسرائيل على نقل المياه والذي نتج ضمناً عن الاصطفاف الجديد للدولتين والذي ادخل عاملاً آخر على المعادلة الشرق ــ أوسطية.

من الجدير ذكره أن الاعمال التركية الاخيرة، بعد اتفاقها مع اسرائيل، والتي تمثلت

بتخفيض جريان الفرات في نهاية نيسان الماضي الى ٢٠٠ متر مكعب في الثانية بدلاً من ٥٠٠ متر مكعب كما أعلنت مراراً من جانب واحد، أثارت ردود افعال قوية لدى سورية التي ايدتها جامعة الدول العربية في معارضتها لاقامة السدود الجديدة على الفرات قرب الحدود الدولية[١٤]. وقد لمّح رئيس الوزراء التركي آنذاك، مسعود يلماز، رداً على ذلك، الى حقوق تركيا بمياه نهر العاصي متهماً سوريا بالاستحواذ على حصتها من تلك المياه[١٥].

خاتمة:

يركز نشطاء البيئة بمختلف مشاربهم على شعار أساسي هو «فكّر كونياً وانشط محليّاً». وهذا ليس شعاراً اعتباطياً، بل شعار يضع مسؤولية حماية البيئة على عاتق الانسان كفرد وكمجتمع، فاضافة الى المسؤوليات التي تتحملها الدول، يلعب الافراد والمجاميع المحلية المختلفة دوراً أساسياً في العمل على منع التلوث والحفاظ على جمال البيئة وعطائها لما فيه خير الانسان. بهذا المعنى هدفت مقالتنا المختصرة هذه الى زيادة الوعي، ومن ثم الاهتمام، بالمشكلة البيئية عموماً، والمائية منها على وجه التحديد، لدى القراء غير المختصين، نظراً للدور المهم الذي يمكن ان يلعبه الرأي العام المدرك للمشكلات الاساسية التي يواجهها الانسان المعاصر.

الهدف الآخر هو اضاءة جانب من جوانب المشكلة اياها في منطقتنا، ولعل هناك من يفكر، وهو محق، بأن المنطقة تتميز بانتهاكات فاجعة لحقوق الانسان نفسه تجعل من التفكير بالبيئة نوعاً من الترف والنخبوية أمام الاعتداءات الفاضحة على القيم الانسانية المتمثلة بانعدام حرية التعبير والتفكير والتنظيم والصحافة، وحيث تعج المدن العربية بالسجون بدلاً من الحدائق. إن هذا صحيح، لكن الأصح هو أن العمل في سبيل البيئة النقية والمعطاءة لاينفصل عن النضال من أجل الحقوق الاساسية للانسان للعيش بكرامة وحرية في ظل حكم يساهم هو في انتخابه ويسهر على خدمة المجتمع، بل أنه عمل واحد متكامل ولايستطيع الانسان المعاصر، مهما ضاق مجال اختصاصه، أن يعيش منعزلاً عن مصير الآخرين.

ان مشكلة من حجم مشكلة الفرات، على سبيل المثال، يجب أن تكون محط اهتمام الكاتب والعالم والاقتصادي والمؤرخ والشاعر والفنان مثلما هي محط اهتمام المهندس المختص، لكي يكون من الصعب على انظمة الحكم تجاوز الوعي الشعبي وحين تنتصر

الإرادة الشعبية في هذه القضية تصبح أكثر تأهيلاً لانتصارات اخرى على الدكتاتورية والتخلف.

سيدني ١٩٩٦/٨/٨

الهوامش

(١) راجع مقالاتنا في الثقافة الجديدة، الاعداد ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٨.

(٢) من الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي إمتنع عن التوقيع على أهم وثيقة صدرت عن مؤتمر قمة الارض في ريو دي جانيرو في عام ١٩٩٢ وهي المعروفة باسم Agenda-21 والقاضية، ضمن مطاليب اخرى، بتخصيص ميزانية محدّدة من الناتج المحلي للعناية بالبيئة.

(٣) اقرّت الامم المتحدة ذلك بناء على توصية من مؤتمر قمة الأرض في ريو دي جانيرو وذلك لرفع مستوى الوعي العام بقضية مياه الأرض.

(٤) Ismail Serageldin, "Towards Sustainable Managment of Water Resourccs" World Bank Publication 1996.

(٥) Financial Times News letter, Water Breifing. Issue 56, 6 March 1966.

(٦) هذه التسمية قد تكون غير دقيقة المقصود بها العمليات التجارية والصناعية وكل ما له علاقة بتكنولوجيا المياه المستعملة في تكريرها ومعالجتها أو ادارتها وخزنها وتوزيعها. ولربما تصح تسمية الصناعة المائية.

(٧) تحولت ادارة وتخزين وتوزيع المياه في اغلب المدن الكبرى في العالم الى القطاع الخاص وليس آخرها شراء مصلحة مياه مدينة اديلايد في استراليا من قبل شركة فرنسية عملاقة بملياري دولار، واللافت للنظر الاتجاه السائد لخصخصة الصناعة المائية في المدن الاسيوية الكبرى بما في ذلك بعض المدن الصينية.

(٨) Farouq Al-Layla 1987 "Study of Water Transportation to Saudi Arabia" ASCE J. of Water Resources Planning and Management vol.113. No.3.

(٩) World Water, April 1989.

(١٠) جريدة «الاتحاد» الاماراتية، السبت ٦/ك١/١٩٩١.

(١١) Financial Times News letter, Global Water Report, 19 June 1996.

(١٢) World Water and Environmental Engineering. Feb. 1996. انظر «المياه التركية للبيع».

(١٣) Financial Times, News Letter, Water Breifing, Issue 52, 10 January 1996.

(١٤) في ك١ عام ١٩٩٥ وقع الاتراك مع كونسرنيوم نمساوي عقداً لبناء سد قرقاميش على بعد ٤ كلم عن الحدود السورية، وكان اتفاق آخر قد عقد مع شركات اخرى لبناء سد بريجيك على مسافة ١٥ كلم من الأول.

(١٥) International Water Power and Dam Construction. June 1996.

اللغة الكردية والناطقون بها

محمد توفيق علي

هذه المقالة ترجمة بتصرف عن الانكليزية استجابة لاعلان من مكتبة معهد اللغويين البريطاني للتعاون في اعداد قاموس للغات ستنشره دار (بلومسبري) علماً بأن المعطيات المطلوبة ليست عن قواعد اللغة المعنية، بل عن تاريخها وموقعها الجغرافي وإنعكاسها على ثقافة الناطقين بها. واقتصر الطلب على تحرير وتدقيق ما يعدّه المؤلف عن اللغة المعنية وبالأخص عن اللغات غير المألوفة. ولكوني كردياً وعضواً في هذا المعهد، وجدت من واجبي القومي والمهني إعداد هذه المساهمة الموجزة وسهلة الفهم على القارئ الغربي. لذا إعتمدت اسلوب الأشكال البيانية المرفقة التي ينبغي شرحها ببعض الملاحظات. هذا وأناشد المعنيين بثقافة الكرد تدقيق هذه المساهمة وإغنائها بموضوعية.

١ـ الموقع الجغرافي للناطقين بالكردية

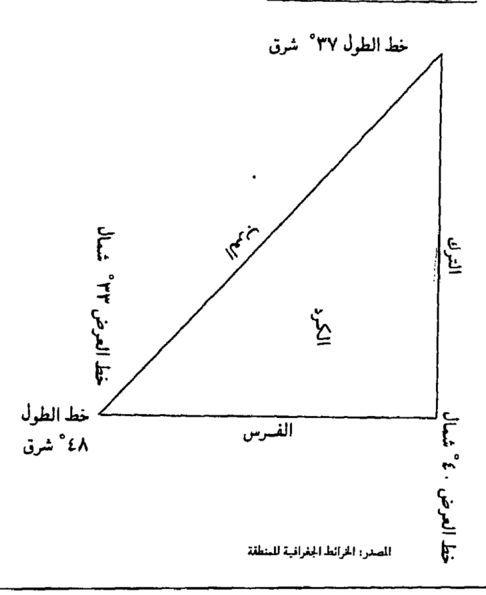
تشكل الخارطة الجغرافية لبلد ما أداة أولية ونقطة إنطلاق لدراسة شعبه وموطنه. ولكن بسبب إفتقار الشعب الكردي الى كيان سياسي خاص بقوميته وتقسيم موطنه، كردستان، على دول ذات حدود دولية مثبّتة، إرتأيت إستبدال الخارطة بالشكل الهندسي المنتظم وذلك تحاشياً للاعتبارات الدولية والحساسيات القومية التي تحرف قضية شعب وموطنه الى عدد نفوسه وحجم مساحته. وأخترت المثلث لكونه أكثر الأشكال تشابهاً مع الخارطة الفعلية لكردستان الكبرى. ولتحديد موقعها على خارطة العالم دوّنت خطوط

الطول والعرض على الشكل البياني الذي لايعني أن كل ما في داخله هو كردي أو كردستاني، أو أن لا إمتداد لهما خارج هذه الخطوط الوهمية.

كان لموقع كردستان عند تقاطع طرق الفاتحين من آسيا واوروبا وافريقيا تأثير سلبي على احتفاظ الشعب الكردي بهويته القومية، أما الخصائص الطوبوغرافية (الجبال العالية والوديان والطرق الوعرة) فأثرت إيجابياً على الاحتفاظ بها. واعترافاً بهذه الحقيقة صاغ الشعب الكردي هذه الحكمة: «لا صديق للكرد غير جباله».

الشكل البياني (١)

الموقع الجغرافي للناطقين بالكردية



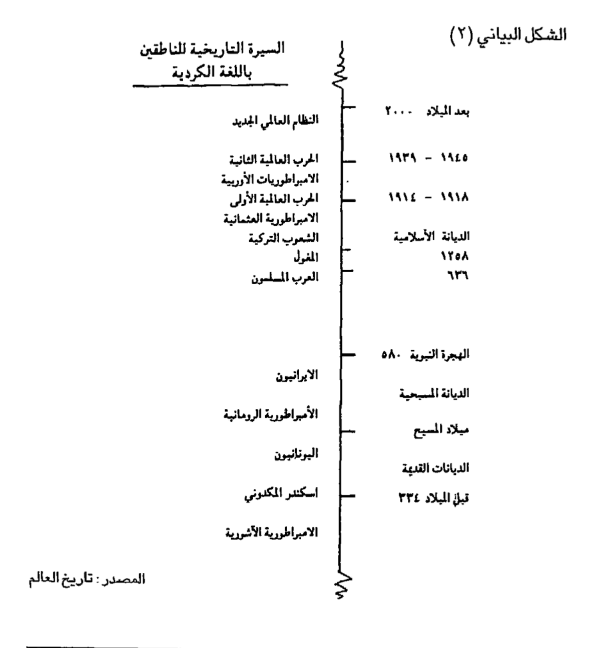
المصدر: الخرائط الجغرافية للمنطقة

٢ـ السيرة التاريخية للناطقين بالكردية

يتكون هذا الشكل من خط عمودي يمثّل الزمن، على يمينه تواريخ الأحداث الهامة منذ ما قبل الميلاد حتى هذا اليوم. وعلى يساره سرد مدوّن لهذه الأحداث، كالحروب وحكم الأمبراطوريات وهجرة الشعوب.. الخ.

قد لايكون بعض هذه التواريخ دقيقاً ولا الأحداث شاملة، فالغرض منها هو الربط بينها وبين مدى تأثيرها على ثقافة شعوب هذه المنطقة الجغرافية. فالمهم هو الأحداث نفسها والى حد أقل تسلسلها الزمني.

الشكل البياني (٢)

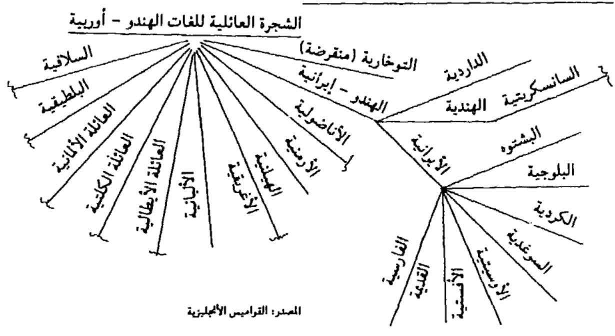


٣ـ أصل الكردية وعلاقتها العضوية بغيرها

شجرة عائلة اللّغات الهندو ـ أوروبية

يوجد هذا الشكل البياني في معظم المصادر اللغوية الغربية وبالأخص القواميس الانكليزية. تكمن مساهمتي هنا في ترجمة مضمونه وتطويره بأعدادي للشكلين البيانيين رقم ٤ و ٥، بالإضافة الى ترجمتي لمضمونها. هنالك تداخل كبير، إن لم نقل تطابقاً، بين الدلالات اللغوية والدلالات القومية/ الأثنية للمصطلح الواحد. فالشعب الكردي ينتمي أثنياً الى الشعوب الأيرانية، كما تنتمي لغته الى اللغات الأيرانية، التي تنتمي بدورها الى الهندو ـــ ايرانية، التي تنتمي بدورها الى نواة الهندو ـــ أوروبية. أو بعبارة أخرى، مرت اللغة الكردية بالمراحل المذكورة ولكن بأسبقية معاكسة. جرى بتر العائلات اللغوية في الشكل البياني بأستثناء الأيرانية التي لاتشمل جميع لغاتها هنا كما يتوضح ذلك في الشكل البياني الرابع.

الشكل البياني (٣)



٤ـ اللغات الأيرانية من حيث الزمان والمكان

أ) شجرة عائلة اللغات الأيرانية

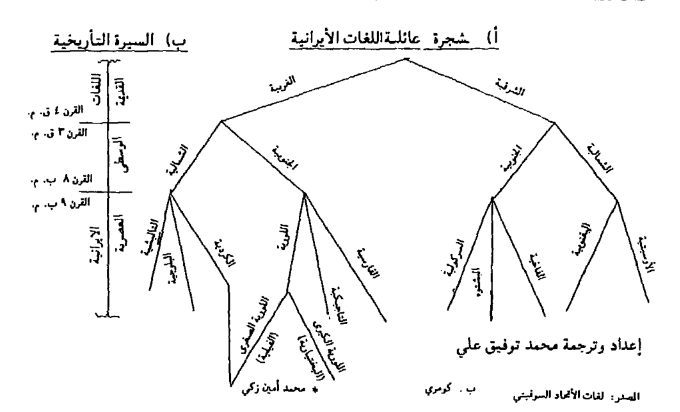
قبل الشروع بتصنيف اللغات الأيرانية من حيث المكان، ينبغي الإشارة الى مصطلحات الاتجاهات النسبية، الشمال والجنوب والشرق والغرب، كون اللغة الموصوفة بها قد لا تتطابق مع الموقع الجغرافي الحالي للناطقين بها. وخير مثال على ذلك إنتماء الكردية والبلوجية الى مجموعة اللغات الأيرانية الغربية الشمالية من حيث التطور الزمني. وبينما تقع كردستان في أقصى الشمال الغربي لبلاد الشعوب الايرانية، نلاحظ أن بلوجستان تقع في أقصى الجنوب الشرقي لها. قد يستنتج من ذلك انحدار الكرد من بلوجستان أو البلوج من كردستان أو إنحدار الشعبين من بلد آخر، يدّعي البعض بأنه آسيا الوسطى والبعض الآخر بأنه ما وراء القفقاس. ولكنني أترك هذا الأمر للمؤرخين.

نلاحظ تصنيف اللورية مع الفارسية والتاجيكية ضمن مجموعة اللغات الايرانية الغربية الجنوبية. تقسّم اللورية بدورها الى اللورية الصغرى (الفيلية). واللورية الكبرى (البختيارية). كما نعلم فان الفيلية تقرّ بانتمائها الى الكردية على صعيد العراق، على أقل تقدير. أما البختيارية فإنها أكبر الظن تقرّ بانتمائها الى شعب لوري وموطنه لورستان. ونعلم أيضاً، يوجد اختلاف مذهبي/ طائفي بين اللور والكرد وتشابه بينهم والفرس. ومن الناحية الجغرافية، تقع لورستان في جنوب شرق كردستان على الحدود المتاخمة لبلاد فارس. أما الناطقون باللغات الايرانية الأخرى، فانهم يمتدون من ما وراء القفقاس الى الصين عبر أفغانستان وجمهوريات آسيا الصغرى، مثل طاجيكستان.

ب) السيرة التاريخية

ان هذا الشكل هو امتداد للشكل رقم ٢ ولكنه خاص باللغات الايرانية ولذلك يرافقها ويوضح المصطلحات، القديمة والوسطى والحديثة، ويربطها بتواريخ ترمز الى أحداث هامة كالاحتلال وهجرة الشعوب عبر التاريخ.

الشكل البياني (٤)

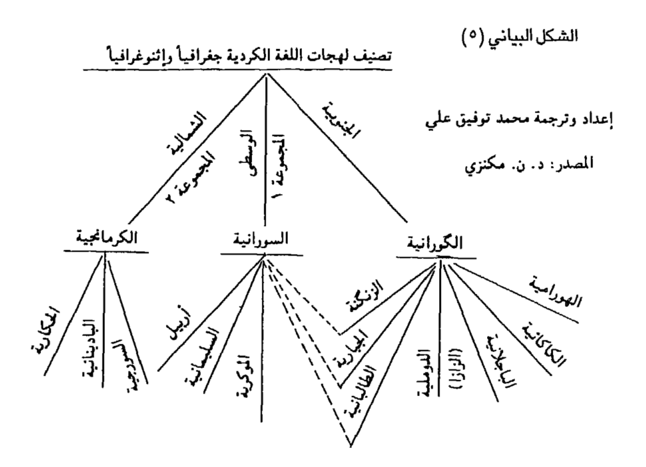


٥ـ اللهجات الكردية جغرافياً وإثنوغرافياً

يعتبر مصدر معطيات هذا الشكل من أهم الدراسات عن لهجات اللغة الكردية والتصنيف القبلي / العشائري للمجتمع الكردي على صعيد كردستان العراق مع تداخل قليل مع كردستان إيران وتركيا، إذ أنه عبارة عن دراسة ميدانية قام بها الاستاذ د.ن. مكتري عام ١٩٥٤–١٩٥٥ ونال عليها الدكتوراه في عام ١٩٥٧ وأصبح أستاذاً للغات الإيرانية.

لقد جرى تصنيف الگورانية ضمن اللهجات الجنوبية للغة الكردية، لكن المؤلف يقول بانتماء الگوران الى الشعب التاتي أو الطاجيكي وبأن عشائر الزنگنة والجبارية والطالبانية كانت عشائر گورانية تم صهرها لغوياً تحت تأثير إمارة بابان في السليمانية لغاية القرن التاسع عشر. يؤيده في هذا بعض المستشرقين الآخرين مثل الأستاذة الفرنسية جويس بلاو. أما المؤلفون الكرد، فهم يخالفون ذلك كلياً. ولعل خير مثال على ذلك هو عنوان ومقدمة المقال المنشور في العدد ٩٣ من «الثقافة الجديدة»(٥) في أيار

١٩٧٧، بقلم د. معروف خزندار الذي كتب بعنوان «الشعر الديني في اللهجة الكورانية الكردية». من هم الكوراثيون؟ انهم جيل أو مجموعة اثنوكرافية تشكل الشعب الكردي مع مجموعات أخرى لها تسمياتها أيضاً. ولعل أدق تقسيم علمي للمجموعات الأثنوكرافية التي يتكون منها الكرد هو ما قام به المؤرخ الكردي الأمير شرف خان البدليسي (١٥٤٣ - ١٦٠٣) الذي قال: «والشعب الكردي أربعة فروع كبيرة، تخالف لهجات لغتهم وسحنتها وآدابها، أولهم (كرمانج) وثانيهم (لر) وثالثهم (كلهر) ورابعهم (كوران)». ولكنه يتفق مع مكنزي في الصهر اللغوي لعشائر الزنكنة والجبارية والطالبانية وإنتمائها الى الكوران بالأصل ويضيف إليها عشائر البيبان والشوان.



الموطن: يسمى موطن الشعب الكردي كردستان، على غرار تركستان وهندستان وعربستان والخ.. يتم الأشتقاق بأضافة لاحقة (ستان) الهندو—ايرانية الى إسم الشعب المعني.

الجغرافيا: تقع كردستان عند سلسلة جبال زاغروس في غرب ايران وسلسلة جبال طوروس في الأناضول في تركيا وسلسلة جبل حمرين في وادي الرافدين، العراق.

بالاضافة الى منبع النهرين الرئيسيين دجلة والفرات، ينبع معظم روافدهما من جبال كردستان أيضاً.

الطبوغرافيا: يتراوح ارتفاع كردستان بين بضع مئات من الامتار فوق سطح البحر في المناطق السهلية وبضعة آلاف من الامتار فوق سطح البحر في المناطق الجبلية.

المساحة: تقدر مساحة كردستان بين ٤٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف كيلو متر مربع، أي أكبر من مجموع مساحة بريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا وسويسرا والدانيمارك.

المناخ: نظراً للموقع الجغرافي والطوبوغرافي لكردستان، يعتبر مناخها شبه استوائي. تتراوح درجات الحرارة بين ٤٥ درجة مئوية في الصيف في المناطق السهلية الحارة (گرميان) و -٣٥ درجة مئوية في الشتاء في المناطق الجبلية الباردة (كويستان). يتراوح مقدار سقوط الأمطار بين ٤٠٠ و ٥٠٠ ملم سنوياً. يتميز الصيف بالحر والجفاف، والشتاء بالبرد والثلج والربيع بسقوط الأمطار وذوبان الثلوج وبأعتدال الجو والخريف يتميز أيضاً بأعتدال الجو.

النفوس: يقدر نفوس الشعب الكردي بأكثر من ٢٠ مليون نسمة. بغض النظر عن دقة تعداده، فان الشعب الكردي رابع أكبر شعوب المنطقة عددياً بعد العرب والترك والفرس. والأهم من هذا، فانه أكبر شعوب العالم التي لاتزال تفتقر الى كيان سياسي خاص بقوميته.

الاقتصاد: يعتمد إقتصاد كردستان على الزراعة بما فيها الاكتفاء الذاتي لسكانها. تتميز المناطق السهلية بخصوبة تربتها لزراعة الحبوب لاسيما الحنطة والشعير. المناطق الجبلية تتميز بزراعة الفواكه كبساتين الكروم والجوز وبتربية نحل العسل. ويتميز الريف الكردستاني بتربية المواشي والحيوانات بأنواعها والتي تزوّد سكانها بالألبان واللحوم والجلود والصوف. أما الصناعة فتقتصر على الصناعات اليدوية وأهمها الغزل والنسيج في صناعة السجاد. ولهذه الصناعة اليدوية التقليدية مغزى إقتصادي واجتماعي وثقافي لدى شعوب المنطقة. تعتبر صناعة السجاد الكردي تراثاً ثقافياً للشعب، لها خصائصها المحلية من حيث التصميم والتركيب والتلوين بالأصباغ الطبيعية. سبق وأن كانت من إختصاص الريف الكردستاني والقبائل الرحالة، أما الآن، فتوجد معامل للسجاد اليدوي في المدن الرئيسية في كردستان العراق.

الزي القومي: يتميز الزي الكردي للنساء والرجال بالألوان الزاهية التي تشبه ألوان الطبيعة في كردستان. يتكون الزي الرجالي من السترة والسروال الفضفاض بالإضافة الى ربطة الرأس والخصر، ويصر على إرتداء السروال. وتعتبر المرأة الكردية في المنزل

حاملة للعلامات المرئية للهوية القومية. أما الأقمشة، فقد تكون مستوردة أو محلية من غزل ونسج الصوف وبالأخص للزي الرجالي. هنالك تداخل مع الأزياء القومية للشعوب المجاورة من العرب والفرس والترك، شأن الخصائص الثقافية الأخرى ومنها لهجات اللغة، تختلف عناصر الزي الكردي حسب الاختلاف الأقليمي والقبلي والديني، وتواكبها في ظاهرة التغير التي تمرّ بها الثقافة الكردية بصورة عامة.

المجتمع الكردي: شأنه شأن بقية شعوب المنطقة، يتكون المجتمع الكردي من طبقات اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة. ان النظرة السائدة لدى الآخرين الى المجتمع الكردي انه مجتمع عشائري أو رعوي ـــ رحال. ان القبلية والعشائرية والاقليمية والطائفية لها تأثير حتى على الساحة السياسية الكردية، بدليل الأحداث المخزية في كردستان العراق في الآونة الأخيرة. تشكل هذه الظاهرة الاجتماعية السبب الرئيسي لتأخر الشعوب الجبلية في بلوغ الوحدة القومية، حسب تفسير بعض علماء الاجتماع. هذا ويرد البعض الآخر ذلك الى عدم مرور هذه الشعوب بمرحلة العبودية، مرحلة تشكيل الدول.

الديانة: منذ الفتوحات الاسلامية للعرب في القرن السابع بعد الميلاد، اعتنقت أكثرية الشعب الكردي الاسلام ديناً والسنّة الشافعية مذهباً. ان الفيلية (اللور الصغير) تعتنق الشيعية مذهباً، شأنها شأن البختيارية (اللور الكبير). أما الگوران، فانهم يعتنقون مذهب أهل الحق (علي اللهية) أو العلوية والتي تعتبر فرعاً من الشيعة. وهنالك الطائفة اليزيدية التي تعتبر حركة صوفية عادت الى أصولها أو جذورها القومية. هذا وترجع بعض الطقوس الدينية المشتركة لهذه الطوائف الى الديانات القديمة، الزرادشتية الايرانية والمثرائية الهندية. ومن الحركات الصوفية المنتشرة في كردستان الشمالية، النقشبندية (. . .) والقادرية في كردستان الجنوبية (. . .) وتقطن في كردستان شعوب وجاليات غير كردية، منها الآشوريون والكلدانيون والأرمن المسيحيون، وكذلك اليهود. ومن الأقوام الأخرى التركمان الذين يشاركون الشعب الكردي في الديانة باختلاف مذاهبها وطوائفها منذ وصولهم الى كردستان قبل أقل من ألف عام وكذلك الأمر بالنسبة للعرب منذ وصولهم الى كردستان قبل أكثر من ألف عام.

المصادر الأخرى

١ ـــ الثقافة الكردية والهوية القومية P. Kreyenbrook and C. Alison

٢ ـــ كردستان والكرد. عبد الرحمن قاسملو.

المعلوماتية المعاصرة والحرب

حسنين دريد التكمجي

ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين، بعد عذاب طويل توصلت الانسانية الى حقيقة أن ما تستطيع تحقيقه يمكن أن يتحقق أفضل منه عن طريق المعرفة. وقد توسع مفهوم التكنولوجيا، ليشمل الى جانب الادوات والوسائل والعقول الالكترونية والروبوتانتية، كل شيء يضاعف قدرات الانسان لاختراق المكان والزمان وتنشيط الادارة والقوة. والانتقال من تكنولوجيا الى اخرى كثيراً مايحدث تغييراً عميقاً في العلاقة التي الفناها أو نسجناها عبر الزمن بين العناصر المختلفة داخل اي نظام، وهو مايحتم تطوير القدرات الأخلاقية والقانونية والسياسية والمفهومية لأستقبال أي طارئ من شأنه أن يسبب الارباك والمشاكل غير المحسوبة. وهكذا ننظر من حولنا، فنرى أننا نعيش عصر المعلوماتية، بعد أن وُصفت عصور تاريخية للانسانية بنعوت مختلفة، كعصر الحديد أو عصر البخار أو عصر الذرة. لكننا نعيش، في ربع القرن الأخير على الأقل، عصراً عالمياً جديداً هو عصر المعلومات. وفيه تتوسع وتتعمق الانسيابية المعلوماتية لتحصل الشعوب على المعلومات المتاحة، وتزول العوائق على طريق نشرها واسستخدامها على نحو رشيد. وقد تزايد حجم هذه المعلومات ــ العلمية والفنيّة خاصة ــ في العالم بنسبة ١٢٪ ــ ١٥٪ سنوياً، فيتضاعف كل ٥ أو ٦ سنوات. وهذا يؤكد أهمية انشاء المؤسسات والاجهزة والمنظومات الفنية والعلمية والسياسية الأكثر اكتمالاً لمعالجة وحفظ ونشر المعلومات وتنسيق الجهود على المستوى الدولي. آما غالبية

البلدان النامية، فهي محرومة فعلياً من الوصول الى هذه المعلومات بسبب ارتفاع تكلفتها، والاحتكار المعلوماتي متعدد الجنسية، وعدم توفر المراكز الوطنية للمعلومات.

لقد أزاحت الثورة المعلوماتية المنظومات التقليدية القديمة في ادارة صراعات الوعيد والردع النوويين، لانها تحتاج أصلاً الى الكفاءة الادارية العالية والانظمة السياسية الحديثة والقدرات العلمية الهائلة لخوض الحرب التكنولوجية والحروب المعلوماتية العصرية. وفي مقدمة هذه المستلزمات الاقتصادات الوطنية القوية القادرة على تحمل أعباء هذه الصراعات. وبعد الهزائم اللوجستية للاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية تعمقت وازدادت ديناميكا الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في هذه البلدان والعالم في سعي للانتظام على اسس جديدة، وظهور النظام العالمي الجديد والزعامة الامريكية والدور الياباني والألماني.

يصنع الناس تاريخهم بأنفسهم ليس كما يرغبون، يصنعونه تحت ظروف لا يختارونها بأنفسهم. فهي مشروطة موضوعياً ومستقاة ومنقولة بابداع من الماضي. وكان احتلال اكتشافات واختراعات المعالجة المعلوماتية والتكنولوجية المتقدمة في الاتصالات، موقعها خلف تلك المرتبطة أساساً بالبنى التحتية لهذه المجتمعات (كالطاقة وتطبيقاتها في الانتاج والنقل) الحافز للأزمة التحكمية في عموم مجتمعات البلاد المتقدمة صناعياً، وقيام الثورة التحكمية (Control Revolution) وباكورتها التكنولوجيا الالكترونية والنووية، منذ ما يقارب المئة سنة. . . واستخدام الكومبيوتر والمعالجات المجهرية وتكنولوجيا البرمجة الجينية. ورسّخ الانتقال المرن من الأزمة التحكمية، أواخر الثورة الصناعية، الى الثورة التحكمية، نهاية القرن التاسع عشر، التطور الثابت والمستمر للمجتمعات الحضارية الحديثة والتي يطلق عليها بحق «المجتمعات المعلوماتية»، حيث التقدم الكبير في استخدامات الطاقة، وسرعة المعالجة والتحكم معاً، اللذان عمّقا بدورهما منافع تكنولوجيا التحكم (التغذية المرتدة Feed back، التغذية المؤثرة العكسية، التغذية المرتدة الايجابية، الاستقرارية) وهي بدورها أرست الموثوقية والتنبؤية في نشاطات التحكم، وتوسيع استخدام تقنيات التحكم وتكنولوجياتها. وقد وسعت الثورة التحكمية من قابلية السيطرة على المواد والطاقة واستخداماتها في الانتاج والنقل والتوزيع والاستهلاك، وعمقت التناقضات في النظم الاجتماعية القائمة، عمودياً وافقياً، بأطوار ومظاهر مختلفة، منها الحاد ومنها الملطّف. ومن أبرز المظاهر العصرية للثورة التحكمية: أ ــ تزايد أهمية التكنولوجيا المعلوماتية. ب ــ النمو المتزن المضطرد

المتوازي للأقتصاد المعلوماتي والتحكم به عبر الدولة والقطاعات الاقتصادية الاخرى. ج ــ توسع القاعدة المنظمة لأساس التحكم وتطبيقاته في الهياكل الاجتماعية. د ــ تركز وتمركز المعالجة والاتصال بالمعلومات. هـــ تصاعد نمو المعلوماتية في المعرفة والثقافة العصرية.

أصبحت المعلومات القاعدة المادية للأقتصادات الوطنية الحديثة. وهي لا تمتلك حدوداً وفواصل وطنية.. حيث يجري التطور في المجتمعات الحضارية عبر انتاج القيم المعلوماتية، وهي قيم مادية بالطبع. إلا أنها تختلف عن القيم المادية الاخرى التي ولّدت المجتمعات الصناعية والزراعة القديمة. فالمعلومات هنا هي قلب الحاجات الاقتصادية للمجتمع. ويتطور الاقتصاد الوطني وينمو حول هذا القلب عبر انتاج ونقل واستخدام واستهلاك القيم المعلوماتية. وظهرت مفاهيم جديدة مثل الاقتصاد المعلوماتي المتمركز، أو أقتصاد المحور المعلوماتي (حيث تفوق المعلوماتية، هنا كناتج اقتصادي، السلع التقليدية والطاقة والخدمات) والصناعة المعلوماتية، والادارة المعلوماتية والعصر المعلوماتي والفضاء المعلوماتي.. الخ. وتعنى المعلوماتية، كمفهوم مادي، بالعلائق والمستلزمات الشرطية بين الجسم والموضوع التي تسمح بالانتخاب والاختيار الفعّال القادر على دفع الجسم على تطوير جانب من قيمته الاستعمالية. وقد أسهمت تكنولوجيا المعلومات المتقدمة في ترسيخ نمط جديد من الانتاجية كان له آثاراً اجتماعية أهلّته لاجراء التحولات الاجتماعية العميقة في مختلف البلدان، الرأسمالية والنماذج الاشتراكية القائمة.

إن احدى أهم مظاهر مأزق الرأسمالية استغلال تراجع التجارب الاشتراكية وفشل بعضها، لتثبت أنها الخيار الوحيد امام البشرية. لكن التجربة العملية تؤكد تفاقم الأزمة البنيوية الشاملة للرأسمالية وعجزها، رغم نجاحات التكييف والتجديد، عن القضاء على الأزمات الدورية والمتتالية.. كما أن فشل تجربة ما، او نموذج، لا يلغي ويسقط القيمة المضمونية، بل العكس هو السليم. فمضمون الاشتراكية الأنساني والديمقراطي ملهم للشعوب من أجل المستقبل الأفضل. لقد تفوق السوفييت في انتاج الفولاذ والكونكريت والنفط والكثير من المواد الأساسية الاخرى خلال الثمانينات إلا أن المواد الالكترونية وسلع الاتصالات الحديثة قد تحدد دخولها الى الأراضي السوفيتية وكانت تحت اشراف أعلى الجهات الأمنية. كما منعت من النشر والانتشار أجهزة الاستنساخ والفاكس والكومبيوتر الشخصي (PC)، والمعدات الالكترونية الخاصة بالمؤسسات والخرائط

العلمية والتقنية والاحصائات الديموغرافية الدقيقة. لقد أحكمت المراتب العليا في القيادة السوفيتية، وبأشراف ضيّق جداً، تسيير معابر السيل المعلوماتي الجديدة بأراضيها. وكان رفع القيود على التحكم المعلوماتي الفرس الجامحة في البيريسترويكا، لكن الخلل في السيطرة على الحلقات التحكمية الرئيسية أدى الى تدمير حزب السلطة وزعزعة الدولة.. وقبعت المعلومات كثمرة محظورة في كل زاوية وفي عقول الجميع بالنصف الثاني من الثمانينات، وتدفقت الى البلاد معدات الاذاعتين المسموعة والمرئية الحديثة والبعد الوسائطي (الملتيميدياmultimedia). لقد انتج الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٧ من الفولاذ، ضعف انتاج الولايات المتحدة، إلا انه لم يمتلك في هذا العام سوى مائتي الف جهاز ميكرو كمبيوتر (كمبيوتر شخصي) مقارنة مع ٢٥ مليون جهاز في الولايات المتحدة.

لقد أدرج ستالين، رغم مآثره، وبجرّة قلم السيبرنتيك ضمن الخدع البرجوازية والعلوم الكاذبة ولم تنل الاهتمام اللازم ابداعات العالم الاميركي (نوربوت ڤينر)، الذي كتب آنذاك: «تعتبر المعلومات مادة للمعالجة اكثر من كونها مادة للخزن». وكان هذا الموقف أيضاً من العالم (فرويد) ونتاجاته في علم النفس. أما العلماء السوفييت الذين فسروا الاتجاهات العلمية الجديدة، وبرّروها على الأقل، فقد زجوا في السجون ومعسكرات العمل مثلما حصل مع عالم الفيزياء الفلكية (غرونيد ليوبارسكي) الذي أتهم بالدعاية المعادية للسوفييت. ولم يكرر ليوبارسكي ما سماه ڤينر في حينه، بالثورة الصناعية الثانية (ظهور الكومبيوتر)، بل سماها هو «ثورة العلم والتكنولوجيا» وقد كتب «آرنست نيزفيستني» وهو ضابط كبير في أجهزة الأمن بالاتحاد السوفييتي عن نوربرت فيز في الستينات «انه تماماً على حق عندما يذكر في كتابه ــ السيبرنتيكا والمجتمع ــ انه بدون التغذية المرتدة لايمكن للمجتمع ان يحيا.. ولكن قد أخطأ جداً عندما فكر أن مجتمعنا يفتقد التغذية المرتدة. فنحن نمتلكها لأن أجهزة أمن الدولة هي نمط من التغذية المرتدة. وفي بلادنا ترسل هذه الاجهزة مختلف التقارير الى القيادة عن الاوضاع الحقيقية في البلاد»[1]. وهكذا ظل النشر المعلوماتي جريمة يحاسب عليها القانون السوفييتي طيلة نصف قرن من الزمن سادت فيه الليسنكوية (نسبة الى مدرسة ليسنكو استاذ البيولوجيا في زمن ستالين وخروتشوف ومؤدلج إكاديمية العلوم في موسكو) اساليب بيريا (قائد أجهزة الأمن السري زمن ستالين).

يؤكد الاستاذ الاميركي (ليوماركس) على ان التكنولوجيا المتطورة المحسّنة تعني تقدماً.. شرط معرفتنا آفاق التطور والخطوات اللاحقة. فهي تقدم باتجاه ماذا؟[2]. لقد

ظهرت في الولايات المتحدة واوروبا المدارس الفلسفية المتعددة التي تخدم كل منها مصالح طبقات وفئات اجتماعية معينة في تفسير العلاقة ما بين التكنوقراط والتكنولوجيا العصرية المتقدمة والمعلوماتية الحديثة والتقدم الاجتما اقتصادي. وأهمها مدارس بنجامين فرانكلين، توماس جيفرسون، دانييل ويبر، ادوارد ايغريت، هنري آدمز، تورستاين فيبلين، آندرو كارنيجي، توماس اديسون، فريدريك تايلر، وتوماس كارليل.. وتوزع اصحابها مابين المدرستين الفلسفيتين الاساسيتين المادية والمثالية. والماديون منهم مابين الميتافيزيقية والميكانيكية والجدلية.

لقد طبعت الثورتان التحكمية والمعلوماتية والثورة العلمية التكنولوجية العالم بسماتها، وولدت الأوجه الكارثية للتكنولوجيا الحديثة مثل: هيروشيما والرعب النووي والخراب والدمار البيئي في العالم الصناعي المتقدم، الحوادث العرضية الخطيرة والانهيارات المفاجئة (مثل حوادث المحطة النووية في ولاية بنسلفانيا سنة ١٩٧٩، ومحطة تشرنوبل السوفيتية المعروفة سنة ١٩٨٦).. ان الموت والدمار اللذين ميزا تاريخ هذا القرن (حربان عالميتان بربريتان، هلوسة نازية، رعب ستاليني، سباق التسلح النووي، الدكتاتوريات الفاشية، جنون حربي الخليج، الحروب الاهلية في اوروبا. . .) قد أديا الى نشوء الحركة الاجتماعية المعادية للتكنوقراطية وقاعدتها الاجتماعية: الحركات المعادية لنشر السلاح النووي، الحركات المناضلة من أجل البيئة والمدافعة عن سلامة الطبيعة والتوازن البيئي، الحركات الاجتماعية النسائية التقدمية.. كما ولدت مرحلة جديدة في انتاج التكنولوجيات البديلة العصرية وتكنولوجيا سبل الطاقة المرنة.

وتطلب الآن ارتفاع سرعة وحجم وتعقيد العمليات الصناعية والنظم التكنولوجية في العالم تطوير اساليب جديدة في التحكم الذي يضمن بدوره تطوير تقنية وتكنولوجية الجوانب المتعددة للمعالجة المعلوماتية والاتصالات الحديثة. وقد أمنت الاجهزة الادارية، والتلغراف، والأوراق النقدية، والكمبيوتر التحكم المطلوب. ولم يشهد المجتمع المعلوماتي التغيرات الفجائية الأنثروبولوجية إلا عبر التصاعد المضطرد التدريجي في سرعة المعالجة المادية وقنوات تصريف الاقتصاديات الوطنية منذ أكثر من قرن. وكان تقدم التصنيع في القرن التاسع عشر وازمات التحكم وممهدات الثورة التحكمية والتطور المستمر للمجتمعات المعلوماتية والمرحلة المتقدمة في الاتصالات عن بعد، هذا التقدم مسؤول بالواقع عن التغيرات الاجتما اقتصادية الاخيرة، وظهور النظام العالمي الجديد ومجتمعات ما بعد الاشتراكية القائمة! والدول الصناعية الحديثة القائمة على تعزيز

التحكم الشمولي، والاعلام الجماهيري الحديث المكثف. اما العقل الصناعي (اي الروبوت) فقد أفرز فسيفساء حقائق معقدة في نهاية قرننا الحالي، تعكس التناقض الفسيح لعالمنا المعاصر.

لقد انتقل التاريخ العالمي الى مستوى جديد أثر فشل نماذج الاشتراكية القائمة والاختلال الحاصل بين قوى وعناصر ومكونات العملية الاجتما اقتصادية. . . بينما تستمر الثورة العلمية التكنولوجية في سيرها جارفة جميع الاتجاهات والمظاهر البالية والرجعية ومعززة مجتمع الانتاج وخاصة الاختراعات والتحسينات التكنيكية. وتصل انتاجية العمل الى درجات تتدفق فيها الخيرات المادية ويتحقق فيض الانتاج والعمل عبر المجازفة والمباراة والمبادرة الجريئة، اي الديمقراطية بأوسع مفاهيمها على صعيد الانتاج وعلى الصعيد الجماهيري المحلي وعلى صعيد الدولة. وتعتبر الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الشرط الأمثل للتقدم العلمي والتكنولوجي حيث تربط المعلوماتية المعاصرة ميادين التصميم والانتاج والتسويق بعضها مع بعض وبأوثق الأواصر مسببة التغيرات في بنية الانتاج، جاعلة اياه أشد سرعة واكثر مرونة، ومعجلة التغيرات البنيوية الواسعة العميقة في الاقتصاد. ويظهر جلياً دور الثورة العلمية التكنولوجية في نقل قوة العمل الاساسية الى ميدان المعلوماتية والخدمات لتصبح هذه القوة مزيجاً من القوى الاجتماعية التي تضم طاقة المجتمع الذهنية والعلم. ويتولد طراز جديد من العاملين في عموم الانتاج. أما الاحتكارات العالمية فتسعى الى تجنيد منجزات الثورة العلمية التكنولوجية في خدمتها دوماً لتخفيف تأزم اقتصادها الرأسمالي ولتكييف جهازها الانتاجي مع المتطلبات الجديدة وتعميق التبعية التقنية والتكنولوجية للبلدان النامية.

تتصف الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة بتحول العلم الى قوة انتاجية مباشرة وسيادة المكننة والاتمتة الانتاجية، وتمركز الانتاج وتعمق تعاونه وتآلف فروعه الانتاجية. وقد زودت الثورة العلمية التكنولوجية المصممين لا بالمواد التي يمكن الحصول عليها بل بالمواد التي يطلبونها، ومهدت السبيل لاحلال عصر الاختيار غير المحدود. اما المعلوماتية الحديثة فقد وفرت امكانية التجريب والتحقق المسبق من مختلف المبادرات وجعلت من الثورة العلمية التكنولوجية الشريك والحليف الأهم للثورة الاجتماعية، وعززت من فهم جدل تجديد العالم وجدل المكتسبات الاجتماعية والعلمية التقنية. ونبذت الجمود والبيروقراطية التي رفضت يوماً ما السيبرنتيكا والبيوتيكا وعلوم الهندسة الوراثية، الأمر الذي الحق ضرراً كبيراً بالفكرة الاشتراكية نفسها وتطويرها.

وتصبح جميع النماذج الاجتماعية الاقتصادية ذات الطابع الجامد والبيروقراطي عائقاً أمام تطور الثورة العلمية التكنولوجية وحتى اللحاق بركبها.

لقد جعلت الثورتان العلمية التكنولوجية والمعلوماتية الحرب انتحاراً للبشرية ويؤدي استخدامها على نطاق ضيّق، في حروب مجنونة، الى الدمار والخراب الكبيرين بفترات وجيزة دون تقديم الخسائر بالأرواح، من قبل القوى المهاجمة، ودون الحاجة الى الجيوش الجرارة والكفاءة القتالية للمهاجمين ولا حتى الى الشجاعة والاقدام. وقد حولت التكنولوجيا الحديثة الحرب الى ما يشبه لعب الأطفال! فالأنظمة الخبيرة ومعدات الذكاء الاصطناعي والشبكات العصبية وأشعة الليزر والروبوت والسوبر كومبيوتر والكاميرات الحساسة في التعدد الوسائطي الملتميدي تحدد الهدف وتحوله الى أثر بعد عين في لحظات. كما أن النموذجية العصرية السيبرنتية والمخططات الخوارزمية ومعدات الأتصال عن بعد وتطور العلوم النظرية والتطبيقية والمنطق العشوائي (Fuzzy Logic) والاحتماليات تجعل من تنفيذ البروفات الكاملة للحروب قبل موعدها بفترات زمنية مناسبة من المهمات السهلة.

ويمتلك البنتاغون نطاقاً واسعاً من الخطط لتثوير ميدان المعارك بتكنولوجيا المعلومات بالمدى عينه الذي ادى اليه ادخال الدبابات في الحرب العالمية الاولى أو القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية. فسيناريو الحرب المعلوماتية جاهز لو شكل أي حاكم تهديداً لأي حليف لأميركا في اي منطقة من العالم. فأميركا لن ترسل فرقاً عسكرية أو أساطيل حربية، بل بدلاً من ذلك تصب على المهاجم سلسلة من اللعنات المستحدثة التي تولدها فأرة الكومبيوتر وشاشات الفيديو ولوحات التحكم فتخلق البيئات الملتميدية الوهمية. اما دسّ الفيروسات الكمبيوترية في محطات الاتصالات الهاتفية، وصب القنابل الذكية المزودة بتقنية التوجيه عالي الدقة لتدمير مقرات التحكم الالكتروني الرئيسية فهي الشرارات الأولى في الحروب المعلوماتية. فيتلقى القادة الميدانيون أوامر مزيفة من أجهزة الراديو. وتشوش العربات الجوية الحديثة البث التلفزيوني، ويجري شن الحرب النفسية. وتقوم القنبلة المنطقية بمسح البيانات الخاصة والسرية في شبكات الدفاع والبنوك. كل ذلك يجري دون اطلاق رصاصة واحدة. اما التكنولوجيا الحديثة الأكثر تقدماً ، فأستهدفت تدمير وحرق المكونات الالكترونية في المباني دون العاملين، تكنولوجيا حربية «مسالمة»، والاستخدام المكثف لمعدات جمع المعلومات الاستخباراتية لاسيما أجهزة التجسس الحراري البيولوجي.

ان التحدي الامني الرئيسي في هذا القرن، وربما في القرن المقبل، سيحمل عنوان «الحرب المعلوماتية». وهي شكل متطور للحرب النفسية التقليدية التي شنتها الدوائر الامبريالية طيلة سني الحرب الباردة. فهي نظام متقدم من نمط جديد للتأثيرات العقائدية على وعي الناس وعبر المجالات السايكولوجية ــ الاجتماعية. وتهدف من خلال الاحباط الروحي والتخريب ونشر الدعايات والتلفيق والتضليل والتهديد وعرض القوة العسكرية الى الضغط على الجهة المقصودة بالطريقة التي تجبرها على القيام بخطوات غير متزنة وغير مدروسة او مخططة فتضعف قدراتها النفسية ــ الروحية والمادية.

ومع الثورة المعلوماتية والعصر المعلوماتي ونمو التبادل العلمي التقني والثقافي بين الدول، تتوفر ظروف ملائمة أكثر إما للحرب النفسية الحديثة، الحرب المعلوماتية والتعتيم المعلوماتي والارهاب المعلوماتي، وإما للاستخدام السلمي للمعلومات الذي يسهم في نضال الشعوب العادل من أجل العدالة والسلم والديمقراطية والتقدم الاجتماعي. وتستهدف ستراتيجية وتكتيك الحرب النفسية خلق امكانيات التفوق المستمر على الخصم. وهنا يبرز التحكم في توجيه الحالة النفسية للناس عن طريق الهامهم بأفكار معينة تنسجم مع سياسة النظام المعني. ويكون هذا التحكم عادة في البلاد الرأسمالية على هيئة خداع وتضليل وغش وتحايل وسرقة وتلفيق وضغط مقترن بالوعيد الملطف (ترغيب وترهيب). وتستخدم الحرب النفسية التشهير والخداع والتخوين والاشاعة وتزوير الحقائق والصاق التهم وخلق الاوهام وسرقة الشعارات والاستفزاز والانفعال والهلع النفسي في مظاهر متطورة تنسجم مع سيناريوهات الحروب المعلوماتية العصرية. وقد كان تزويد الدول المتحاربة بالمعلومات الاستخبارية والاستراتيجية ميدان تنافس بين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي. فالحرب المعلوماتية مفهوم ليس جديداً بل هو مرادف لكل الحروب التقليدية وشرط ضروري لتحقيق رجحان الكفة في موازين القوى الدولية والاقليمية طيلة التاريخ البشري. وقد اكتسبت مضموناً جديداً في دخول عصر المعلوماتية والثورة المعلوماتية. ومن المعروف اهمية توفر عدة عوامل تحدد الشروط الاجتماعية والسايكولوجية لتأثير المعلومات، منها على سبيل المثال: درجة الثقة تجاه المعلومات المعينة، ظواهر الانتقاء الاصطفائي ومساوئ فهم بعض الوسائل المعلوماتية، شبكة العلاقات الخاصة والشخصية والعامة التي ينتمي لها الأفراد والمجموعات، شكل المعلومات أو الرسائل المعلوماتية.

ان المعلوماتية الحديثة واختراعات التقنية المعاصرة ذات القوة التدميرية يمكن ان تشكل خطراً هائلاً إذا لم تكن تحت اشراف اناس ذوي ضمير وشعور بالمسؤولية وذوي ثقافة أيضاً. وهنا وجب وضع حد لسلخ السياسة عن قواعد الاخلاق الانسانية العامة، وتصفية الاغتراب بين الممارسة السياسية والأخلاق العامة، وتجسيد الواقعية والعقلانية الحقة لمجاراة الأوضاع الخارقة الناشئة لأول مرة في التاريخ. وبالمعلوماتية المعاصرة والتبادل المعلوماتي المتعدد الجوانب والاتجاهات وتعاظم السيولة المعلوماتية يمكن ان تتحول البشرية الى اسرة عالمية واحدة مجهّزة بكل مستلزمات تطوير الحضارة. فالعالم اليوم مفعم بالآمال ومثقل بالمخاطر والتناقضات فهو يعيش اكثر الفترات التاريخية قلقاً.

يقول الاستاذ بينجامين دزرايلي «ان الفرد الاكثر نجاحاً هو الذي يمتلك اكبر قدر من المعلوماتية» ونحن نضيف: واكثرها دقة وتركيزاً وأكتمالاً. فصناعة التكنولوجيا المعلوماتية تحتل اليوم قلب الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة، وهي تشمل انتاج ومعالجة ونقل وخزن وتوزيع واستخدام واستهلاك المعلومات. وتمخض تطور أكبر الصناعات في العالم عن التطور السريع للتكنولوجيا المعلوماتية، لاسيما تكنولوجيا الحافّات القاطعة او الحادة (Cutting-Edge)، التي تشمل معدات الكومبيوتر، حزم البرامجيات (السوفت وير)، معدات الذكاء الاصطناعي، الأنظمة الخبيرة، الشبكات العصبية، الترانسبيوتر، الفايبر البصري، معدات الأتصال عن بعد... الخ. وأساس هذه المعدات جميعها الحاسوب او الكمبيوتر. ويعتقد الاستاذ ايسيوسونوب «ان التطور العلمي التكنولوجي منذ القرن الثامن عشر وحتى الآن، قد استكمل ثورته الصناعية الثالثة». فقد بدأت الثورة الصناعية الاولى مع اختراع الماكنة البخارية سنة ١٧٧٦ من قبل جيمس واط. وانطلقت الثورة الصناعية الثانية حوالي عام ١٨٧٠ مع اكتشاف الكهرباء ونشوء امكانية تحويله الى أشكال اخرى للطاقة. وتعتبر تكنولوجيا معالجة المعلومات عنوان الثورة الصناعية الثالثة وأساس انتاج الكمبيوتر.

الكومبيوتر والانسان:

ان الكومبيوتر وسيلة معرفة عالمنا المعاصر المحيط، وتعلم وعمل وتربية حقيقية فعالة، إلا أنه ليس لعبة. ولم تصبح هذه المعدات مؤخراً أداة للتسلية واللعب فقط، بل وسيلة معلومات بهلوانية لتحقيق بعض الرغبات الخاصة والمطامع البراغماتية.

والحقيقة أنه لاتوجد قيمة لما يعمل كل من الكومبيوتر والانسان كل على حدة بالمقارنة مع تفاعلهما معاً لتأدية أعمال أفضل وأسرع. فالبرمجة الكمبيوترية تحويل فعال للحقيقة الخاصة الى حقيقة للصالح العام. ولا يقوم الكمبيوتر بتنفيذ ارادة الانسان بشكل اعمى فقط، ولايخزن المعلومات فقط، بل يدخل في اعتباره أيضاً التغيرات الحاصلة في الظروف والشروط والمتغيرات والعوامل. كما يتعلم الكومبيوتر أثناء تأدية عمله بحيث لا يكرر أخطاءه. وقد مضت خمسة عقود على ظهور كمبيوتر «ڤون بنومان» سنة ١٩٤٥، وهو أول كمبيوتر رقمي يعتمد على الصمامات أساساً في تركيبه. وشهد عام ١٩٥٥ ظهور أول كمبيوتر قائم على عمل الترانسستور. ومنذ سنة ١٩٥٨، تاريخ ميلاد الدائرة التكاملية على يد المهندس الشاب (جاك كيلبي) كان عدد الترانسسترات يتضاعف في الرقيقة الواحدة كل سنة تقريباً. وبلغت التكنولوجيا الالكترونية من الدقة بحيث أمكن زراعة أكثر من مليون ترانسستور في الرقيقة الواحدة. ومع ظهور المعالجات المجهرية (Microprocassors) سنة ١٩٧١، تطور التكامل الرقائقي من الوحدات الصلدة الى التكامل الصغير والمتوسط (١٠٠ وحدة في الرقيقة) والتكامل الكبير (١٠٠٠ وحدة في الرقيقة) والكبير جدا (أكثر من مليون وحدة في الرقيقة). وتشمل تكنولوجيا التكامل اليوم حجوماً أقل من مايكرون في الرقيقة الواحدة، وهذا يعادل عدد كريات الدم الحمراء في الانسان أو خلايا البكتريا الصغيرة. وهذا يعكس بالطبع سرعة المعالجة والكفاءة العالية للوحدات وتعقد التراكيب المجهرية المعمارية. واستخدمت تكنولوجيا التكامل في صناعة الكمبيوتر الحديث. وتنفذها اليوم ملايين التعليمات في الثانية الواحدة في السوبركمبيوتر. فكمبيوتر (كواي) قادر على تنفيذ (٢٠٠-٢٤٠ مليون) عملية في الثانية الواحدة. كما تطورات هندسة البرامجيات فظهرت منها التي تستخدم اكثر من لغة عالية المستوى. وقد برزت احتكارات الكمبيوتر في الخمسينات لتستحوذ على (٨٤٪) من الانتاج العالمي سنة ١٩٦٢، و (٩١٪) سنة ١٩٦٧. وقد تخلف السوفييت في انتاج السوبركمبيوتر الذي تضاعف انتاجه في الولايات المتحدة فقط ٣ر٧ مرة من سنة ١٩٦٥ وحتى سنة ١٩٧٠(...).

الهوامش

(١) راجع سكوت شان، اليوتوبيا اللامعقولة: كيف أنهت المعلوماتية الاتحاد السوفييتي ــ شيكاغو ١٩٩٤.

(٢) ليو ماركس: وهل التكنولوجيا المحسنة تعني تطوراً، American Technological Review عدد ٧١، سنة ١٩٨٧.

بدايات الاعتزال الكلامية والفلسفية

د. رشيد البندر

مازال الاعتزال يلفت أذهان التواقين الى حرية الفكر والإستخدام الأمثل للعقل، والتحرر من أسر النص، فالإعتزال يمتلك رؤية حيوية حول الوجود كطبيعة وانسان، وعلاقتهما بالله، رؤية تُمكن الانسان، الى حد ما، من حرية التصرف في شأنه الإجتماعي، ومن التأثير الواعي على الطبيعة لمصلحته. حاول المعتزلة في مختلف مراحلهم الكلامية والفلسفية تأكيد مسؤولية الانسان عن أفعاله، ومن البديهي أن يقود هذا الى تفعيل دور العقل في تنظيم الحياة الاجتماعية والتأثير في الطبيعة، ويبرر أحد رموز الإعتزال البغداديين، القاضي عماد الدين عبد الجبار، في كتابه «طبقات المعتزلة» أعتبار العقل الأصل الأول في الإيمان والحياة حتى قبل القرآن والسنة النبوية بقوله: «لأن به يميّز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، وربما تعجّبَ من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يُعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب». وقد عبّر شيوخ الإعتزال الآخرون عن هذا الأمر بمبدأ «الفكر قبل ورود السمع»، والمقصود بورود السمع هو النص المنقول كخبر أو رواية. وفي هذا المجال طرح المعتزلة أفكاراً بالغة الأهمية تجلت في رؤيتهم الخاصة للعقل كواسطة بين الله والانسان، ورؤيتهم لطبائع الاشياء وقوانين وجودها وتطورها كواسطة بين الله

والطبيعة، ويفهم من هذه الأفكار أن المعتزلة مالوا الى القول بتدخل الله في الكون ــ بعد خلقه ــ من خلال تلك الوسائط. فالناس يحددون حياتهم الاجتماعية كنظام اجتماعي وسياسي، وهذا يتطلب تحريرهم من سطوة القدر. أما الطبيعة فتتحدد أشياؤها من خلال ما ترك الله فيها من طبائع.

وهذه الأفكار كلامية وفلسفية مثيرة في زمنها وربما في الزمن الحالي أيضاً، مع ذلك حاول مؤرخون عديدون أن يعطوا الإعتزال أبعاداً سياسية بحتة، بدءاً من ربط وجود الإعتزال كفكر وفلسفة بالذين اعتزلوا الخلافات في السلطة الإسلامية بين المركز و «المتمردين» سواء كان ذلك في معركة الجمل أو معركة صفين، فتسمية معتزلة إشتقت من العزلة. وبالغ بعض المؤرخين في الدور السياسي الثوري للمعتزلة في مواجهة السلطة الأموية ثم العباسية. كذلك بالغ المؤرخون المحابون في اعتبار المعتزلة حماة الدين ضد فرق أسلامية وديانات وفلسفات مانوية (ديانة عراقية) وأيرانية وهندية ويونانية، إنطلاقاً من فلسفة التوحيد المعتزلي الخاصة بتنزيه الذات الإلهية من كل الصفات، ومن إشغالهم لموقع فكري كادت تلك الديانات والفلسفات أن تحتله. وبذلك عدّوا كمجددين للدين الإسلامي وتخليصه من غلاة ومشركين. والظاهر أن هذه الآراء وغيرها من التي نسبها المؤرخون والباحثون الى المعتزلة، انما أتت كمحاولات في الدفاع عنهم ضد ما نسب لهم في التاريخ الملّلي والنّحلي من مثالب وكفريات، لكن تلك المحاولات غطت على الجوهر الفلسفي للإعتزال في النظر للإنسان ككائن حر مسؤول عن أفعاله، والنظر الى الكون كظواهر محددة بعلاقات وقوانين. أما مؤرخو الملّل والنّحل من المعتزلة فقد ذهبوا في الدفاع الى حد الزعم ان الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز وأبناء وأحفاد علي بن أبي طالب وصلحاء الصحابة والتابعين كانوا من طبقات المعتزلة. وبذلك اساؤا كثيراً لمصداقية الرواية التاريخية حول الإعتزال. وكان المؤمل أن يرجع الباحثون الى مؤلفات هؤلاء ليجدوا الحقيقة بعد أن أمتلأ التاريخ المللي والنحلي بالأغاليط ضد المعتزلة وغيرهم من مخالفي المذهب الرسمي.

وملخص القول ان المحاولات، القديمة منها والحديثة، في الدفاع عن المعتزلة كانت بعيدة عن مسار الإعتزال التاريخي وعلاقته بتاريخ الفكر العراقي. فالإسلام كان في كل مكان، ولكن لماذا يظهر المعتزلة وإخوان الصفا بالبصرة وبغداد دون غيرهما؟، ان الطريقة التي كتب فيها تاريخ المعتزلة والفرق الفكرية الفلسفية، على اعتبار أنها منجزات عربية فقط، وهي نفس الطريقة التي كُتب فيها تاريخ المدن والحواضر العراقية، فبغداد

نسبت الى أبي جعفر المنصور، والبصرة نسبت الى عتبة بن غزوان، والكوفة نسبت الى سعد بن أبي وقاص، الذين شيدوا عدداً من المساجد والمعسكرات لمواصلة الفتح، باحجار الزقورات والمعابد والسدود.

حقيقة المعتزلة أنهم جماعة عراقية أظهروا دعوتهم في البداية بالبصرة ثم تأسس فرع لهم ببغداد في بداية القرن السابع الميلادي (أو الثاني الهجري)، ووردت تسميتهم من خصومهم، لكنهم وافقوا عليها وباركوها. ويقول قاضي القضاة عماد الدين عبد الجبار في كتابه «المجموع في المحيط بالتكليف» عن ملابسات تسمية المعتزلة: «إنما تسمينا بالعدل والتوحيد، لأنا أثبتناه تعالى واحداً عدلاً، وأن التسمية في الإعتزال مدح بالآيات التي في القرآن، وأن السبب في التسمية بهذا الإسم هو إعتزال عمرو (إبن عبيد الباب) وخلعه الحسن (البصري)، لوحشة لحقته من قتادة (السدوسي وهو اعمى ورث رئاسة حلقة الحسن بعد وفاته)، فقال قتادة أصبح عمرو معتزلياً». وفي قناعتهم بهذا اللقب أو هذه التسمية يقول وزير المأمون إبن يزداذ في كتابه المصابيح: «أن كل أرباب المذاهب نفوا عن أنفسهم الألقاب إلا المعتزلة، فانهم تبجحوا به، وجعلوا ذلك علماً لمن يتمسك بالعدل والتوحيد، وأحتج في ذلك أنه تعالى ما ذكره إلا في الإعتزال من الشر».
كان روادهم الأوائل من البصريين: واصل بن عطاء الغزال، عمرو بن عبيد الباب، عثمان الطويل، أبو الهذيل العلاف، إبراهيم بن سيار النظام، ومعمر بن عباد السلمي، بشار بن برد، إبن الراوندي، ضرار بن عمرو، أبو الحسن إسماعيل الأشعري (قبل خروجهم ــ الأربعة ــ من الإعتزال)، وغيرهم. أما البغداديون فمنهم: بِشر بن المعتمر الهلالي، ثمامة بن أشرس النميري، عبد الرحيم الخياط، أبو القاسم الكعبي (البلخي) وآخرون. كان واصل بن عطاء على صلة بالحسن البصري الذي ينحدر من دست ميسان (العمارة) وكانت هذه الصلة صلة المريد بالشيخ أو التلميذ بالإستاذ، فالحسن كان صاحب حلقة دراسية في مسجد البصرة، يتحلق حوله عدد من الزهاد والمنقطعين الى العلوم الدينية، وكانت هذه الحلقة بعيدة عن السياسة، فشيخها كان خائفاً من الحجاج بن يوسف الثقفي طيلة ولاية الأخير على العراق، والتي أستمرت عشرين عاماً، وكانت فترة مرعبة بالنسبة لهذا الشيخ والعراقيين كافة. ورغم هذا الإنزواء عن السياسة والخوف فان الحجاج قال عنه: «غلبني علجٌ تواريه أخصاص (بيوت القصب) البصرة»، ولاندري بأي شيء غلب الحسن البصري الحجاج الرهيب؟ ربما بصبره عليه!. لقد تنافست على وراثة أسم الحسن البصري وتراثه الفقهي مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية في زمانه وبعده.

حتى المسيحيون كانوا يعدونه من الرهبان المباركين، وعدَّ البعض الزاهدة رابعة العدوية من مريديه، وتخيلَ أنهما كانا يصليان معاً على سجادة تطوف فوق ماء الفرات. وذهب بعض المتصوفة الى حد اعتبار الحسن البصري سلفاً لهم.

حاول بعض المؤرخين نسب الإعتزال للحسن البصري، فقد عدّه مؤرخو الملّل والنّحل المعتزليون من طبقة الإعتزال الثالثة، والحقيقة أن الإعتزال ظهر خلاف رغبته، فقد إنقسمت حلقته وإنصرف العديد من مريديه عنه ليلتفوا حول واصل بن عطاء الذي كثر الأتباع حوله. بعد أن جاهر الإعتزال بإعلان مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» (صاحب الذنب الكبير وسط بين منزلتي الإيمان والكفر، على أساس أن الأيمان ثابت والكفر زائل». وكان إعلانه لهذا المبدأ خلافاً لقول الخوارج في المذنب بأنه كافر، وكذلك خلافاً لقول المرجئة أنه مؤمن. والموقف من أصحاب الكبائر ليس موقفاً فقهياً عادياً، كما يتصور البعض، بل موقف سياسي خطير لأنه يتعلق بالموقف من أهل السلطة، وهذا هو بيت القصيد من تحديد الموقف والإختلاف عليه. وقد جاء موقف المعتزلة وسطاً بين الخوارج وحسمهم والمرجئة وتأجيلهم للعقاب. أما موقف الحسن البصري من هذه المسألة فهو القول بأن صاحب الكبيرة منافق، بمعنى أنه مؤمن. فكثير من المنافقين كانوا يعيشون حياة طبيعية كمسلمين في زمن النبي وبعده.

في مناظرة جمعت بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في مجلس الحسن البصري أكد واصل مبدأه الجديد «المنزلة بين المنزلتين»، ويروي المرتضى في «الأمالي» تفاصيل هذه المناظرة بالروايةالآتية: «جلس واصل في الحلقة وسئل أن يكلم عمرو، فقال واصل لعمرو: لم قلت أن منْ أتى كبيرة من أهل الصلاة إستحق أسم النفاق (حسب قول الحسن البصريِ)؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولاتقبلوا لهم شهادة، اولئك هم الفاسقون»، ثم قال في موضع آخر: «والمنافقون هم الفاسقون» فكان كل فاسق منافقاً، إذ كان ألف ولام المعرفة موجودتين في الفاسق، فقال له واصل: أليس وجدت الله تعالى يقول: «ومنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» وأجمع أهل العلم أن صاحب الكبيرة يستحق إسم ظالم، كما يستحق أسم فاسق، فالا كفرت صاحب الكبيرة من أهل الصلاة بقوله تعالى: «والكافرون هم الظالمون» كما قال في القاذف: «اولئك هم الفاسقون» فأمسك عمرو، ثم قال له واصل: يا أبا عثمان إنما أولى أن يستعمل في أسماء المحدثين من أمتنا ما أتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة، أو ما أختلف فيه؟ فقال عمرو: بل ما أتفقوا عليه أولى،

فقال له واصل: الست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً، ويختلفون في ماعدا ذلك من أسمائه، لأن الخوارج تسمّيه مشركاً فاسقاً، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً، والحسن (البصري) يسميه منافقاً فاسقاً، فأجمعوا على تسميته بالفسق وأختلفوا في ماعدا ذلك من اسمائه، فالواجب أن يسمى بالأسم الذي أتفق عليه وهو الفسق، لإتفاق المختلفين عليه... فيكون صاحب الكبيرة فاسقاً، ولايقال انه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر نعمة». فالفسق في مفهوم واصل هو المعني في مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» وبعد إنتهاء المناظرة التي إنتصر فيها واصل، وقف عمرو أمام الحاضرين قائلاً له: ما بيني وبين الحق من عداوة، والقول قولك، فليشهد عليَّ مَنْ حضر إني تارك المذهب الذي كنت إليه من نفاق صاحب الكبيرة من أهل الصلاة، قائل بقول أبي حذيفة (واصل) في ذلك، وأني أعتزلت مذهب الحسن (البصري) في هذا الباب». وبعد إنقطاع عمرو بن عبيد في التناظر أمام واصل بن عطاء، أعلن إنتماءه الى الإعتزال، ليصبح قطباً من أقطابه، ثم رئيساً للمذهب بعد وفاة واصل (١٣١ هـ) بطاعون أصاب البصرة. فقد جرت العادة أن يتجرد المنقطع في المناظرة عن رأيه السابق، ويتبنى رأي قاطعه باتفاق مسبق أو بدونه، وعن جدارة المعتزله في التناظر والجدل يقول الصاحب بن عباد: تمكن من الشوق غير مسامح / كمعتزلي تمكن من خصم.

هكذا أُعلن عن تأسيس الإعتزال كمذهب فكري من خلال طرح مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» في زاوية من زوايا مسجد البصرة، بعد إستكمال مستلزمات ذلك، وسط مذاهب متعددة من شيعة ومرجئة وخوارج وإباضية وجبرية وقدرية ومفكرين محايدين.

لقد شيَّد المعتزلة كيانهم الفكري على تُراث تيارين معروفين، هما: نفاة القدر ومثْبتو القدر من القائلين بنفي الصفات (تنزيه الله من ما تتصف به مخلوقاته أي ليس مثله شيء). وخلق القرآن (القرآن ليس كلام الله بل مخلوقاً من مخلوقاته)، ونفي القدر ونفي الصفات عن الذات الإلهية وهي الأساسية في الإعتزال، وعليها تعتمد مقولاتهم وأفكارهم الكلامية والفلسفية الأخرى. وما القول في «المنزلة بين المنزلتين» إلا الشكل الظاهري الذي أعلن به واصل بن عطاء إعتزاله عن مجلس شيخه الحسن البصري كما أسلفنا.

وإذ دققنا في تسمية التيار الأول بالتيار القدري في كتب الملّل والنّحل نجدها مطابقة بالمعنى لتسمية التيار المناقض وهو التيار الجبري، ولذا عمدنا الى تسميته بنُفاة القدر. ومن هذا التيار أقتبس المعتزلة فكرة «نفي القدر» ودخلت جوهراً في فلسفة العدل المعتزلي، فشرعية حساب الانسان في الآخرة تتطلب الإيمان بنفي القدر وحرية الإنسان

ومسؤوليته عن أفعاله، ومن أشهر هؤلاء القدريين أبو مروان غيلان الدمشقي ومعبد الجهني وكلاهما قتلا بسبب أفكارهما. أما التيار الجبري فبشكل عام كان على صلة وثيقة بالحكم الأموي، فكان مفكروا هذا التيار ينظّرون الى وجود الحكم الأموي كإرادة إلاهية ليس من حق الناس تبديلها أو حتى الإعتراض عليها. لكن هذا التيار لم يكن متجانساً. فالعديد من منظّريه، وإن كانوا يقولون بالإجبار، أي الفعل خيره وشره من الله، ويبالغون في الغاء الأسباب الطبيعية والإجتماعية، إلا أنهم تبنوا فكرة «نفي الصفات» عن الذات الإلهية والفكرة المتصلة بها فكرة «خلق القرآن». وهاتان الفكرتان لهما خطرهما على القائلين بهما. وفكرياً لا تقلان خطورة عن فكرة «نفي القدر». ومن أبرز هؤلاء المفكرين الجعد بن درهم والجهم بن صفوان اللذان قتلا بحفلات دموية رهيبة من قبل ولاة الأمويين في العراق وبلاد فارس. وبسبب حضور الفكر القدري «نفي القدر» سمي المعتزلة بالقدريين كما سموا بالجهميين نسبة الى الجبري الجهم بن صفوان. وكذلك عدّ بعض مؤرخي الملل والنحل كل منْ ناقش في القدر انه معتزلي، حتى قبل ظهور الإعتزال.

أصبحت فكرة «نفي القدر» جوهراً في فلسفة المعتزلة، بينما أصبحت فكرة «نفي الصفات» عن الذات الإلهية جوهراً في فلسفة التوحيد لديهم، أما مبادئ أو اصول المعتزلة الأخرى: «المنزلة بين المنزلتين» و «الوعد والوعيد» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، فما هي إلا متفرعات من مبدأ أو أصل العدل كشرط لتحقيقه. لم يكن المعتزلة الوحيدن من التيارات والفرق الفكرية الذين تبنوا فكَر نفي القدر ونفي الصفات والقول بخلق القرآن، بل ظهرت واضحة ورئيسية عند الإباضِية الذين ظهروا بالبصرة قبل ظهور المعتزلة بكثير. ومازالت الإباضية سائدة في عُمان حالياً، وهو مذهب سياسي وكلامي لا يسمح أتباعه بتسميتهم بالخوارج، بل يؤكدون أنهم الشراة والحرورية الأوائل وإن الخوارج انشقوا عنهم كالأزارقة والنجدات وغيرهم، وتأخذ مسألة أسبقيتهم على المعتزلة زمنياً بنظر الأعتبار عند تحديد الفضل الفكري في تبني «نفي القدر» و «نفي الصفات»، فالشائع أنها أفكار معتزلية والإباضية غير معروفين بها. كذلك ظهرت فكرتا «نفي القدر» و «نفي الصفات» عند المذهب الشيعي الزيدي في ما بعد، لكن الزيدية إستبدلوا مبدأ «المنزلة بين المنزلتين» بأصل الإمامة الذي ضمه المعتزلة لأصل العدل، ومن المعروف أن للزيدية صلات متينة بالمعتزلة، منها الصلة القديمة بين واصل بن عطاء وزيد بن علي ثم التداخل بين معتزلة بغداد والزيدية بالإتفاق حول القول بإمامة المفضول قبل الفاضل، أي إجازة تقديم أبي بكر الصديق على علي بن أبي طالب رغم أن

الأول هو المفضول والثاني هو الفاضل عندهم.

يستطيع الفريقان من نفاة القدر والجبريين أن يستندوا الى آيات في تأكيد شرعية رأي كل منهما (فالقرآن على حد تعبير علي بن أبي طالب حمّال أوجه)، فنفاة القدر يستطيعون دعم رأيهم بآيات منها: «ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومنْ يعمل مثقال ذرة شراً يره» و «إنا أهديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا» و «وما تنفقوا من خير...». وكذلك الجبريون يستطيعون الاستشهاد بآيات تؤكد وجهة نظرهم منها: «قل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا» و «والله يرزق من يشاء» و «وما يُعمَّر من مُعمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب». كذلك الحال بالنسبة الى نفاة الصفات ومثبتيها، فهناك آيات تجيز القول بالفكرتين، فالنفاة يجدون آيات تؤكد شرعية رأيهم منها: «فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، أما مثبتو الصفات فيجدون شرعية رأيهم في آيات عديدة تدل على جسمية الذات الإلهية منها: «يد الله فوق أيديهم» و «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»، كما يستدلون ببعض اسماء الله التسعة والتسعين دليلاً على هذه الجسيمة. ولتجاوز ما تختلف به الآيات مع ماذهب إليه المعتزلة من نفي القدر أو نفي الصفات أو القول بخلق القرآن، عمدوا الى تأويل تلك الآيات، وتحميلها معان مختلفة عن لفظها الظاهر، ولهم في تفسير أو تأويل القرآن منهجهم الخاص. وقد قدم إبراهيم بن سيار النظام نقداً شديداً إلى مفسري القرآن من الفرق والمذاهب الأخرى، مشيراً الى خطأهم في التفسير على اللفظ الظاهر وعجزهم عن فهم وأستيعاب كلمات القرآن ومدلولاتها العامة، وعن كشف المعاني الصحيحة لآياته، ومن وصيته لأهل المعرفة بخصوص المفسرين قوله: «لاتسترسلوا الى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس».أما في مجال الحديث النبوي فينفرد المعتزلة من بين الفرق الإسلامية بموقف خاص. فلئن وجدوا طريقاً في تأويل القرآن والتخفيف من قدسية الأحكام التي تنبع من تفسير المفسرين، فانهم وجدوا صعوبة وربما إستحالة في قبول الرواية عن النبي، وما عُرف بالسنة النبوية. وكان رائدهم التخفيف من سطوة النقل على العقل في الحياة الاجتماعية، فمعروف أن السنة النبوية، أي أقوال النبي ووصاياه وممارساته، ملزمة للمسلمين كافة بعد القرآن، وكثير من الأحكام أخذت شرعيتها من الأحاديث النبوية لا من القرآن، كقتل المرتد عن الإسلام، الاختتان، عدم مصافحة النساء وأختلاف صلاة المسلمين من مذهب إلى آخر وغيرها. وكذلك بيَّن المعتزلة صعوبة

وصول رواية سليمة عن النبي، فائمة الحديث قد ميزوا بين أنواع الحديث الصحيح والحسن والضعيف والموضوع الذي وضعه الفقهاء ونسبوه للنبي)، إضافة الى الأحاديث القدسية (كلام الله على لسان النبي من غير القرآن. ومن آلاف الأحاديث النبوية توصل بعض المعتزلة الى الإلتزام بثمانين حديثاً فقط. ومن رأي كبار مفكري المعتزلة في رواة الحديث نذكر قول إبراهيم النظّام: «كيف نأمن كذب الصادق، وخيانة الأمين، وقد ترى أن الفقيه يكذب في الحديث، ويدلس في الإسناد، ويدعي لقاء منْ لم يبلغه. . . ولولا أن الفقهاء المحدثين والرواة والصلحاء المرضيين يكذبون في الأخبار ويغلطون في الآثار لما تناقضت آثارهم ولا تدافعت أخبارهم». ومن شروط المعتزلة في قبول الرواية عن النبي هو أن يكون الحديث من نص قرآني لا يعارض التأويل، أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه، أو من جهة العقل وضرورته. والحقيقة أن هذه الشروط تحول دون إعتماد أي حديث نبوي على الإطلاق. وفيما يتعلق أيضاً في قول المعتزلة بتقديم العقل على النص، ينصحون علانية في الابتعاد عن التقليد، وأخذ المعرفة والإيمان بالنظر والإستدلال، أي تأكيد قاعدة «الفكر قبل ورود السمع».

انتقل المعتزلة بفكرتي «نفي القدر» و «نفي الصفات» الى الفلسفة، فربطوا فكرة «نفي القدر» بفلسفتهم حول العدل الإجتماعي. فهم يرون بأن الله عادل لا يفعل الظلم، ولهذا قد يتهمهم البعض بالثنوية، أي أن للخير صانعاً هو الله وللشر صانعاً آخر هو إبليس. لكن هل هنالك فكر ديني يخلو من ثنائية الخير والشر وأن مصدر الأول هو الله ومصدر الثاني هو إبليس؟ فلماذا الحذر من غواية الأخير إذا كان غير مقتدر على خلق الشرور، أو إذا كان الإنسان لايملك من أمره لاخيراً ولا شراً؟ فحسب هذا المنطق، من يريد ان يتقي شر إبليس ينبغي عليه تجنب مسبته والتحرش به، وهو ما تذهب اليه بعض الديانات، كالأزيديين في شمال العراق، مثلما يُعاذ من شروره برب العالمين عند ديانات أخرى. وارتباطاً بتطوير فكرة «نفي القدر» عن أفعال الإنسان، تبنى المعتزلة مبدأ أسبقية العقل على الإيمان، ورغم إتفاق مفكري المعتزلة على نفي القدر، أختلفوا في تفاصيل ذلك من خلال تفرعات فلسفية حول مسألة توليد الفعل. فهناك منْ يقول باكتساب الانسان قدرته على الفعل من الله، وهناك منْ يحرر فعل الإنسان تماماً.

أما مسألة نفي الصفات عن الذات الإلهية والتي بدأت بسيطة عند واصل بن عطاء، الذي أخذها من بيئة البصرة الفكرية، فقد بدت عند خلفائه من المعتزلة أقرب الى التعقيد والفلسفة. وكان إدخال الفلسفة عليها على يد أبي الهذيل العلاف الذي وحّد بين الذات

الإلهية والصفات بفكرة «أن الله قادر وقدرته هو هي، وحي وحياته هو هي، وكريم وكرمه هوهو» الخ، أي أنه ألغى الثنائية بين الذات الإلهية وصفاتها، نافياً أن تكون قديمة بقدمه. وهذا هو التنزيه المطلق الذي يؤكده التوحيد المعتزلي. وهناك من المعتزلة كإبراهيم النظام منْ يؤكد صفة الذات كجزء من الذات لنفي الصفة المعاكسة عنها. فالقول بأن الله كريم نفي البخل عنه، والقول أنه حي نفي الموت عنه، والقول أنه عادل نفي الظلم عنه، وهكذا. وهناك معتزلة آخرون فلسفوا العلاقة بين الذات الإلهية والصفات بأفكار أخرى، فقد جعل معمّر بن عباد من الصفات معاني لذات الله، كقوله: «ان الله عالم بعلم وان علمه كان لمعنى والمعنى كان لمعنى لا إلى غاية». وفلسف أبو هشام الجبائي هذه العلاقة بقوله ان الصفات ما هي إلا أحوال الذات الإلهية: «الله هو عالم لذاته بمعنى ذو حالة هي صفة المعلومية».

كل ماتقدم وغيره من غريب الكلام ودقيقه الذي قد يجده القارئ عبارة عن تعقيد لفظي وفكري لدى المعتزلة ومتكلمين آخرين، وان هذا التعقيد هو مايسمى بـ «الكلام الدقيق» أي الفلسفة قبل أن تصبح هذه الكلمة مصطلحاً شائعاً عند المفكرين، ودقيق الكلام أو الفلسفة بتعريف أبو الحسن الخياط في كتابه «الإنتصار»: «غامض الكلام ولطيفه». وقد يكون للكلام الدقيق أو التفلسف، بنفي القدر ونفي الصفات، معنى في الفكر، وتتوقف عليه أمور كثيرة، ومع ذلك، هناك مجادلات كثيرة، خاضها كبار المتكلمين، وردت كرياضة فكرية، لا يرجى منها مواقف فكرية معينة تهم حياة الناس، ومنها الجدال بعلم الله ومكانه، وطبيعة أهل الجنة وأهل النار، هل هم متحركون أم ساكنون وغيرها، ويصف هذه المجادلات الخياط بقوله: «إنما كان العلاف يتكلم في هذا الباب الذي ذكرناه عن طريق النظر، ويشحذ به الإفهام ويستخرج قوى المناظرين».

ترتبط بفكرة نفي الصفات إرتباطاً مباشراً فكرة خلق القرآن، التي قال بها الجعد بن درهم الى جانب نفيه للصفات، وهناك منْ يحيل تاريخها الى ديانات أخرى سبقت الإسلام. ويتفق المعتزلة كافة على أن القرآن ليس كلام الله، وأنه مخلوق له، كباقي المخلوقات، قد ينطق به نبي أو يظهر في شيء آخر، والحجة في ذلك أن الكلام صفة من صفات المخلوق (الإنسان)، وإذا كان الله متكلماً فمعنى ذلك أن الكلام قديم بقدمه، وهذا مناقض لجوهر فلسفة التوحيد المعتزلي في تنزيه الذات الإلهية من الصفات كافة. وتأتي فكرة خلق القرآن مناقضة تماماً لفكرة الصفائيين الجبريين التي تقول: إنه قديم وما بين الدفتين هو كلام الله حقيقة لامجازاً، أما الاشعري فيقف وسطاً بين الفكرتين عندما يقول:

إنه كلام الله مجازاً والمخلوق منه هي الحروف المقاطع.

إن فكرة خلق القرآن التي سحبها المعتزلة على العلاقة بين الذات الإلهية والصفات، أتاحت لهم تأويل القرآن؛ كونه مخلوقاً لله لا كلامه، فثمة فرق بين أن يكون القرآن كلام الله أو هو من خلقه، ولعل ذلك شجع إبراهيم النظام على القول بعدم وجود إعجاز لغوي في القرآن، والاعجاز فقط في أخبار الغيب (إبن الراوندي «فضيحة المعتزلة»/ ١١١). ويتضح من إصرار الآخرين على أن القرآن كلام الله وقديم بقدمه، هو الدفاع عن قدسية النص القرآني الصارمة، والوقوف ضد التأويل الذي يبني عليه المعتزلة شرعيتهم الفكرية تجاه معارضيهم. ومن الجدير بالذكر أن فكرة خلق القرآن تحولت في ما بعد الى محنة فرضها المأمون على فقهاء عصره، لم يكن لشيوخ المعتزلة دور سلطوي فيها ما عدا إنتساب قاضي القضاة أحمد بن داوود إليهم الذي نفذ أوامر المأمون والمعتصم ثم الواثق في هذه المحنة وغيرها. ومن الأحداث الطريفة خلال هذه المحنة: أن أحد الفقهاء لم يجد في القرآن ما يبرر القول بأن القرآن مخلوق، ليستعين به في الهروب من هذه المحنة، غير النص القرآني: «جعلناه قرآناً. . .» فقال لممتحنيه أني أقول أن القرآن مجعول، والجعل هو الخلق، لكن هذه الحيلة لم تنطل عليهم، واصروا أن يكون اللفظ صريحاً بالخلق لا بالجعل.

بدأت محنة القول بخلق القرآن يسيرة أيام المأمون ثم أشتدت أيام المعتصم البعيد عن الفكر أو المناظرات، فأخذ مخالفيه بالقوة مباشرة. وبعد إستخلاف المتوكل أصبح أحمد بن حنبل فقيه الدولة الأول فقام بمطاردة المتكلمين من معتزلة وشيعة وغيرهم، بعد أن كان يشهد ضدهم أيام هارون الرشيد، رغم حماية البرامكة لهم في أكثر من موقف.

في ظل سطوة المعتزلة على الحياة الفكرية ببغداد تحقق إنفتاح ملموس على الفرق الإسلامية والديانات والثقافات الاخرى، وما عُرف عن محنة أحمد بن حنبل وجماعته أيام المأمون كانت لا تتعدى دعوتهم الى التناظر مع مخالفيهم، بينما كانوا يرفضون ذلك بفتاوى تحرم الجلوس مع المعتزلة وغيرهم على بساط واحد، معتبرين المعتزلة والقائلين بخلق القرآن كفاراً. ان هذه الحقائق عن موقف الحنابلة عرفت فيما بعد، وقد يفيد في هذا الأمر ما أورده القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» خلال حديثه عن سيرة حياة أبي بكر الباقلاني أحد شيوخ الأشاعرة في زمانه، وكان هذا قد ذكرَ شيخه الحسن الباهلي بموقف ابن حنبل وجماعته من مناظرات المعتزلة والمأمون، عندما طلب من الباقلاني والباهلي المشاركة في مناظرات

عضد الدولة البويهي وقاضي قضاته بشر بن الحسين المعتزلي، وكان الحاكم البويهي قد أفتقد فقهاء ومتكلمي الأشاعرة والحنابلة، فقال لقاضي قضاته: «هذا المجلس عامر بالعلماء، إلا إني لا أرى فيه قاعداً من أهل الإثبات والحديث يناظر». فبعث قاضي القضاة إلى أبي الحسن الباهلي والى القاضي أبي بكر الباقلاني كتاباً دعاهما فيه إلى المشاركة، فكان رد الباهلي كما هو رد ابن حنبل: «إن هؤلاء القوم كفرة، فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يُقال ان مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر الكبيرة». فرد الباقلاني على شيخه بقوله: «هكذا قال ابن كلاب والمحاسبي، ومنْ في عصرهم، ان المأمون فاسق، ولا نحضر مجلسه، حتى سيق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، وجرى عليه بعده ما عرف، ولو ناظرناه لكفوه عن هذا الأمر، وتبين لهم ما هم عليه بالحجة وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد، ويقولون بخلق القرآن، ونفي الرواية؟ وها أنا خارج إن لم تخرج».

في ظل هذا الإنفتاح كثرت المناظرات الفكرية بين مختلف الإتجاهات، بعد تامين الجدال السليم والإذعان لنتيجة المناظرة مهما كانت، وفي هذا الصدد نذكر حدثاً من أحداث بعض المناظرات، على سبيل المثال لا الحصر، يعكس أجواء التناظر والتزاماته، فقد حدث أن أحد المتناظرين نَهرَ مُناظره في حضرة المأمون بقوله له: «يانبطي ما أنت والكلام؟»،)المعروف عن النَّبط أنهم سَكان البطائح في جنوب العراق بين الكوفة والبصرة، وكانت كلمة النَّبطي شتيمة، وقد تطورت في العصر الحاضر الى شتيمتي معيدي أو شروگي) فردَّ المأمون بعنف على الشاتم بقوله: «الشتم عيٌ والبذا لؤم، وقد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل وقفناه، ومن ذهب عن الأمر حكمنا فيه بما يجب». وفي ما بعد ظهرت مؤلفات في «آداب الجدل والمناظرة» تشير إلى مبادئ عديدة منها: التحرز عن رفع اليد أو الضرب على الفخذ أو رفع الصوت أو الإستهزاء بطريقة ما خلال الجدال، وقد أباح بعض الفقهاء الابتسامة بدل القهقهة عند إفحام المقابل.

لقد وضع المعتزلة أساساً لظهور فلسفة مصدرها العراق وتراثه الفكري الذي يمتد الى عشرات القرون، لكن كتابة التاريخ المزيفة صورت مدن العراق عبارة عن صحارى ومستنقعات يقطنها بشر طوال الأنياب وربما لهم ذيول. فهذا ما قيل عن سكان البطائح أو عن أكراد الجبال، وترى عبد القاهر البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» يصف شيوخ المعتزلة البصريين بأبناء السبايا، لأنهم كدّروا عليه صفو مذهبه المتشدد، فكل معتزلي

هو مولى لآل فلان من القبائل العربية القادمة مع الفتح.

قدم المعتزلة للفكر العالمي أفكاراً فلسفية لم تلعب دورها الحقيقي في تفسير الكون أو تغييره، فالقمع سرعان ما طال أصحابها. وأغلب ما نجد الآن في المكتبة عن المعتزلة ليس إلا سطوراً في كتب الملَل والنِّحل أو التاريخ العام، تغطيها أكوام من الأغاليط والشتائم، لكن هناك بعض الكتب القليلة التي ألفها معتزلة كعبد الرحيم الخياط وأبي القاسم الكعبي والقاضي عبد الجبار، إضافة الى بعض أخبار الإعتزال التي تظهر هنا وهناك في مؤلفات الجاحظ. وليس من شك أن المعتزلة تأثروا بفلسفات اخرى منها الفلسفة الإفلاطونية والأرسطية، وببعض ما وصل من فلسفات الهند، وكذلك بالفلسفة الإيرانية القديمة والتي كثيراً ما ناظر المعتزلة أقطابها من المجوس. ولكن ليس من الإنصاف أن ينكر على المعتزلة إبداعهم الفكري ويعتبروا ناسخين للفلسفة اليونانية حسب رأي بعض المستشرقين، ورأي خصومهم في الفكر كعبد الكريم الشهرستاني وأبي حامد الغزالي.

ومن نظريات المعتزلة الفلسفية المهمة في تأمل الكون نظرياتهم في الأجسام وتركيبها وعلاقتها بالأعراض، فقد توصل بعضهم، كمعمر بن عباد وبشر بن المعتمر، الى القول بمسؤولية الأجسام عن خلق أعراضها من لون ورائحة وطول وعرض وكل ما يطرأ عليها. وتوصل إبراهيم النظام الى القول بالمداخلة والكمون في ظهور الأشياء بعضها من بعض بتدرج قانوني، وأن حركة الأجسام دائمة مطلقة والسكون لا وجود له إلا كمصطلح في اللغة، وهو القائل «الكون هو الحركة»، وهي العرض الوحيد، وباقي الأعراض ماهي إلا أجسام شفافة، وأن الجسم يتكون من أجزاء لا نهاية في تجزئتها. بينما كان العلاف قد توصل الى قناعة بأن الجسم يتكون من أجزاء محدودة تنتهي إليها التجزئة. وتوصل معمر بن عباد السلّمي الى سكون الأجسام الدائم وهو القائل «الكون هو السكون». كذلك تأمل المعتزلة حالة الدولة (الإمامة) ومستقبلها، فلم يضعوها أصلاً من الأصول، أي لا شرط لوجودها على الدوام، بل يجوز أن يتولى أمر الناس نبطي، رداً على ماذهبت إليه مذاهب القائلين بأن الامامة في قريش وحدها. وربما تنبأ المعتزلة بنهاية دور الدولة خلال التطور الإجتماعي، وإلى ذلك ذهب هشام بن عمرو الفوطي وأبو بكر الأصم بأشارتهما الى أن الإمامة ليس بواجب، بتعليل «ان الناس لو كفوا عن المظالم لاستغنوا عن الإمام» (إنظر ميمون النسفي في «تبصرة الادلة» الكلام في الإمام). وعلى هذا الرأي رد السلفيون، من أتباع الأشعرية، بأن الصحابة لم يستغنوا عن الدولة وهم

«أولى الناس بالاستغناء عن ذلك»، وحيث لم يستغنوا عنه دل أن ذلك ليس بشيء».
وإضافة الى براعة المعتزلة في الكلام والفلسفة ذكر الجاحظ منهم أطباء كمعمر بن عباد ومحمد بن الجهم وإبراهيم السندي، وخبراء بأنواع الحيوان وطباعه كإبراهيم النظّام وبشر بن المعتمر، اللذين أعتمد الجاحظ خبرتهما ووصفهما للحيوان شعراً ونثراً في تاليف كتابه «الحيوان».

ترك المعتزلة تراثاً فكرياً. لا يتحدد بما نقلته كتبهم أو ما نقله الآخرون عنهم فحسب بل يتمثل أيضاً في إمتداد أفكارهم وصلاحيتها لعصور آتية، لأنهم وضعوا العقل وسيطاً بين السماء والبشر، وجعلوه في مقدمة الاصول. وعندما يُلوح بالنصوص كثوابت في تحديد علاقات الناس عند المنعطفات الحادة التي تعترض طريق الإبداع العقلي يحضر الفكر المعتزلي كشاهد تاريخي على الرفض والمقاومة من داخل المؤسسة الفقهية، فشيوخ المعتزلة كانوا من الفقهاء المتكلمين والفلاسفة، ورحم الله سفيان الثوري، الفقيه الحنفي القريب من الإعتزال، فقد قال: «إنما الفقه الرخصة مع الثقة أما التشدد فيحسنه كل أحد».

إصـــدارات وردتـــنـــا

فالح عبد الجبار (كمحرر) : *Postmarxism and the Middle East*
دار الساقي، لندن

كريم الدريعي : الأسد خلق الغزالة، خلقها ليأكلها/ مجموعة شعرية، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

النوارس، فصلية أدبية ـ ثقافية، العدد الرابع، ستوكهولم (يحررها : طالب السلطاني وصبري يوسف) بمساهمات لهما ومحمود بدر، الأب يوسف سعيد، فيفيان صليوا، صبري يوسف، عشتار، لقاسم بن سعيد، كفاح حنا.

ملاحظات حول الصراع الطبقي

جاك كيركوت*

اقتُرح عليّ أن اقدم هنا بعض الأفكار حول الصراع الطبقي، وما انتجه منذ قرن، وحول الاهمية التي نوليها اياه على الصعيد الفكري والمفهومي. ـ . . . وربما يجب ابتداءً التساؤل عن الموقع ألذي يعطيه ماركس نفسه للصراع الطبقي. فنحن نعرف عبارة البيان الشيوعي: «ان تاريخ المجتمع كله كان حتى يومنا هذا، هو تاريخ الصراع الطبقي». ويبدو منها واضحاً بالنسبة لماركس، ان الصراع الطبقي هو محرك التاريخ. ولكن هذا التأكيد قد خالفه البعض معتبرين ان تطور القوى المنتجة هو محرك التاريخ بنظر ماركس. ويستندون في ذلك الى مقتطفات مختلفة من أعمال ماركس، ولعل اكثر هذه الاقتباسات وضوحاً في هذا الخصوص هو ما جاء في مقدمة عام ١٨٥٩ لكتاب «نقد الاقتصاد السياسي»: «عند مستوى معين من التطور، تدخل القوى المنتجة المادية للمجتمع في تناحر مع علاقات الانتاج القائمة. (. . .) وعندئذ يبدأ عهد الثورة الاجتماعية».

* جاك كيركوت باحث في المركز القومي للبحوث العلمية في فرنسا، وهو باحث ماركسي ينشط من مواقع اليسار الماركسي غير الشيوعي، كان من بين المثقفين الذين اتخذوا موقف الاسناد الفاعل للاضرابات العمالية التي عمت فرنسا في كانون الاول ١٩٩٥. ان هذا المقال ترجمة بتصرف تتناول الأفكار الاساسية للبحث الذي قدمه كيركوت الى مؤتمر ماركس الدولي الذي أقيم في باريس خلال الفترة ٢٧-٣٠ ايلول ١٩٩٥ بمبادرة من مجلة ماركس الراهن ACTUEL MARX بالتعاون مع المعهد الايطالي للدراسات الفلسفية.

واذا ما كان علينا الحسم ما بين هذين التأويلين، سأقول، بقدر ما يتعلق الامر بي، ان ماركس يعتقد بان الصراع الطبقي هو الذي يصنع التاريخ. ولكن الصراع الطبقي يفعل ذلك في ظل شروط محددة تاريخياً، ويحددها بشكل خاص تطور القوى المنتجة.

واعتقد ان هذا ما كان يفكر به ماركس، بل ان حتى التعبير عن هذه الفكرة بصيغة موجزة كما ورد في المقتبس من البيان الشيوعي، انما يمثل المقاربة الأكثر ملاءمة والتي يمكن ان تعيننا في استكناه التواصلات والانقطاعات في تاريخ مجتمعاتنا. وهذه المقاربة تتحاشى تلك النظرة، الخطّية كثيراً في بعض الاحيان، التي تترك بعض صياغاتها، بشأن تطور القوى المنتجة، المرء في حيرة وشك.

نحن نواجه بلا شك، نوعاً من التراجع عن التفكير بموضوعة الصراع الطبقي، وتوجد اسباب عديدة لذلك. اولها يتمثل ربما في ان الشك بامكانية تحويل العالم وتغيير الحياة قد استتبع، بالنسبة للبعض، اقصاء الجدال حول الصراع الطبقي، لاسيما ان ماركس نفسه كان يصف اصالته واضافته لا في كونه اكتشف الصراع الطبقي، وانما بتأكيده أن الصراع الطبقي يقود بالضرورة الى الغاء جميع الطبقات والى قيام مجتمع لا طبقي. (رسالته الى ودميير Wedemeyer في ٥ آذار ١٨٥٢).

والسبب الثاني يتأتى بدون شك من التساؤل حول وجود الطبقات الاجتماعية ذاته، وبالاخص، وجود الطبقة العاملة.

والسبب الثالث يرجع الى أن عمليات التفرد individuation العديدة في المجتمع قد غيّرت تغييراً عميقاً من الاهتمام بما هو جمعي لصالح كل ما يتمحور حول الفرد، مضافاً الى ذلك الرغبة المفهومة، لدى بعض الماركسيين حالياً، في اثارة تساؤلات حول مكانة العوامل الموضوعية في التاريخ الاجتماعي.

اما السبب الرابع فمرده الشغف بجميع نظريات الوفاق consensus ، ولاسيما على صعيد المنشآت حيث تتبدى الرغبة في تنمية الشعور بالانتماء، ويجري غرس ثقافة المنشأة، ... الخ. وقد لا يجد البعض ذلك جديداً، ولكن الاحتفاء عام ١٩٨٥ بروح المنشأة وبصلادة المنشأة وتوحدها indivisibilite ، ودعوة الفرنسيين لهجر «أحكامهم المسبقة» عن المنشأة، فان كل ذلك لم يصدر عن عضو في الاتحاد الوطني لارباب العمل الفرنسيين، وانما صدر من رئيس الوزراء الاشتراكي السابق، لوران فابيوس، والذي اختتم كل ذلك بالدعوة الى تجاوز «التحفظ الصناعي». ولم يكن من الصعب الفهم بانه اذا كان المطلوب هو الظهور بدون احكام مسبقة، فمن الاجدى الآن التعامل مع عالم العمل عن

طريق الادارة والتخلي لبعض الوقت عن النضالات وعن النزاعات.

من ناحيتي، سأحرص اذن على استرجاع ثقل الصراعات الطبقية على مدى قرن، سواء في الانعطافات الكبرى خلال القرن، ام في مجرى الحياة اليومية، وسأحاول من ثم التساؤل عن الموقع الدقيق الذي يحتله اليوم الصراع الطبقي في المجتمع، وتحفيز التفكير حول التمفصلات الممكنة لمختلف علاقات السيادة domination.

الافكار الاساسية لهذه المقالة:

١ ــ ان الصراع الطبقي يضع الرأسمالية في مواجهة خصومها، وفي مقدمتها الطبقة العاملة. ويمكن ان تتمخض هذه الصراعات عن انتصارات او هزائم او عن مساومات، كما هو الحال في اغلب الاحيان. فالنتيجة تعتمد على تناسب القوى بين الطبقات.

٢ ــ ان تاريخ الصراع الطبقي ليس فقط تاريخ انتصارات الطبقة العاملة، وانما ايضاً تاريخ هزائمها ومساوماتها.

٣ ــ ان ميل ماركس الى تقديم نظرة خطية للصراع الطبقي كان له نتيجتان:

ــ التأكيد فقط على «المراحل الكبرى» للصراع الطبقي.

ــ وفي اطار هذه المراحل الكبرى، التركيز على تلك الجوانب التي يمكن تحليلها كانتصارات، على حساب تحليل الهزائم والمساومات.

٤ ــ رغم ذلك، فانه لايمكن فهم الاحداث الكبرى لهذا القرن دون الرجوع مباشرة للصراع الطبقي. وهذا ينطبق على الاحداث التالية، على سبيل المثال لا الحصر:

ــ الحرب العالمية الاولى، سواء لسبب اندلاعها في آب ١٩١٤ او سبب قيام ثورة اكتوبر ١٩١٧.

ــ ازمة ١٩٢٩ الاقتصادية والطريقة التي تنظمت بها العلاقة بين العمل والرأسمال في بعض البلدان ولبعض الوقت.

ــ الحرب العالمية الثانية، والهزائم الكبرى التي منيت بها الطبقة العاملة في مواجهة الفاشية، علماً بان الفاشية ليست التعبير عن اتجاه متخلف في الرأسمالية وانما تمثل الوسائل التي تستحدثها الرأسمالية الناضجة في مواجهة ازمة اعادة انتاج الرأسمال، وذلك من اجل تغيير شروط اعادة الانتاج نفسها.

ــ ظهور حركات المقاومة والديناميكية التي تحملها هذه الحركات.

ـــ الثورة المعادية للاستعمار، والحركات الجبارة لتحرر الشعوب من الاستعمار، والتي تؤدي الى تشابك النضال ضد الاضطهاد القومي مع النضال ضد الاستغلال الاجتماعي.

ـــ انتصار مرشح اليسار في فرنسا عام ١٩٨١، الذي هو أيضاً احد نتائج الصراع الطبقي.

اضافة الى دور الصراع الطبقي في اللحظات التاريخية الكبرى، يمكن تلمس دوره الكبير في الشؤون اليومية للحياة الاجتماعية. فلقد ساهم الصراع الطبقي في تغيير الشروط التي يتم فيها استغلال قوة العمل، اي تحسين الشروط المادية والحقوقية للعمل الاجير والضمانات الحقوقية، إذ من المهم الاشارة الى أن العمل ليس محكوماً ببديل واحد: الاذعان والاستسلام للاستغلال او الغاء علاقات العمل الاجير، اذ هناك فسحة وفضاء ما بين هاتين الحالتين تشكل مجالاً لفعل وتأثير الصراع الطبقي بما يمكّنه من تغيير العمل.

لقد تعدى تأثير الصراع الطبقي حقل الاقتصاد، بل ساهم في تشكيل معالم ووظائف الدولة الحديثة (الضمان الاجتماعي، التأميم، انتزاع بعض المسائل من ميدان العلاقة بين العامل ورب العمل وطرحها على الصعيد السياسي). فقد ظهر ميدان جديد للنضال من خلال الدور التوزيعي للدولة الكينزية ودولة الرفاه.

وينبغي الاشارة الى الميادين التي احتفظت فيها الطبقات السائدة بتفوقها، واهمها المدرسة. فلا تزال المدرسة تعيد انتاج الطبقات الاجتماعية السائدة.

حول موضوعة الصراع الطبقي

ونموذج التحليل الاجتماعي القائم عليها

ربما لم يكن البيان الشيوعي صائباً في قوله ان «تاريخ المجتمعات هو تاريخ الصراع الطبقي». فنحن نعرف الآن تاريخ العديد من اشكال التنظيم الاجتماعي، سواء الشكل البسيط للعصبيات ام القبائل، التي تطورت، عبر علاقات معقدة وترتيبات ونزاعات ومبادئ تنظم المجتمع، تطوراً لا صلة له مع الصراع الطبقي، لأن الطبقات الاجتماعية لم تكن موجودة. وهكذا جربت البشرية بنى قرابة وتحالفات انتجت ما يمكن تسميته بعائلة العلاقات بين الاجيال التي اثرت على تطور المجتمعات قبل ظهور الطبقات بوقت طويل. وكذلك العلاقات بين الرجل والمرأة والهيكلية التي تتسم بهيمنة الرجل على المرأة. وقد ظهرت هذه العلاقات كبنية اجتماعية حيوية في المجتمعات التي لا تعرف الملكية الخاصة

لوسائل الانتاج. كما ان الصراعات المسلحة والحروب، بل المذابح، التي قامت بين الجماعات البدائية، لم تنجم ايضاً عن الصراع الطبقي.

لذلك فان مجموع العلاقات التي نسجها الجنس البشري لم تنبع من الصراع الطبقي فقط، كما ان الصراع الطبقي ليس مسؤولاً عن توليد مجموع التناقضات والنزاعات ولا مجموع اشكال السيادة والهيمنة.

واضافة الى العلاقة بين الرجال وبين الجنسين، يمكن ايراد ايضاً العلاقة بين الامم والقوميات. فان مجموعات الصراع الطبقي قد ورثت العلاقات القائمة بين الجنسين، وبين الاجيال، وبين العشائر، وبين القبائل، وبين الاعراق والشعوب، كما انها ورثت علاقة مع الطبيعة التي غالباً ما تتسم بالندرة وبمصادفات الكوارث الطبيعية والصراع من اجل البقاء. فهذه التمايزات تتراكم، وتنتظم وتتصلب، بالتالي تظل قائمة.

ولكن هذه العلاقات تتأثر بصورة عنيفة بظهور الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي والدول. وفي ظل هذا الصراع يعاد تشكيل هذه العلاقات وعجنها وضمها الى مجموعة معقدة من الروابط الاجتماعية الجديدة. وبهذا المعنى فان لجميع هذه العلاقات صلة ما بالصراع الطبقي. ولكن الصراع الطبقي لم يقم بلف هذه العلاقات حوله ويخضعها لمنطقه وحده، كما انه لم يخضعها الى اتساقه المنطقي الخاص، ناهيك عن اسباغ ولادة جديدة عليه. فهذه العلاقات ليست نتاجاً للصراع الطبقي.

ان هذه المقاربة تُسقط الاشكالية التي تجعل الصراع الطبقي تناقضاً يكمن في جذر كل التناقضات الاخرى، اي انها تُسقط الاشكالية التي تعتبر:

١ ــ حل الصراع الطبقي كافياً لان يؤدي وحده الى حل جميع اشكال النزاع واشكال السيادة الاخرى.

٢ ــ من غير المجدي محاولة النشاط للتأثير على الاشكال الاخرى من السيادة، طالما ان هذه الاشكال لايمكن، في المطاف الاخير، ان تشهد تطوراً جدياً إلا من خلال وعن طريق انتصار الطبقة العاملة، او بتشييد الصراع الطبقي، على الاقل.

فعلى النقطة الاولى تترتب بالضرورة فكرة ان الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يكفي لان تختفي او تضمحل تلقائياً بقية الاشكال للسيادة والقهر. وقد كشفت التجربة مآل وحصيلة هذا الاعتقاد.

اما النقطة الثانية في هذه الاشكالية فتؤدي الى اخضاع النضال ضد بقية اشكال السيادة والقهر الى الكفاح الطبقي، وبالمفهوم الاكثر اختزالاً للصراع الطبقي. وهذه

قضية قديمة رافقت الالتقاء بين الحركة العمالية والماركسية (لنتذكر العداءات الثلاث لجول غيد: العداء للعسكرة، والعداء للاستعمار والعداء للعنصرية والتي اعتبرها انحرافاً عن الصراع الاساسي المعادي للرأسمالية). وقد ادى ذلك الى طمس، او عدم تشجيع، النضال ضد اشكال السيادة الاخرى (مثلاً نضال الحركات النسوية والدفاع عن المهاجرين) لانها تهدد في المطاف الاخير وحدة الطبقة العاملة. ولا تزال اثار هذا الفهم باقية وتنعكس في النضال ضد مرض الايدز، وفي الموقف من مسألة المثليين Homo-sexuels. ويؤدي ذلك الى ان تملأ الفراغ حركات شعبوية، او يمينية متطرفة كما في مسائل الهجرة.

وقد تكون هذه الموقعة الجديدة للصراع الطبقي امينة الى ماركس، اذ استخدم ماركس بعد كتابته للبيان الشيوعي، صياغات اقل قطعاً. ففي عام ١٨٦٩ كتب يقول «ان الصراعات الطبقية هي المحرك الرئيسي للتاريخ»، وفي السنة ذاتها، قال ايضاً في رسالة الى بيبل «نحن نعتبر الصراع الطبقي محرك التاريخ الأكثر حسماً. «فمحرك رئيسي» و«اكثر حسماً» هي صياغات اقل قطعاً من الصياغة الواردة في البيان الشيوعي. ولكن مسألة الامانة الى الماركسية هي ليست الاشكالية الاهم التي تواجهنا في قضية العلاقة مع الماركسية.

كيف تتمفصل علاقات السيادة؟

لاتوجد بالضرورة حاضنة مشتركة كالاستغلال الطبقي، لجميع اشكال السيادة او القهر، وانما هناك تفاعل وتأثير متبادل فيما بينها (interaction)، دون ان يعني ذلك وضع جميع هذه العلاقات في مستوى واحد. فالعلاقات الطبقية تصنع التاريخ بدون شك، ولكن الامر ليس دائماً كذلك بالنسبة للاشكال الاخرى من السيادة.

ففي ظل الرأسمالية، لابد لعلاقات السيادة ان تواجه الصراع الطبقي، ونلاحظ أنه عندما تتمفصل هذه العلاقات مع الصراع الطبقي[1]، غالباً ما تأخذ سيرورتها منحى تقدم الانسانية جمعاء، في حين لو تركت وحدها فانها قد تساهم في رد الانسانية الى الوراء. لذا، فان الصراع الطبقي، وان لم يفسر جميع الاشكال الاخرى لعلاقات السيادة، فانه يبقى المتغير الاكثر ثراء والزاوية الأكثر انفتاحاً على مشاكل المجتمع.

ان الطبقة العاملة تتطور وتتحول، وان العمل يتغير، ولكن موقعه يبقى مركزياً في المجتمع وفي السيرورة التاريخية.

فالصراع الطبقي يبقى الزاوية الاكبر للفهم، والعتله الارأس للفعل، ولكن بشرط ان لا

ينظر اليه كقيمة خالدة، وانما بالعكس، يجب النظر اليه في ضوء السياق التاريخي لفعله. ويجب الاخذ بعين الاعتبار ايضاً أن الصراع الطبقي لايخرج سالماً من عملية العجن والتأثير في اشكال السيادة الاخرى، بل يتعرض هو أيضاً الى التغير والتحول بتأثير التناقضات التي تثيرها المتغيرات الاخرى. لذا فان المقاربة المعتمدة على «التشكيلة الاجتماعية» وما تتضمنه من تمفصل حول نمط الانتاج السائد تبدو أكثر ثراء من المقاربة المعتمدة على مفهوم نمط الانتاج(٢).

ان عمليات العولمة وحركة الرأسمال قد تطلق تناقضات لا يمكن التحكم بها وبالتالي تؤدي الى تفجرات لايمكن توقعها. لذا فان البحث عن بديل على نطاق البشرية جمعاء يتطلب حث مجموع المقهورين والمسودين الى العمل انطلاقاً من كل علاقات السيادة.

ملاحظتا المترجم

(١) ان مفصلة الصراع القائم في اطار علاقات سيادة معينة (الحركات النسوية ضد علاقات السيادة بين الرجل والمرأة، الحركات المناهضة للتمييز ضد مجموعات اجتماعية معينة لاسباب تتعلق بالانتماء الاثني او القومي او العنصري او لتقاسمها معتقدات وسلوكيات تخرج عن القواعد والمعايير الاجتماعية السائدة، حركات الدفاع عن البيئة...) مع النضال ضد علاقات السيادة والقهر في المجال الاقتصادي لا تعني الاقرار بالاهمية الحاسمة للعامل الاقتصادي والطبقي او باعتباره العامل الوحيد في نهاية المطاف، وانما تنطلق من وجود علاقات سيادة مختلفة ضمن التشكيلة الاجتماعية الواحدة، ويذهب البعض الى تعيين انماط انتاج ترتبط وتؤسس لعلاقة السيادة المعنية، كنمط الانتاج المنزلي بالنسبة لبعض منظري الحركة النسوية من الماركسيين. ولكن هناك تراتبية في تأثير هذه العلاقات على بعضها البعض تحتل فيها علاقات الاستغلال الطبقي الموقع والتأثير الاهم، لذا نجد في بعض الحركات النسوية وحركات البيئة بعداً واضحاً مناهضاً للاستغلال والقهر الاقتصادي في حين يغيب في حركات اخرى، مما يؤدي احياناً الى تبنيها مواقف سياسية واجتماعية محافظة ان لم تكن رجعية. وهناك امثلة غير قليلة يمكن ذكرها عن الحركات النسوية وحركات البيئة في فرنسا. ومن الواجب التأكيد على ان التمفصل مع الصراع الطبقي لا يعني اخضاع النضال ضد علاقات السيادة في الميدان غير الاقتصادي الى الكفاح الطبقي.

(٢) ان الموضوعتين الاساسيتين في المادية التاريخية واللتين تشكلان الاساس للفهم المادي للتاريخ تتمثلان في الميل الضروري للتوافق (correspondance)، او لعدم التناقض

ما بين مستوى تطور القوى المنتجة وبين طبيعة علاقات الانتاج من جهة، وما بين القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقي الحقوقي ــ السياسي ــ الايديولوجي من جهة اخرى، وقد تستغرق العملية التاريخية التي تؤدي الى هذا التوافق فترة زمنية طويلة. وما يؤلف جوهر المادية التاريخية هو الاولوية التي تعطيها قوانين التوافق الى البنى المادية (القوى المنتجة والقاعدة الاقتصادية) على البنى غير المادية (علاقات الانتاج والبناء الفوقي). ففي حالة عدم التوافق ووجود التناقض بين هذين المستويين من البنى، تتكيف البنى غير المادية، خلال فترة زمنية تطول او تقصر وسواء بشكل اصلاحي تدرجي أو ثوري عنفي، للتوافق مع البنى المادية، ولا يحدث العكس. بمعنى آخر، تحدد البنى المادية، في نهاية المطاف in the last instance على حد تعبير التوسير، البنى غير المادية. وتعبير نهاية المطاف يهدف الى ازالة اي فهم ميكانيكي وحيد الجانب للعلاقة بين البنى المادية وغير المادية، وتحديداً بين البناء الفوقي والقاعدة الاقتصادية، حيث يفترض، بل يشترط علاقة التأثير المتبادل بين المستويين والاستقلال النسبي للبناء الفوقي.

واكثر الانتقادات النظرية التي توجه الى المادية التاريخية تكمن في الطريقة التي «توفق» بها بين ثلاثة افكار هي: فكرة الدور المهم الذي تلعبه البنى غير المادية، اي علاقات الانتاج ومختلف مستويات البناء الفوقي ضمن التشكيلة الاجتماعية، وفكرة ان التاريخ تحكمه قوانين موضوعية تضعه على خط سير ارتقائي وان كان حلزونياً، وفكرة الدور الحاسم الذي يمكن ان يلعبه العمل السياسي.

وتبدو مقاربة التشكيلة الاجتماعية، التي يعتمد منهجها على دراسة الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية في سياق الفعل الديالكتيكي لمختلف مستويات البنائين الفوقي والتحتي للتشكيلة اكثر ثراء وفاعلية من المقاربة التي تركز على تحليل التناقضات ضمن مفهوم نمط الانتاج بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج لفهم علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الصراع الطبقي ومختلف التناقضات الاخرى التي ليس مصدرها تناقضات نمط الانتاج السائد والتي ليست مجرد انعكاس لها. فبرأي كيركوت، لاتسمح المقاربة التي تعتمد في التحليل على تناقضات نمط الانتاج، بالاحاطة وفهم التمفصل لمختلف التناقضات مع نمط انتاج سائد، ويصح ذلك بشكل خاص في ظل واقع اجتماعي اقتصادي تتكون قاعدته الاقتصادية من «وحدة» بين قوى انتاج وعلاقات انتاج متباينة في مستوى تطورها ومتشابكة لم تتبلور فيها التراتبية بصورة طاغية لمصلحة نمط الانتاج الأرقى.

العلاقات الاجتماعية ـ السياسية في بابل

بين القرنين السابع والرابع ق.م.

(الحلقة الأخيرة)

محمد دندمايف

القضية الزراعية:

كانت الزراعة أهم فروع الإنتاج في بابل، والشرق القديم عموماً. وتشير نصوص (الكادسترا) إلى أن جميع الأراضي المزروعة كانت دقيقة التحديد بعد إجراء المسح عليها. وكان القسم الأكبر منها ملكاً لعائلة الملك، المعابد، كبار التجار، العسكريين وموظفي المعابد والإدارة. أما صغار الملاكين (بضمنهم الحرفيون) فيملكون قطعاً صغيرة، لاسيما قرب المدن الكبيرة، بمساحة تتراوح بين ثلث هكتار وبضعة هكتارات. ولأن ثمن الأرض كان مرتفعاً فقد انصب الاهتمام على استثمارها بالبساتين، والنخيل بالدرجة الرئيسية. أما الحبوب فكان الشعير من أهمها، إلى جانب الحنطة الرومية والقمح والكتان والحمص والسمسم، وغير ذلك. ويجري البذر بكثافة يقدر متوسطها بنحو ١٥٠ لتراً من الشعير لكل كور (حوالي ١٣٢٣٠م٢) من الأرض. وهذا ما يعادل ٦٧,٥ كغم من الشعير في الهكتار الواحد، يتراوح محصول الشعير بين ٧٨٥,٥ و٣٣٧٥ لتر من الهكتار الواحد. وفي المتوسط حوالي ٥٧٥ لتر من الهكتار. ويبدو أن معلومات هيرودوت وسترابون عن أن إنتاجية الشعير في بابل، والمقدرة بنحو ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ضعف، مبالغ بها. الحراثة بواسطة المحراث، يبدأ موسم الحصاد في نهاية شهر نيسان ويستمر حتى نهاية حزيران. تعتبر التمور من الغذاء الرئيسي، بالإضافة إلى الشعير. يقدر معدل إنتاج النخيل بنحو ٤٩ كور تمر من كور واحد من الأرض. وكانت أشجار النخيل تعطي ثمارها

في السنة السادسة من عمرها.

بالنظر لشحة الأمطار فقد كان للري أهمية كبيرة في الزراعة. ولكثرة الطمي لم تكن هناك حاجة للتسميد. كان هناك عدد كبير من الأقنية التي تعود ملكيتها للدولة، وأحياناً للمعابد أو لبعض الأفراد. وبوسع جميع المزارعين والمستأجرين استخدام قنوات الري، مقابل مبلغ محدد.

كان ملاكو الأرض الصغار يزرعون أراضيهم بأنفسهم، والاستعانة بأفراد العائلة. أما الملوك والمعابد والملاكون الكبار فكانوا يؤجرون أراضيهم لمزارعين آخرين، أو يؤجرون الجزء الأكبر منها. وبدل الإيجار يحدد البدل مسبقاً، عند توقيع العقد، ويتوقف على نوعية الأرض. وكان البدل يقدم إما عيناً أو نقداً (sutu). أو أن مالك الأرض يحصل على ثلث المحصول والمستأجر على الثلثين الآخرين (imittu). مدة العقد سنة واحدة، وبالنسبة للأرض البكر ثلاث سنوات. وجرت العادة أن لا يدفع المستأجر عن الأرض البكر في السنة الأولى، وفي السنة الثانية لا يدفع سوى جزء من البدل الاعتيادي، ويدفع البدل الاعتيادي في السنة الثالثة. وفي الغالب كانت الأرض تؤجر للمستأجرين الكبار بمساحات شاسعة، وهؤلاء بدورهم يقسمونها إلى قطع صغيرة ويؤجرونها إلى مستأجرين ثانويين. ويحصل أحياناً أن يتفق شخصان أو أكثر على استئجار قطعة أرض واحدة. بالإضافة إلى ذلك استخدم في الزراعة وبشكل واسع عمل الأجراء، وخاصة في مواسم الحصاد وجمع المحاصيل.

شكل الموقف من الأرض الأساس الذي بموجبه تحدد طبيعة المجتمع البابلي. لكن لا يمكن القيام بذلك إلا بعد دراسة عدد كبير من الوثائق. ويمكن القول إن هذه القضية قد درست في أوروك (القرن السادس ق.م) ونيبور (القرن الخامس ق.م) بشكل أفضل مما هي عليه في المدن الأخرى.

أوضحت الباحثة Cocquerillat D. كيف أقدم الملوك الآشوريون الجدد، حسب نزواتهم وأهوائهم، على تغيير نظام الملكية للأرض. لقد صادر آشور بانيبال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية من سكان أوروك وحوّل ملكيتها إلى معبد ايانا. فأدت تلك الإجراءات إلى تغيرات اقتصادية وزراعية كبيرة. وبالرغم من بقاء الملكية الخاصة للأرض، إلا أن الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية في أوروك أصبح من أملاك معبد ايانا. وكانت بعض المزارع الواقعة في الأرياف القريبة من أوروك تعود ملكيتها لأشخاص يعيشون في مدن أخرى. وفي نفس الوقت كان معبد ايانا يملك عقارات ضخمة في مراد،

وسيبار، وفي المنطقة الساحلية. بينما كانت لبعض المعابد من مدن أخرى (مثل معبد ايبابارا في سيبار) أراض زراعية في أوروك. وأخيراً، كانت هناك الأراضي الزراعية التي يعود محصولها بشكل مباشر إلى الملك.

إن إقدام الملوك الآشوريين على إعادة توزيع الأراضي الزراعية ليس دليلاً على عدم وجود الملكية الخاصة للأرض في بلاد الرافدين القديمة. يبدو أن الملوك الآشوريين تصرفوا بالأرض على الأغلب وفق شريعة الفاتحين. لقد سبق لنا الإشارة إلى أن الجزم بعودة ملكية الأرض في الشرق القديم إلى الملك هو مجرد رأي لا يجد ما يدعمه. لنتوقف بشيء من التفصيل عند هذا الموضوع.

أشار بايزر .Peiser F في نهاية القرن الماضي إلى أن ملكية الأرض — من الناحية النظرية — تعود إلى الآلهة. لذلك ينبغي على المُلاك أن يدفعوا الضريبة إلى المعبد الذي يكون إلهه المالك الحقيقي للأرض. وطرح مايسنر ب. .Meissner B رأياً مشابهاً، حيث كان يعتقد أنهم كانو يعتبرون الأرض ملكاً للآلهة. ويشير شوينسر .Schwenzner W إلى أن الأرض التابعة الى المعابد كانت حتى القرن السادس ق.م. (على أقل تقدير) تعتبر هبة ملكية للمعابد، وأن الأرض كلها ملك الإله، وبالتالي فهي ملك ممثله على الأرض، أي الملك. ويؤكد ايبلينغ .Ebeling E أن الأرض ظلت منذ العصور المبكرة للتاريخ السومري وحتى العصر البابلي الحديث تعتبر من أملاك الملك الخاصة. في حين يرى البعض أن الملك خلال حكم الإخمينيين كان، من الناحية النظرية، يعتبر المالك الشرعي للأرض (.Fryer R., Carscia G).

لكن دياكونوف يؤكد على أن الملك لم يكن المالك الوحيد للأرض في بابل القديمة. ويمكن أن نعثر على رأي مشابه عند بعض العلماء الغربيين أيضاً. فقد أشار سان نيكول San Nicolo منذ عام ١٩٣١ إلى أنه لو حكمنا وفق ما يتوفر لنا من وثائق عن بلاد الرافدين فيمكن القول إنه لا تتوفر أية معلومات لصالح الادعاء بأن الملك هو المالك الوحيد للأرض، منذ منتصف الألف الثالث ق.م. لكن ليس من المستبعد أن تكون هذه الوضعية هي التي كانت سائدة بالفعل بالنسبة للمراحل الأسبق، لكنها لم تثبت حتى الآن. أما Gelb فيؤكد على أن بلاد الرافدين، ومنذ الزمن السومري، لم تعرف أية نظرية تكرس الحق في ملكية كل الأرض للملك. لذلك ليس هناك أي أساس للجزم بأن الملك كان المالك الأعلى للأرض في بلاد الرافدين القديمة.

لقد أثبتت كرداسيا .Cardascia G أن البابليين لم يبلوروا مفهوماً مجرداً عن الملكية.

وبدلاً من تعريف الملكية، الذي صاغه المشرعون الرومان (الحق بالامتلاك والاستعمال والتصرف) فقد شاع بينهم مفهوم واحد: حيازة الشيء أو الإنسان. غير أن هذا الأمر لا يغير أي شيء من حيث الجوهر. لقد كانت الأرض من الناحية النظرية والعملية ملكاً لمن يزرعها، في العهد البابلي الحديث، وفي العهد الاخميني على أقل تقدير. ويستثنى من هذا الأمر المستأجرون والمستوطنون العسكريون الذين كانوا يعملون بالأجرة، بأمر من الملك. لذلك لم تعرف هذه المرحلة شيئاً مما يسمى بنظرية الملكية العليا للأرض. لقد كانت الأرض تباع وتؤجر وتهدى بكل حرية وبدون موافقة الملك المسبقة. وهذا ما تؤكده مئات الوثائق المتوفرة.

لكن مع توسع المناطق المحتلة، أخذ المحتلون الفرس يستحوذون على الأراضي الزراعية (والخصبة منها على الخصوص) التي تسلب من السكان المغلوبين على أمرهم. وكان الملك المنتصر في مثل هذه الحالات يستحوذ على أملاك الملك المهزوم وأملاك المقربين منه، خاصة إن لم يستسلموا للفرس طواعية. وكان الاخمينيون يوزعون الأراضي المغتصبة على شكل ملكيات كبيرة لتصبح ملكاً متوارثاً للمالكين الجدد: أفراد العائلة المالكة، النبلاء من الفرس، وكبار الموظفين وغيرهم. ويتحول جزء من هذه الأرض إلى ملكية العاهل الملكي. كانت هذه الضيعات معفاة من الضرائب.

في عهد الاخمينيين شاع النظام التالي لاستغلال الأرض: تنشأ مستوطنات للعسكريين في الأراضي التابعة للملك وتوزع عليهم الأرض ليقوموا بزراعتها جماعياً، وفي المقابل يدفعون الضريبة العينية أو النقدية، وتعتبر بديلاً عن الخدمة العسكرية. وكانت كل قطعة تحمل اسماً خاصاً بها مثل: قطعة الفَرَس وقطعة القوس، وقطعة العربة، الخ. . . وسميت كذلك لأن العاملين في هذه الأراضي من العسكريين ويفترض بهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية، فمنهم صاحب القوس ومنهم الفارس، وقائد العربة، وهكذا.

كانت الأوضاع الاقتصادية لأصحاب هذه القطع مستقرة نسبياً في المرحلة الأولى من السيطرة الخمينية. كانت الفتوحات العسكرية متواصلة، والملوك منهمكين في حروبهم. وعندما يتوجه أصحاب الأراضي إلى الحرب فإن الأرض تزرع من قبل عوائلهم. وعندما تكون الدولة في غنى عن خدمات هؤلاء الناس كمحاربين، فعليهم دفع الضريبة. لكن تدريجياً ومع مرور الوقت أصبحت عملية استبدال الخدمة العسكرية بالضريبة مجرد عادة. لكن الضرائب من الناحية الأخرى أثرت سلباً وبدرجة كبيرة على العسكريين البسطاء. فمن أجل دفع الضريبة كان عليهم اللجوء إلى المرابين. وفي مثل هذه الحالة

يضطرون بالطبع إلى رهن الأرض التي بحوزتهم. وقد لا يستطيع المقترض تسديد الدين واستعادة الأرض. لا يحق للدائن أن يستملك هذه الأراضي بل يحق له أن يستحوذ على المحصول فقط. وفي حالة وفاة المالك تعود الأرض إلى الورثة، أما في حالة عدم وجود الورثة فإن الأرض تعود إلى الدولة. ومع ذلك فقد أصبح الكثير من المالكين مكبلين بالديون، بحيث أصبح الدائن هو المالك الفعلي للأرض. بالإضافة إلى ذلك كان يحق للدائن تأجير الأرض إذا كان صاحبها (المدين) في الخدمة العسكرية.

وقد حصل الموظفون الصغار على قطع صغيرة من الأرض وفق نظام الحصص. وكانت الأرض تنتقل بالوراثة بموجب الإدارة الملكية.

الحرف

يتردد في الكثير من الوثائق حرف: حجّار، حداد، نحاس، بناء، صائغ، خباز، صانع البيرة، غسال، حائك، الخ. . . كان الحرفيون يبيعون ما ينتجونه في السوق. لكنهم في الغالب كانوا يعملون بعقود موقعة مع الزبائن لصناعة شيء ما مقابل سعر محدد. ويعملون أحياناً مقابل حصولهم على الطعام فقط.

الضرائب

لم يحظ موضوع الضرائب في بابل خلال الفترة بين القرنين السابع والرابع ق.م. بالدراسة الوافية من قبل الباحثين. لقد كانت بلاد بابل من أغنى مقاطعات الدولة الاخمينية. وبعد الإصلاحات التي قام بها داريوس الأول كان مبلغ الضرائب التي تدفع إلى الدولة سنوياً يقدر بنحو ١٠٠٠ تالانت من الفضة. وبما أن بلاد الرافدين كانت خالية من مناجم الفضة، كان على السكان الحصول عليها من بلدان أخرى مقابل منتجات زراعية وحرفية. ويبدو أن الملك كان يحصل على عُشر الواردات كضريبة تدفع له.

يمكن متابعة آلية جمع الضرائب التي كانت معروفة في القرن الخامس ق.م. في النصوص التي تعود إلى أرشيف دار موراشو للتجارة. كانت الضرائب تدفع إما فضة أو عينياً (شعير، طحين، ماشية، بيرة، الخ. . .). ويشير كرادسيا إلى الاحتمالات النظرية والعملية التالية:

١ــ يقوم المزراع بتسديد الضريبة بشكل مباشر، دون اللجوء إلى خدمات دار موراشو.

٢ــ يلجأ المزارع إلى دار موراشو ليقوم بتسديد الضرائب إذا كان عاجزاً عن تسديدها بشكل مباشر. يقوم دار موراشو بتسديد الضريبة عن المزارع، وفي المقابل يحصل منه على سند بمبلغ الدين الذي بذمته.

٣ــ إذا كان لدى المزارع حساب جار (إذا تحدثنا بلغتنا المعاصرة) في بنك موراشو، فإنه يطلب من البنك أن يقوم بتسديد الضريبة.

٤ــ إذا أصبحت ارض المزارع تحت تصرف دار موراشو، فإن الدار تقوم بتسديد الضريبة، على أن يقوم المزارع بتسديد هذا المبلغ فيما بعد.

٥ــ إذا أجرت الأرض إلى دار موراشو فإن الدار تقوم بتسديد الضريبة، بالإضافة إلى دفع بدل إيجار الأرض.

إذا رهنت الأرض أو إذا أجرت إلى جهة أخرى، غير دار موراشو، فإن تسديد الضريبة يتم وفق ما ورد في الفقرتين ٤ و٥.

وعلى العموم كانت الضريبة على الأرض ثابتة لا تتغير مع مرور السنين. وخلافاً للرأي الذي روج له بعض الباحثين، فإن دار موراشو لم تلعب دور الجهة الملتزمة أمام الدولة بتسديد الضرائب، بل كانت تسددها بناء على رغبة دافعي الضرائب أنفسهم. وعادة تقوم هذه الدار بتسديد الضرائب ليس إلى خزينة الدولة بشكل مباشر، بل إلى رؤساء المناطق المعنية، ويقوم هؤلاء المسؤولون فيما بعد بتحويل المبالغ إلى الخزينة.

بالرغم من التغيرات الاقتصادية الكبيرة التي عرفتها البلاد، إلا أن قيمة الضريبة التي حددت في عهد داريوس الأول لم تتغير.

وضعية المعابد

كانت المعابد تدار من كبار ملاكي الأراضي وملاكي العبيد، وكان لها نشاطها الواسع في مجال التجارة والأعمال الربوية. يمكن التعرف على بنية ادارة المعابد من خلال تتبعنا لما كان يحدث في معبد إآنا في أوروك. كان هذا المعبد، كما كشف عن ذلك سان نيكول، يدار من قبل مجلس الكهنة. كانت الإدارة العليا للمعبد تتألف من ممثل الملك في أوروك ورئيس مجلس إدارة المعبد ونائبه ومدير المعبد وأحد الكتبة. منذ سنة ٥٥٣ ق.م. (عهد نبونيد) أخذ تأثير الدولة على المعابد يزداد باطراد. وأصبح في مجلس إدارة المعبد كل من ممثل الملك والمسؤول عن خزينة الملك، الذي يلعب دور الممثل المالي الحكومي في المعبد. وترد كثيراً في النصوص التي تعود إلى عهد حكم قمبيز عبارة «كاتب الملك تم

تعيينه في إآنا»، إذ كان يشرف على الحسابات في المعبد.

منذ عهد نبونيد أصبحت معظم شؤون المعبد تدار من قبل ثلاثة أشخاص: رئيس مجلس إدارة المعبد، ونائبه، ومفوض مبعوث من الملك. وكثيراً ما ترد كلمة «المفوضون qepani». وكانت القضايا المهمة تناقش في اجتماع يضم الموظفين كاملي الحقوق في المعبد وممثلين عن المواطنين الأحرار.

يكاد الوضع في معبد إآنا يكون مشابهاً لما كان عليه الوضع في المعابد الكبيرة الأخرى، مثل معبد الإله الأعلى في بابل (إيساجيلا)، ومعبد إله الشمس شاماش في زيبار (إيبابارا)، ومعبد الإله نابو في بورسيبا (أزيد) وغيرها.

تشكل الضرائب مصدراً مهماً من موارد المعابد، ومن أهمها ضريبة العُشر. كان الناس في الغالب يسددون هذه الضريبة عينياً (شعير، تمر، سمسم، ماشية، صوف، أسماك، طيور، الخ...). وفي بعض الحالات تسدد فضة ومنتجات معدنية.

تشكل ضريبة العشر ١٠٪ من دخل دافع الضريبة. نعتقد أن هذه الضريبة كانت تدفع من قبل جميع السكان، كل حسب دخله. وكان المواطن يسدد هذه الضريبة إلى المعبد القريب من أرضه أو مصدر دخله. ويخضع لهذه الضريبة أصحاب البساتين والخبازون والمزارعون والرعاة، ومختلف الموظفين. وكان الحرفيون ملزمين أيضاً بدفع الضريبة عن منتجاتهم الحرفية.

عرفت سياسة المعابد في بلاد الرافدين خلال العهد الاخميني تغيرات كبيرة. فقد كان الملوك الأكديون وأفراد عوائلهم يسددون ضريبة عشر سنوياً بالذهب، أو الفضة والماشية. أما الملوك الاخمينيون، وبالرغم من أنهم حافظو على ضريبة العشر وألزموا المواطنين بدفعها سنوياً، إلا أنهم كفوا عن تسديدها. أضف إلى ذلك أن الملوك الكلدانيين قلما كانوا يتدخلون في شؤون المعابد. وكانت مساهمة المعبد في واردات الدولة ضئيلة جداً، لا بل إنها كانت تحصل على هبات الملوك (أراض زراعية أو عبيد وغيرها). ولكن آخر الملوك الكلدانيين، نبونيد، الذي ارتبط عهده بإصلاحات دينية كبيرة، أنشأ «خزينة الملك» الخاصة حيث كانت تحول إليها نسبة من واردات المعبد.

بعد احتلال الفرس بابل لم يقم كورش بإلغاء الإصلاحات التي قام بها نبونيد، والهادفة إلى تقليص ملكية المعابد، إنما حصل العكس. أصبح على المعابد في العهد الاخميني أن تدفع للدولة ضرائب كبيرة: ضرائب عينية من الماشية، الشعير، السمسم، التمر، الخمر البيرة، التوابل والصوف وغيرها، كذلك تمويل موظفي الدولة بالمؤن

(رؤساء المناطق والكتبة وغيرهم)، وتأمين العلف للماشية التي تعود إلى الملك. بالإضافة إلى ذلك كانت المعابد ترسل العبيد التابعين لها للعمل في الممتلكات الحكومية، كفلاحين ورعاة وغير ذلك.

كان موظفو الادارة الملكية والعملاء يسهرون على نجاح عملية جبي الضرائب وتسديدها من قبل المواطنين في موعدها المحدد. بالإضافة إلى ذلك أنيطت بهؤلاء الموظفين مهمة مراقبة ممتلكات المعابد، وكانوا يقومون بالتفتيش على هذه الممتلكات بشكل دوري. ويشرفون على عمل العبيد المبعوثين من المعابد لإنجاز أعمال معينة للدولة.

النقود

الأساس في التجارة الداخلية في عهد الكلدانيين والاخمينيين هي سبائك الفضة وليست النقود المسكوكة. تحتوي هذه السبائك على نسبة من الشوائب. أكثر ما يتردد في النصوص هي صيغة: Kaspu sa ina isten siqlipitqa وتعني حرفياً الفضة الحاوية على ثمن جزء من الشوائب في الشيكل الواحد. ويرد بكثرة أيضاً ذكر «الفضة البيضاء» Kaspu pesu، و«الفضة النقية» Kaspu qalu. ونادراً ما يرد ذكر الفضة الحاوية على شوائب أخرى.

كانت السبائك تختم بأختام خاصة ومرفقة بالدمغة (ginu) ويتم وزنها عند كل عملية بيع وشراء. وكان الذهب يعتبر سلعة، ولم يستعمل كنقود. نسبة الذهب إلى الفضة تساوي نحو واحد إلى ١٣,٣.

بدأ ضرب النقود لأول مرة في ليديا حوالي ٦٣٠ ــ ٦٤٠ ق.م. وفي سنة ٥١٧ ق.م. أدخل داريوس الأول وحدة نقدية لسائر البلاد، وهي الوحدة التي شكلت أساس النظام النقدي عند الاخمينيين. وتزن قطعة الذهب ١,٤ غم. وكان الشيكل من الفضة وسيلة التبادل العادية، ويزن ٥,٦ غم. وهناك عملات أصغر، من النحاس. لكن قبل فتوحات الإسكندر المقدوني لم تستعمل النقود في البلدان الواقعة خارج آسيا الصغرى وخارج نطاق العالم الفينيقي ــ الفلسطيني. وكان للخواص، كما يبدو، في بلاد بابل، الحق في صب سبائك الفضة، على أن تمنح شكلاً خاصاً مميزاً. كان القصر والمعابد قد ابتكرت نظاماً محدداً لجبي الضرائب الكثيرة وجمع الهبات التي يقدمها المتبرعون. وقد اعتمدت إدارة الدولة في العهد الاخميني هذا النظام. وفي الغالب كانت الفضة التي تدفع للضرائب

من النوع الرديء. وللحصول على سبائك متجانسة كانت قطع الفضة تجمع وترسل إلى ورش خاصة تابعة للدولة أو المعبد حيث تجري تنقيتها وإعادة صبها في سبائك جديدة بنوعية ووزن قياسيين، ثم تحفظ في الخزائن.

بعد إصلاحات داريوس الأول أصبح المعدن الثمين الذي تضرب منه النقود تحت إشراف الملك مباشرة، وكان الجزء الأكبر منه غير مسكوك. وقدرت كمية الذهب في خزائن الاخمينيين، عند نهاية الدولة الفارسية، بنحو ٢٣٥٦٣٠ تالنت.

وهكذا نلاحظ أن النقود التي تجمع كضرئب وأتاوات حكومية تخزن في الخزائن عشرات السنين، أي تسحب من التداول. لذلك كانت بلاد بابل تعاني من شحة في الفضة في العمليات التجارية، وألحق هذا الوضع ضرراً فادحاً في العلاقات السلعية النقدية، لأن الناس اضطروا للجوء إلى المقايضة.

التجارة

ظلت التجارة خلال العهد البابلي الحديث والعهد الاخميني بيد تجار محترفين بكل معنى الكلمة tamkaru. يتردد في الكثير من النصوص اسم تجار التمور وتجار الماشية، وغيرهم، مما يدل على التخصص في التجارة. وكان لبعض التجار علاقات تجارية مع دول أخرى، وعلى الخصوص مع مصر التي يستوردون منها الشب ويبيعونه في بابل. وفي الداخل ازدهرت تجارة الشعير والماشية والتمور والفاكهة والأسماك والذهب وغيرها.

أثرت التغيرات الكبيرة في الحياة الاقتصادية للبلاد على دور التاجر في المجتمع البابلي خلال الألف الأول ق.م.، مقارنة بالعهود السابقة. لقد أصبح بوسع أي فرد أن يمارس التجارة، ولم تعد مقتصرة على التجار المحترفين وعملائهم. وهذا ما يميز التجارة الداخلية على الخصوص، والتي تتوفر لدينا حولها الكثير من الوثائق. انتعشت التجارة الداخلية بين مختلف مناطق ومقاطعات البلاد بشكل كبير. وكانت الأنهار واسطة النقل الرئيسية. وانتعشت المشاركة في التجارة، وكان لها أهميتها الكبيرة أيضاً. ونقصد بالمشاركة أن يشترك شخصان أو أكثر في صفقة تجارية.

ما يميز بلاد بابل في الفترة المحصورة بين القرنين السابع والخامس ق.م. هو سيطرة بيوت الأعمال العملاقة على الاقتصاد. كانت هذه البيوت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والعشرات من العبيد، وعدداً كبيراً من الدور المنتشرة في مختلف

المدن. ومن أقدمها وأشهرها بيت إيجيبي، الذي كان قائماً قبل الغزو الفارسي للبلاد (أول ذكر له يرجع إلى سنة ٧١٥ ق.م. ويرد ذكره بانتظام في الوثائق التي تعود إلى الفترة ٦٩٠ ــ ٤٨٠ ق.م.)، وواصل نشاطه في عهد كورش، وقمبيز، وداريوس الأول. كان نشاطه يتركز على عمليات بيع وشراء واستبدال الأراضي والدور السكنية والعبيد وغير ذلك. أضف إلى ذلك أن بيت إيجيبي كان يمارس الأعمال المصرفية، كأي مصرف محترف: تقديم القروض، استلام وتسليم الحوالات المالية (الكمبيالات) تسديد الديون عن الزبائن، إنشاء وتمويل المؤسسات التجارية، وحفظ الودائع. لكن أعضاء بيت إيجيبي، كغيره من بيوت الأعمال البابلية، لم يستخدموا الودائع التي يؤمنها الزبائن للأقراض، بل يستخدمون أموالهم الخاصة. كان المودعون من رجال البلاط أو من الأشخاص الذين كانت لهم مصالح مالية وتجارية مشتركة مع بيت إيجيبي. وكان البعض من أعضاء بين إيجيبي يعمل في خدمة البلاد في العهد الكلداني وفي العهد الاخميني.

لم يقتصر نشاط بيت إيجيبي على التجارة الداخلية، بل كان له دور فعال وهام في التجارة الخارجية أيضاً، وخاصة في عهد الاخمينيين، العهد الذي عرف هدوءاً نسبياً في جميع بلدان الشرق، بعد عشرينات القرن السادس ق.م. وعرف ازدهاراً اقتصادياً وفتح طرقاً بحرية جديدة، وتأمين طرق القوافل القديمة وفتح طرق جديدة، واتساع ظاهرة استعمال النقود في بعض البلدان، بالإضافة إلى الاحتكاك المباشر بين مختلف الشعوب والأقوام. كل ذلك ساعد على تطوير التجارة الخارجية بمقاييس لم يشهدها العالم من قبل. وكان للتباين في الظروف المناخية والطبيعية للبلدان الواقعة في حدود الدولة الاخمينية دور كبير في تطوير التجارة. وعرفت التجارة على الخصوص نشاطاً حيوياً بين بلاد بابل وكل من سورية ومصر وعيلام وآسيا الصغرى، حيث كان التجار البابليون يشترون الحديد، النحاس، القصدير، الذهب، الفضة، خشب البناء، الخمر، الفاكهة، وغيرها. لقد كانت بابل (بالإضافة إلى مصر) مصدر الحبوب في الدولة الاخمينية. أضف إلى ذلك أن المدن البابلية كانت مراكز كبيرة لصناعة الملابس الصوفية التي عرفت انتشاراً واسعاً في عيلام.

أما بيت موراشو، فقد كان يمارس النشاطات التجارية وأعمال الربا في جنوب ووسط البلاد خلال القرن الخامس ق.م. (ورد ذكره في نصوص تعود إلى ثلاثة أجيال متتالية). وقد تحددت طبيعة نشاط بيت موراشو بالتغييرات التي أحدثها الفرس في نظام الملكية في بلاد الرافدين. قسموا الأرض إلى حصص وزعت بين وجهاء الفرس

وتعاونيات العسكريين والموظفين، الذين لم يسبق لهم أن عملوا في الزراعة، بل كانوا يؤجرون الأرض إلى مزارعين آخرين. كان بيت موراشو يستأجر هذه الحصص مقابل بدل محدد يدفعه إلى أصحابها، ويسدد عنهم الضرائب إلى خزينة الدولة. لكنه نادراً ما كان يقوم بزراعة هذه الأراضي باستخدام العبيد التابعين له، بل يقوم بتوزيعها على مستأجرين ثانويين، ويقدم لهم ما يلزم من ماشية وبذور ووسائل الإنتاج والماء للسقي. وبكلمة أخرى، يمكن القول إن بيت موراشو كان عبارة عن مؤسسة للإقراض الزراعي ومشرفاً على موارد الحصص، إذ كان يقوم بدور الوسيط بين المزارعين ومالكي الأرض. لقد بلغت واردات بيت موراشو لعام ٤٢٣/ ٤٢٢ من التمور فقط نحو ٢٠ ألف كور (ما يعادل ٣٥٠ كغ من الفضة).

كان بيت موراشو، مثل أصحاب البنوك المعاصرين، يدير نشاطه بموارد وممتلكات الآخرين. لكن هناك اختلافاً مدهشاً للغاية بين هؤلاء وأولئك: الموارد عند موراشو ليست نقوداً بل ممتلكات ثابتة. لئن كانت البنوك تقوم بجمع عدد كبير من رؤوس الأموال الصغيرة لإقراض المبالغ اللازمة للمؤسسات التجارية والصناعية، فإن بيت موراشو يقوم بالعكس تماماً: يستأجر مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، ثم يقسمها إلى قطع صغيرة ليؤجرها إلى مستأجرين ثانويين. وخلافاً لبيت إيجيبي، الذي كانت له استثمارات كبيرة في التجارة، لم يكن لبيت موراشو دور يذكر في التجارة الخارجية. لكنه كان يقوم ببيع المنتوجات التي ترد إليه في السوق الداخلية، ويسدد الضرائب بالفضة. وهكذا، يمكن القول إن بيت موراشو كان بنكاً ومؤجراً ومستأجراً للأرض ومؤسسة تجارية.

لقد أثر نشاط بيت موراشو تأثيراً وبيلاً على مجمل اقتصاد البلاد، لأنه كان يقود إلى إفلاس أصحاب الأرض. فلئن كان بيت موراشو في بداية الأمر يقدم السلف لأصحاب الأرض، فإنه أخذ تدريجياً، وبعد بضع عشرات من السنين يحل محلهم، مركزاً الأرض في قبضته.

الأسعار

كانت أسعار مواد الاستهلاك في القرن السادس ق.م. على النحو التالي:

كور واحد (١٥٠ لتراً) من الشعير أو التمر يساوي شيكلاً واحداً فضة. كور سمسم ـــ ١٠ شيكل؛ تلانت واحد من الملح ـــ شيكلاً واحداً؛ من الصوف ـــ ٠,٥ شيكلاً؛ الثور

ـ نحو ٤٠ شيكل؛ النعجة ـ ٢ شيكل؛ الحمار ـ ٣٠ شيكلاً. وبالرغم من أن المعادن مستوردة، إلا أن أثمانها رخيصة نسبياً. مثلاً: ١٠ تالنت من النحاس المستورد من قبرص بيعت بثلاثة مَنْ وثلث شيكل؛ ٣٧ من الرصاص ـ ٥٥,٥ شيكل؛ ٣ تالنت و٥٣ من شب مصري ـ مَنْ وثلثي شيكل. لكن أسعار خشب البناء كانت مرتفعة كالسابق. وكان متوسط الإيجار السنوي للدار ١٢ شيكلاً.

ارتفعت الأسعار خلال العهد البابلي الحديث بشكل تدريجي، كما كان عليه الأمر منذ عدة قرون. لم تحدث تغيرات فجائية في الحياة الاقتصادية للبلاد بعد الاحتلال الفارسي: بقيت أسعار مختلف السلع في البداية ثابتة تقريباً، وعند نهاية الحكم الاخميني ارتفعت بنحو مرة ونصف. وهذا الارتفاع التدريجي للأسعار، الذي كان يميز بابل عبر تاريخها الطويل، يتناقض مع الرأي الشائع حول تدهور الاقتصاد وانخفاض المستوى المعاشي. ويجب أيضاً أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن زيادة الأسعار كانت تترافق مع زيادة في الأجور... ونعتقد أن زيادة الأسعار في العهد الاخميني ارتبطت جزئياً بنمو الجهاز الإداري.

الجهاز الإداري

لم ينل هذا الموضوع الاهتمام المطلوب، ولم يحظ بالدراسة التفصيلية من قبل. لذلك سنتوقف باختصار شديد عند الخطوط العريضة.

عرفت المقاطعة الإدارية باسم pahatu ورئيسها (amel)bel pahatu، ونائبه mati (amel) saknu sa، ورئيس المدينة (amel) saknu temi.

كانت إدارة البلاط تعمل تحت إشراف «رئيس القصر» (amel) rab ekali وكانت تضم عدداً كبيراً من موظفي القصر والسعاة (mar sipri sarri). وكان لأفراد العائلة المالكة والأعيان الفرس من أصحاب الضياع الكبيرة أجهزة إدارية خاصة تابعة لهم.

بالرغم من أن التقاليد الإدارية لم تنقطع بعد سيطرة الفرس، إلا أن البلاد عرفت تغييرات تدريجية كبيرة في مجال الإدارة، وفي المصطلحات المستخدمة لتصنيف الموظفين. شاع على الخصوص استخدام المصطلحات والمراتب الإيرانية. كان المرزبان على صلة وثيقة بالجهاز المركزي للإدارة، ويخضع للمتابعة المستمرة من قبل الملك وموظفي البلاط، وخاصة من قبل الجهاز السري. وديوان المرزبان مشابه لديوان الملك في عاصمة الدولة الإخمينية، ويعمل فيه الكثير من الموظفين والكتبة، تحت إشراف رئيس

الديوان (bel temi). بالإضافة إلى ذلك هناك رئيس الخزينة (ganzabara) والمنادي (az-dakara) والجباة، أو جامعو الضرائب (hatanu kaspi, rab miksi)، والمحاسب (ha-marakara)، ومحققون عدليون frasaka، وكتبة... ويبدو أن دوائر الدولة أخذت في استخدام اللغة الآرامية منذ العهد الكلداني.

كان الملك يدفع لموظفي الجهاز الحكومي رواتبهم فضة غير مسكوكة، والكثير منهم يقبض رواتب عينية (kurummatu) إضافية: حبوب، تمور، صوف، وغيرها. وتشير الوثائق إلى أن هذا الأسلوب كان متبعاً في مصر وبلاد فارس. ربما كان الموظفون في آسيا الوسطى يتقاضون رواتبهم فضة مسكوكة (على أقل تقدير كان الأجراء في آسيا الوسطى يتقاضون رواتبهم في القرنين الخامس والرابع ق.م. على هيئة نقود فضية، وذهبية نحاسية).

العلاقات الأثنية

أغرقت بلاد بابل بالقبائل الآرامية منذ عهد الملوك الكلدانيين. كانت هذه القبائل تعيش جنباً إلى جنب مع سكان البلاد الأصليين. وقد سبي نحو عشرة آلاف يهودي إلى بابل، بالإضافة إلى أسرى آخرين من أقوام وشعوب أخرى. وبعد احتلال الفرس لبلاد الرافدين سنة ٥٣٩ ق.م.، أصبحت هذه البلاد الخصبة محط أنظار الكثيرين، وفتحت أبوابها أمام الهجرة. أضف إلى ذلك أنشئت في الولاية البابلية، كما حصل في الولايات الأخرى مستوطنات عسكرية من ممثلي مختلف الشعوب. لذلك استوطن هذه البلاد مختلف الأقوام والشعوب. على سبيل المثال بلغ عدد الأسماء غير البابلية الوارد ذكرها في وثائق تعود إلى بيت موراشو في نيبور ثلث الأسماء المذكورة.

كان الغرباء في حالات كثيرة يعيشون في أحياء معروفة من المدينة، ولهم جمعياتهم الخاصة بهم وإدارتهم الخاصة. فعلى سبيل المثال كان في مدينة بابل حي خاص للمصريين، وفي نيبور وضواحيها كان لكل مجموعة أثنية منطقة محددة. لكن في الغالب كان الغرباء يعيشون مع السكان الأصليين، ويتزاوجون مع بعضهم ويعقدون الصفقات المختلفة...

ترجمة د. عدنان عاكف حمودي

عن كتاب «العبودية في بابل»

ليتّسع الحوار ويتعمّق/ملف

ملاحظات حول «الموضوعات»

عزيز سباهي

تحضيراً لعقد المؤتمر السادس للحزب الشيوعي العراقي طرحت اللجنة المركزية للحزب للمناقشة العامة وثيقتها الأساسية للمؤتمر، كما يبدو، بعنوان «موضوعات أساسية للمناقشة حول سياسة الحزب ومواقفه» ويتبيّن من قراءة «الموضوعات» المذكورة، أنّها مكرّسة لسياسات الحزب المختلفة التي انتهجها في السنوات الثلاث التي أعقبت المؤتمر الوطني الخامس، وهي فترة دقيقة إتسمت بالتعقيد الكبير أُمتحنت فيها قدرة القيادة الجديدة التي انتخبها المؤتمر الخامس على النهوض بالمهمة الكبيرة التي طرحها وهي الخروج من حالة الأزمة التي كان يعاني منها الحزب على حد تعبير سكرتير الحزب، والتي عمقتها الانهيارات المتلاحقة لتجارب الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي السابق و أوروبا الشرقية.

أول ما يلاحظه المرء على «الموضوعات» كونها تتمحور حول القضايا الآنية الملحة، ومعنى هذا ان مناقشات المؤتمر السادس ستنصرف، في الأساس، الى هذه القضايا، وهو عين ما أخذ به تقرير اللجنة المركزية للمؤتمر السابق، أي ان عدداً من القضايا العقدية، من فكرية وغيرها، التي واجهت وتواجه الحزب ستظل تنتظر التحقيق، وستظل تنتظر تعبئة الطاقات الفكرية لدى الحزب لمعالجتها، أو على الأقل تحقيق مشاريع ضرورية في هذا السبيل، ولم تُذلل العقبات التي حالت دون التوصل الى ذلك في الفترة التي سبقت المؤتمر السابق وما بعده. ولا أعلم سبب القصور.. هل في «أساليب العمل» أو

«بسبب العلاقات الشخصية» أم بسبب «التقصير في تعبئة الطاقات الفكرية» كما يقول السكرتير. والآن، وبعد ان استجدت ظروف دفعت الى تأجيل انعقاد المؤتمر لفترة اخرى، فهل لنا أن نأمل بحل لهذا القصور؟

منذ سنوات عديدة، والحزب يناضل في ظروف صعبة ومعقدة للغاية في الميادين السياسية والفكرية والتنظيمية.. ولم يكن الخلل ناجماً عن الظروف الموضوعية التي أحاطت بعمل الحزب وحدها، وهي بحد ذاتها عبء ثقيل جداً، لاسيما بعد شيوع الأضطراب والاحباط إثر انهيار الاتحاد السوفييتي، وانما نجم كذلك عن الأوضاع الذاتية للحزب وآليّات عمله والسياسات التي حكمت توجهه، وتراكم النواقص والأخطاء، والاعتماد، أساساً، على الرصيد النضالي للحزب حتى كاد أن يستنفد هذا الرصيد في صراعات لاجدوى منها.

في ظني أن تفعيل الحزب وتطوير بنيته العامة والارتقاء بأساليب عمله وتدقيق خطابه السياسي وقدراته على متابعة المتغيرات في الواقع العراقي وتحليل عواملها واتقانه فن التنبؤ السياسي وامتلاك القدرة على التحرك السريع لمجابهة شتى الاحتمالات، واتقانه استخدام أدواته الماركسية للتحليل السياسي وقراءة الاحداث قراءة صحيحة ستظل كلها الهمّ الأول للحزب. وإذا كان المؤتمر الوطني الخامس قد انعقد تحت راية الديمقراطية والتجديد دون أن يقع في وهم القدرة على صنع الخوارق فانه وضع اللبنات الاولى في طريق بعث الحيوية والتجديد.. وصار من الضروري ترسّم خطواته تلك والسير في ذات الاتجاه أعلى فأعلى.

ان نظرة أولية لما تم تحقيقه خلال السنوات الثلاث تؤكد ان ما تحقق في اتجاه اشاعة الديمقراطية في حياة ونشاط الحزب عامة ليس بالقليل. لقد باتت صحافة الحزب تقرأ باهتمام ورغبة لما يشيع فيها من تبادل مثمر وحر في الأفكار والآراء، ولم يعد الاجتهاد في سياسات الحزب يخيف المناضل الحزبي من أن يوصف بالمروق، وأمكن التخلص الى حد ليس بالقليل من التردد الذي يسود أوساط المناضلين من الجهر بأفكارهم، ولأول مرة يجد الشيوخ من أمثالي انهم في حاجة الى مغالبة النفس لأنتهاج السبيل الجديد والاّ خلّفهم الزمن وراءه. لقد ساد خلال الأعوام الثلاثة جو انتقادي لم يخلُ أحياناً من روح الانفعال والحس العدمي. لقد كان ذلك ضرورياً لهزّ القناعات التي لا تقوم على أساس متين وتصفية تواكلية القاعدة الحزبية وحالة الوصاية المفروضة من فوق، وتأصيل حياة حزبية قادرة على بعض الحيوية في كيان ترهّل مع السنين!

لقد تطور النقد اذن، وحبذا لو تطور أكثر، واتخذ دائماً منهجاً ماركسياً وتخلص من شوائب الفردية والعدمية... ولكن ماذا عن الانتقاد أو النقد الذاتي؟ منذ كنا صغاراً في حياتنا السياسية تعلّمنا مقولة: النقد والنقد الذاتي، وصرنا نرددها بمناسبة ودون مناسبة شأن كثير من المقولات. أمّا ونحن نسعى، وبحزم مشروع، لإشاعة الديموقراطية في كل بنية الحزب ونشاطه، ونعمل جاهدين على تحفيز روح الاستقلال في التفكير فلا ينبغي أن يغرب عن البال ايضاً تأكيد روح التواضع الشيوعي، والصرامة في محاسبة النفس والتزام المبدئية في العمل والتفكير. ان الوثيقة المطروحة للنقاش تؤكد ان ممارسة العملية الانتخابية شهدت بعض الأخطاء والظواهر السلبية وتغليب المعايير الذاتية أحياناً؛ كما ينبه سكرتير الحزب في حديثه الى «الثقافة الجديدة» الى أن في بنية القيادة الجديدة للحزب ووثائقه «جوانب لاترقى الى الطموح»، وكنت أتمنى لو لم يبدأ عبارته هذه بـ «قد». وأحسب أن كثيراً من قيادات المنظمات الحزبية، ولاسيما في الخارج (حيث لاتتوفر الفرص الفعلية لوضع «المؤهلات النضالية» على محك الواقع) تعاني من هذا الذي يشير اليه سكرتير الحزب. ان اشاعة الديمقراطية دون ان تقترن بالالتزام المبدئي في محاسبة الذات لن تقود الى ما يُطمح اليه في خلق حزب فعّال ومبادر، وانما ستنتهي الى ظهور بيروقراطية من لون جديد، بيروقراطية هزيلة لاتجذب أحداً وتنَفر من لايزال يعمل في إطارها. ان الظواهر السلبية التي رافقت العملية الانتخابية داخل الحزب مؤشر واضح على ان الحياة الداخلية للحزب لاتسير، في كثير من الحالات، وفق المثل الماركسية، وان الروح الجهادية للمناضلين الحزبيين تخبو مع الابتعاد عن سوح النضال الفعلية(*).

كنت أتمنى لو حظيت الجوانب الفكرية في حياة الحزب باهتمام اكبر، وإن لم أقل باهتمام جدي، وأن عوامل القصور في معالجة المشكلات التي تواجه الحزب هنا يجري السعي، حثيثاً، لايجاد الحلول لها. فخطابنا السياسي لايزال يفتقر الى الملموسية، ويعوّل كثيراً على العموميات وترديد «المسلّمات»، ويقترب اكثر فأكثر من المعالجة الصحفية اليومية. ويندر ان تنشر صحافة الحزب تقارير عن واقع حياة الفلاحين في الزراعات المختلفة او عن أوضاع العمل والعمال في مصنع ما. وما ينشر فيها إما مقتبس من الصحف الحكومية او مايتردد على كل لسان، ولايتميز عما تنشره صحف المعارضة الاخرى. والأمرّ ان هذا يصح حتى على مايجري في المناطق الكردية التي لاتخضع للحكومة(**). أين تكمن علّة هذا القصور؟ هل يرجع الى ضآلة احتكاكنا بالجماهير والى ندرة ما يتوفر لدينا من بنيّات مادية، أم في ضعف التوجه، أساساً، الى متابعة ما يستجد

في الحياة اليومية، والهبوط العام في الوعي الماركسي لدى المناضلين؟ الحزب يعلن في وثائقه، وفي ماينشره مناضلوه، انه حزب ماركسي في الأساس، فهل يمكن الإطمئنان الى هذا التأكيد، وهل يكفي هذا وحده، وهل هناك مسعىً حقيقي لتشريب الحزب عامة بالثقافة الماركسية، والعمل على استخدام هذه الأداة الفكرية الجبّارة في تحديد كل مايرسم من سياسات؟ اذا شئنا الحق، فان معرفتنا بالماركسية هي معرفة محدودة ومسطّحة. وفي ظل الهجوم الدعائي الفظ والمتواصل، والبلبلة التي تتعمد نشرها المراكز الايديولوجية المعادية للماركسية من جانب، وحالة الاحباط والارتباك التي شاعت ولاتزال في اوساط الحركة الشيوعية مع انهيار الاتحاد السوفييتي ومجموعة البلدان التي كانت تنادي بالاشتراكية في اوروبا الشرقية من جانب مقابل، هل لايزال للماركسية بريقها السابق الذي يجذب إليها الشباب؟ وفي الظروف الراهنة في العراق، حيث يتواصل الارهاب الفظ وينشغل الناس في هَمّ البحث عن لقمة العيش اليومية، ويتنامى التشتت القسري للعراقيين في بلاد الغُربة، تتضاءل كثيراً فرص الدراسة المنتظمة للفكر الماركسي واستيعابه. فكيف يمكن، والحال هذه، الحفاظ على هوية الحزب الماركسية، ووفق أية مقاييس ومبادئ يمكن تلمّس ما تفرزه الحياة من عنصر جديد له القدرة على الفاعلية والتطور؟ تلك مسألة ستزداد خطورتها مع امتداد الوقت وينبغي ان تواجه بعمل جدي وبتخطيط تجري دراسته بعناية على المديين الآني والبعيد.

على ان تعقّد المشكلة لاينتهي عند هذا الحد. ان الماركسية ذاتها ، كنظرية، تواجه الحاجة الجدية للتطوير. ان القوانين العامة للماركسية هي ثمرة الدراسة العينية للوقائع الملموسة، لكنها لا تمتلك صفة الاطلاق والأبدية، ان دراسة الوقائع العينية الجديدة استناداً الى المنهج الماركسي، المادي الجدلي، ستساعد في اكتشاف قوانين نوعية مختلفة طبقاً للأوضاع والملابسات الجديدة.. هكذا تغدو مهمة تطوير الفكر الماركسي مهمة دائمة مع دوام الحياة ذاتها وما يطرأ عليها من تغيرات جديدة، وتبعاً للأوضاع المختلفة في البلدان المختلفة. وما يميّز الصحيح عن الفاسد هو الممارسة الفعلية في حركة النضال الدائبة. «إن ما مات مع موت الاتحاد السوفييتي ليس هو الماركسية، وانما صورتها الهزلية المأساوية» كما يقول روجيه جارودي. ان السعي للتثقف بالنظرية الماركسية والعمل الدائب لامتلاك وانتهاج المنهج الماركسي يسير جنباً الى جنب مع التحقق من صحة الافكار التي يجري التوصل اليها، ولا يصح تأجيل هذه المهمة على حساب تلك والانصراف الى جانب دون الآخر.

حول سياسة التحالفات

برغم الأهمية الخاصة والراهنة لموضوعة سياسة الحزب الخاصة بالتحالفات الوطنية، إلا أن معالجتها في «الموضوعات» المطروحة للمناقشة جاءت مختصرة ولا تتناسب وأهمية المسألة. ان مبدأ العمل لإقامة اوسع التحالفات السياسية لانقاذ البلاد من دكتاتورية صدام، على أساس الاستقلال الفكري والسياسي والتنظيمي لكل طرف «بعيداً عن نزعات الإستئثار والتسلط وغمط حقوق أية قوة سياسية قادرة على ان تسهم في العمل النضالي لاسقاط الدكتاتورية» هو مبدأ سليم ويستجيب لمصلحة الشعب عامة، وقواه المختلفة. ومع ذلك، فان مسعى الحزب في هذا الاتجاه لم يخلُ من نقاط الضعف. ان تجارب التحالفات او مشروعات التحالفات التي أسهم الحزب فيها او شارك في الاعداد لها، منذ المؤتمر الخامس على الأقل، اظهرت ان الحزب في حاجة الى ان يتمسك بقوة بالأسس التي تشير اليها «الموضوعات» المطروحة. إذ لم تخلُ سياسات الحزب ونشاطه هنا من التردد والارتباك، ويكفينا ان نستشهد بالامثلة الثلاثة البارزة: الموقف من المشاركة في «المؤتمر الوطني العراقي الموحد»، والموقف من اجتماع دمشق التداولي للمعارضة العراقية، واخيراً الموقف من الحكومة التي بادر (حدك) الى تشكيلها في كردستان بعد أحداث الحادي والثلاثين من آب. نؤكد اولاً ان قدرة الحزب على التأثير في التحالفات السياسية مرهونة بقوته في التأثير على الجماهير، ومالم يعزز روابطه بها وكسب عطفها واستعدادها للأصغاء الى شعاراته والدفاع عنه، فسيظل يُجابه بروح الاستئثار والتسلط وغمط الحقوق.. الخ، ولا ينبغي ان نندهش من مسلك هذه القوة او تلك في هذا المنحى. فايديولوجيات القوى الاخرى عامة، ومن دون استثناء، تنبع من مصالح طبقية ضيقة بهذا القدر او ذاك، اكثر مماهي نابعة عن هشاشة في الوعي السياسي، اذ لانحسب أن أية قوة سياسية، بعد كل التجارب المرّة التي مرت بها المعارضة العراقية، لاتعي أهمية العمل السياسي المشترك والحاجة الى تجميع أوسع القوى ناهيك عن القوى الأساسية، لمنازلة دكتاتورية صدام. هكذا كان الأمر دائماً، وستظل إيدولوجية الطبقة العاملة وحدها تقوم على الاستعداد للتسامح والايثار، وتغليب المصلحة الأعم والأبعد على الخاصة والآنية، وستظل نصائحنا هواء في شبك أذا لم تقترن بالضغط الجماهيري الكافي. ولكن اذا تعذّر على الحزب ان يؤثر في مسار الأمور بقوة وحسم، فهل لايملك القدرة على الاختيار الأنسب؟ صحيح ان المرونة في التعامل ضرورية، لكنها تفقد قيمتها وصحتها اذا لم تقترن برؤية واضحة وتوجه مبدئي دقيق. وبقدر ما تكون المهارة

التاكتيكية ضرورية في إطار السعي لعقد التحالفات، والتخلص من العُقد الناشئة وتجنب المطبّات المفاجئة، فان خوض الصراعات الفكرية لتوضيح خطوطنا الستراتيجية في هذه التحالفات والأعمال المشتركة ضرورية هي الاخرى. وفي هذا الشأن لا ينبغي ان نُحشر في الزوايا او نغدو فريسة المفاجآت. ومن المؤسف أن كثيراً ما غدا الحزب ضحية الغفلة او لم يُحسن التنبؤ بمسار تطور الأحداث.

الحزب وساحات النضال المتباينة

قليلة هي تجارب الأحزاب في النضال تحت قيادات واحدة ولأهداف واحدة ولكن في ميادين وأوضاع متباينة تمام التباين. ان الاختلاف في ظروف نضال الحزب الشيوعي، وفي عمق الوطن وفي اقليم كردستان وفي الخارج، من السعة مايدفع الى وقفة خاصة دائماً لتأمل آليات العمل في كل واحد منها وايجاد التوازنات الضرورية التي تسمح بالانتفاع الأقصى مما تسمح به ظروف كل منها وتجنبها الآثار السلبية التي تنشأ هنا او هناك. ان «الموضوعات» المطروحة للنقاش لاتتحدث بشيء عن هذا، والارشادات التي لمّح لها سكرتير الحزب «الثقافة الجديدة، العدد ٢٥٨» لاتسمح باستنتاج الكثير. ويفهم مما يكتبه بعض الرفاق (انظر عزت العراقي، الثقافة الجديدة، العدد ٢٧١) ان هناك عديداً من المشاكل ترك البحث فيها الى المؤتمر السادس.

لاريب أن منظمات الخارج، رغم تناثرها وتباعدها، تستطيع ان تلعب دوراً كبيراً في اسناد نضال رفاقها داخل الوطن. وفي حدود ما أعلم انها تنهض بكثير من المهمات الضرورية، وهي تستطيع أن تنهض باكثر من ذلك اذا ما أحسن تحفيز وتنظيم وتعبئة عملها، ومع ذلك (وهذا ما يشغل البال حقاً) فان للعمل في الخارج آثاره السلبية في مسيرة الحزب العامة إذا لم يجر الانتباه الى توفير المصدّات او «المرشحات» الضرورية. أنا لا أدعو الى ثلم الممارسة الديمقراطية التي وُفق الحزب الى اشاعتها في العمل هنا منذ المؤتمر الخامس على الأقل.. لكنني أنبّه، في ذات الوقت، الى اهمية تدقيق النشاط في «الخارج» كثيراً وتنقيته من إفرازات الركود والابتعاد عن حرارة العمل بين الجماهير والافتقار الى المحل: الجماهيري لصدقية العمل حتى تتخلص من النشاط الاستعراضي ولاتعود هدفاً سهلاً لأنتهاج «التوجه اللبرالي» أو الركض وراء «الموضات» الايديولوجية بأسم محاربة الايديولوجيا النخبوية. لقد كتب ماوتسي تونغ مرة عما دعاه بـ «الانعزالية الجبلية» وكان يريد بها الممارسات المصلحية التي تظهر في نشاط حلقات الأنصار

المعزولة في بقاعها الجبلية الخاصة. ألا نجد مثل هذه الممارسات الانعزالية، النخبوية والمصلحية، في صفوف المنظمات التي تبتعد عن الرقابة الجماهيرية من تحت والرقابة الحزبية من الأعلى. لا أحسبني أنني آت بشيء جديد اذا ما أكدت من جديد أنّ على تعزيز بنية التنظيم الحزبي وتنقيته من الشوائب واذكاء روح الحماسة الثورية في صفوفه في شتى مواقع النضال يتقرر كل شيء مما نرسم من أهداف.

الهوامش

(*) لعل من النافع والطريف ان أسوق للمناضلين الحزبيين المثال التالي:

في غمرة النجاحات الكبرى التي كان يحققها الشعب السوفييتي في مجال التصنيع عام ١٩٣٧ خرج ستالين (ستالين ولاغيره) على الناس بمقالة عنوانها «النقد والنقد الذاتي» داعياً فيها، ويا للمفارقة، الى مراقبة قيادة الحزب والدولة، وممارسة النقد تجاه ما ترتكب من أخطاء، وأذكر انه أكد فيها على أن المجموعة التي تأخذ بقيادة الحزب والدولة، غدت، لجليل ما قدمته من منجزات منذ الثورة، بمنأى ومأمن من النقد. فاذا لم تتدارك هي أخطاءها فانها ستلحق بالبلاد أفدح الأضرار. وشدد على ان النقد حتى وان إنطوى على ٥٪ من الحقيقة فانه نافع ويتعيّن على القيادة ان تبحث عن هذه الخمسة بالمئة. حقاً انها لنبوءة باهرة.

(**) في لقاء ضمّني مع احد رفاق المكتب السياسي قبل عامين تساءلت عمّا يمكن ان تزوّد قيادة الحزب الباحثين به من بيانات وغيرها عن واقع الحياة في الوطن، حتى ولو في حدود كردستان.. وضربت مثلاً بحال الصحة في المناطق الكردية، عدد المستشفيات والأسرّة فيها.. الخ. فأجابني الرفيق: وهل يملك وزير الصحة الشيوعي للحكم المحلي مثل هذه البيانات؟!!

ورقة عمل حول ألية العلاقة بين حشع وحشك

تدقيق الممارسة وتطوير الآليات

نظراً لأن عدداً من المساهمين في مناقشة «الموضوعات» قد تناولوا العلاقة بين حشع وحشك ارتأينا نشر الوثيقة التي طرحتها قيادة الحزب للمناقشة حول هذا الموضوع.

أولاً ـ مقدمة:

١ ـــ تشكلت الدولة العراقية المعاصرة، بعد الحرب العالمية الأولى، من الولايات العثمانية الثلاث:

أ / البصرة (ولاية عربية)،

ب/ بغداد (ولاية عربية)،

ج/ الموصل وكانت تضم كردستان الجنوبية والأكثرية الساحقة من سكنة الولاية كانوا من الكرد.

٢ ـــ ولم يقر دستور الدولة الجديدة بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي، وضمت الدولة إدارات مرتبطة بالمركز أطلق عليها تسمية الألوية، ولم تأخذ هذه التشكيلات بنظر الاعتبار الواقع القومي والمشاكل القومية في العراق الجديد.

٣ ـــ ومن الألوية التي كان يسكنها الكرد:

أ / السليمانية (لواء كردي)،

ب/ أربيل (لواء كردي)،

ج/ كركوك (لواء مختلط) وكان أكثرية سكنة اللواء هم من الكرد حسب الإحصائيات الرسمية آنذاك. ويسكن اللواء التركمان والكلدان

والآشوريون.

د/ الموصل باستثناء مركز اللواء ــ مدينة الموصل، أكثرية سكان اللواء هم من الأكراد حيث كانت جميع نواحي وأقضية بهدينان مرتبطة بمركز المدينة بالإضافة إلى أقلية آشورية تسكن بعض النواحي.

هـ/ ديالى غالبية سكانه من العرب ويضم منطقة خانقين ومندلي وسكنتها من الكرد.

و / وهناك أقليات كردية تسكن بغداد والكوت. . . الخ.

٤ ــ خلال العهود المنصرمة، ورغم ما طرأ من تغيير جزئي على حدود الألوية وإجراءات التهجير والتعريب واستحداث ادارات جديدة، إلا أن تغيراً جوهرياً لم يطرأ باتجاه تشكيل ادارة خاصة بالأكراد أو التركمان وغيرهم.

٥ ــ يعتبر الدستور المؤقت الصادر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ أول وثيقة رسمية تعترف بحقوق الشعب الكردي في العراق رغم عمومية معالجتها لهذه القضية حيث جاء في المادة ٣ للدستور (يقوم الكيان العراقي على أساس من التعاون بين المواطنين كافة واحترام حقوقهم وصيانة حرياتهم. ويعتبر العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن ويقر الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية).

لقد شكل هذ الاعتراف تحولاً نوعياً في موقف السلطة المركزية من القضية القومية الكردية منذ قيام الدولة العراقية. إلا أن هذا التحول الهام ظل دون إجراءات عملية ودستورية تحدد شكل ومحتوى تمتع الشعب الكردي بحقوقه القومية.

٦ ــ وشكل بيان آذار عام ١٩٧٠ الذي نجم عن توازن القوى آنذاك، انعطافة جديدة على صعيد اعتراف السلطة المركزية بالقومية الكردية وبحق الشعب الكردي في العراق في التمتع بالحكم الذاتي ضمن إطار الجمهورية العراقية. وتضمن الدستور المؤقت الجديد الذي صدر في تموز ١٩٧٠ بنداً يتعلق بالحقوق القومية للشعب الكردي نص على أن الشعب العراقي يتكون من قوميتين أساسيتين هما القومية العربية والكردية. وأقرت الدولة عام ١٩٧٤ مشروعاً ناقصاً للحكم الذاتي، أفرغته من محتواه الحقيقي في ممارساتها اللاحقة.

وتكوّن مجلس تشريعي وآخر تنفيذي بصلاحيات محدودة واستثنى المشروع عدداً من المدن والمناطق الكردية بعد أن ربطها إدارياً بمحافظات أخرى غير كردستانية.

وحددت منطقة الحكم الذاتي بمحافظة السليمانية ومحافظة أربيل وتقرر تشكيل إدارة باسم محافظة دهوك تضم أكثرية مناطق بهدينان، ومن الجدير بالملاحظة أن مناطق من كركوك ضمت إلى محافظة السليمانية، كما ضمت مناطق أخرى من كركوك إلى محافظة صلاح الدين.

ومع هذا ظلت مراكز المحافظات الكردستانية مرتبطة بمركز السلطة في الكثير من القضايا الهامة الخاصة بكردستان.

٧ــ وفي عام ١٩٩١ وعلى أثر انتفاضة آذار والرحيل المليوني ثم فشل المفاوضات بين الحكومة المركزية والجبهة الكردستانية، طرأ تغير جذري على منطقة واسعة من كردستان العراق وتكونت إدارة موحدة تضم محافظات السليمانية، أربيل، دهوك ومناطق من كركوك وتحررت المنطقة من هيمنة السلطة المركزية، وتم إجراء انتخابات عامة أسفرت عن انبثاق المجلس الوطني الكردستاني (البرلمان) ومجلس الوزراء الكردستاني بالشكل المعروف.

٨ــ ويعيش الكيان الجديد حالة تناقض وعدم استقرار بسبب عدم حسم الأوضاع. فمن جهة هناك حكومة مستقلة في الإقليم عن السلطة المركزية في بغداد ولا علاقة بينهما غير العداء وبقايا الروابط الاقتصادية (النقد وغيرها) ومن جهة أخرى لم تطرح الأحزاب والقوى الكردستانية أبعد من شعار الفيدرالية لإقليم كردستان في إطار كيان سياسي موحد للعراق، علماً أن الحكومة المركزية والدول الإقليمية المجاورة لم تعترف لحد الآن وتتعامل بتوجس وريبة مع شعار الفيدرالية والحقوق القومية للشعب الكردي، دع عنك الكيان المستقل أو شبه المستقل الحالي. كما أن الوضع الكردستاني الراهن لم يجرِ الاعتراف به دولياً.

ثانياً ـ موقف الحزب من الحقوق القومية للشعب الكردي:

وقف حزبنا منذ تأسيسه موقفاً أممياً من القضية الكردية ومن نضال الشعب الكردي في سبيل حقوقه القومية.

وارتبط هذا الموقف بتنامي فهم الحزب للقضية وتطورات القضية ذاتها.

فقد ساند الانتفاضات الكردية التي حدثت في الأربعينات ودعم جمهورية مهاباد ذات الحكم الذاتي في إيران.

وأقر بحق تقرير المصير للشعب الكردي استناداً إلى أسس المنهجية الماركسية

والموقف اللينيني، بما في ذلك حق الأمة الكردية في الوحدة وإقامة الدولة الوطنية الموحدة.

وجسد الحزب هذا الموقف المبدئي حسب تطور المسألة الكردية ودرجة نضوجها. آخذاً بنظر الاعتبار الارتباط الموضوعي الجدلي بين قضية الديمقراطية في العراق والحقوق القومية للشعب الكردي.

وثقف رفاقه وأصدقاءه، وأوساطاً واسعة في الحركة الوطنية الديمقراطية والقومية التقدمية، بأهمية بناء عراق التآخي بين القوميات على أسس الاتحاد الاختياري بين القوميتين الرئيسيتين العرب والكرد، والقوميات والأقليات المتعايشة في الوطن.

ففي عام ١٩٥٦، طرح الحزب في وثائق الكونفرس الثاني شعار الحكم الذاتي لكردستان.

وفي عام ١٩٦٢ أقرت اللجنة المركزية تقريراً إضافياً عن القضية الكردية وحقوق الشعب الكردي القومية وفي مقدمتها حقه في تقرير مصيره وأكدت ضرورة الحكم الذاتي لكردستان في إطار عراق ديمقراطي.

وكان لنشاط حزبنا وإصراره على حل المسألة الكردية حلاً سلمياً ديمقراطياً وتثقيفه بشعار الحكم الذاتي لكردستان دور مرموق في التوصل إلى اتفاقية آذار ١٩٧٠ وصدور البيان الذي اعترف لأول مرة بشكل رسمي بحق الأكراد بحكم ذاتي في العراق.

واستناداً إلى النظرة التاريخية للقضية الكردية وكونها ظاهرة متطورة، وارتباطاً بالتطبيق الممسوخ للحكم الذاتي الذي فرضه النظام بعد عام ١٩٧٥، وجعل كل المؤسسات المنبثقة من بيان ١١ آذار ١٩٧٠: المجلس التشريعي، والمجلس التنفيذي هياكل شكلية تنفذ سياسة النظام، بعيداً عن المصالح الحقيقية للشعب الكردي وطموحاته القومية الديمقراطية، ارتباطاً بهذا كله عدل حزبنا شعاره المركزي من الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان، إلى الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان.

وفي اجتماع ل.م لعام ١٩٩١ وبعد التطورات التي مرت على القضية الكردية وارتباطاً بالمتغيرات العالمية دعت قيادة الحزب في المشروع السياسي البرنامجي المطروح للمؤتمر الوطني الخامس إلى تطوير الحكم الذاتي الحقيقي وصولاً إلى الفيدرالية.

وبعد اعلان خيار الفيدرالية من قبل البرلمان الكردستاني عام ١٩٩٢ ساند حزبنا القرار المذكور ارتباطاً بتحقيق عراق ديمقراطي فيدرالي موحد بعد الإطاحة بنظام صدام حسين.

إن المعالجات التي تبنتها قيادة الحزب للمسألة الكردية في العراق مبنية على أساس

مراعاة درجة تطورها ونضجها والنظر إليها من حيث اعتبارها قضية متحركة عادلة لا يمكن وضع الحلول لها دون تحقيق المساواة والتكافؤ والطوعية في العلاقات القومية.

ثالثاً ـ حول طروحات الحزب في مجال التنظيم الحزبي:

١ـــ في العقد الأول من تأسيسه ضم الحزب أعداداً قليلة نسبياً من المناضلين وقلما انخرط في صفوفه مناضلون كرد وتلقى ضربات متتالية في سنواته الأولى قبل أن يتوطد كيانه بعد.

وفي هذه المرحلة لم يطرح الحزب أي صيغة تنظيمية حزبية تتعلق بخصوصية المناضلين الأكراد ضمن صفوفه أو في المناطق الكردية.

٢ـــ وبعد سنوات من إعادة البناء التي نهض بها الرفيق فهد ورفاقه الرواد الآخرون أقر المؤتمر الوطني الأول في عام ١٩٤٥ تكوين الفرع الكردي الذي أصدر جريدة مركزية باسم آزادي. وكان الحزب لايزال يضم في صفوفه عدداً قليلاً من المناضلين الكرد وكانت تنظيماته ضعيفة في المدن الكردية، علماً أنه تكون من منظمات محلية تبعاً للإدارات (الألوية).

٣ـــ وفي عام ١٩٤٨ عند تطور الوضع التنظيمي للحزب وتوسعه وتشكيل المنظمات المحلية في الألوية: السليمانية، أربيل، كركوك. . . تقرر تحول اسمه من الفرع الكردي إلى فرع كردستان. وعلى ضوء قرارات الكونفرنس الثالث للحزب في كانون الأول عام ١٩٦٧ تحول الاسم إلى منظمة إقليم كردستان للحزب الشيوعي العراقي، وعقدت المنظمة مؤتمرها الأول في أيار ١٩٦٩ أقرت فيه برنامجاً وطنياً ديمقراطياً خاصاً بكردستان.

٤ـــ وظلت لجنة إقليم كردستان تتمتع بصلاحيات أوسع في الظروف الطبيعية بالمقارنة مع لجان المناطق الأخرى.

وفي فترة ما بعد ١٩٧٨ انتقل مركز ثقل التنظيم ولجنة الإقليم إلى المناطق الأنصارية وكانت تنظيمات الحزب في المدن والمناطق الحكومية ضعيفة بسبب الضربات الموجهة إليها والإرهاب السائد.

٥ـــ وفي الظروف الجديدة (بعد الانتفاضة) نشأت أوضاع ملائمة لصالح القضية الكردية وحقوق الشعب الكردي على الصعد الكردستانية العراقية الإقليمية والدولية.

وفي اجتماع اللجنة المركزية ـــ آذار ١٩٩٠ كان تقرر تشكيل لجنة مركزية لمنظمة إقليم كردستان مع منح المنظمة حقها في أن يكون لها نظام داخلي إلى جانب البرنامج.

وفي أيلول ١٩٩١ أقر اجتماع ل.م للحزب مشروع نظام داخلي وبرنامج جديدين اقترح فيهما على الحزب، بالاقتران مع الظروف الجديدة، تطوير شعار الحكم الذاتي الى الفيدرالية كما اقترح تطويراً تنظيمياً نوعياً بتكوين حزب شيوعي في كردستان العراق يتمتع بالصلاحيات الكاملة في شؤون كردستان.

٦ـ العلاقة كأي ظاهرة حياتية تتصف بالحركة والديناميكية والمرونة وتستجيب لمتغيرات الوضع العراقي والكردستاني. وترتبط بمدى تطور القضية الكردية على الصعد الداخلية والإقليمية والعالمية وطبيعة العلاقة السياسية بين إقليم كردستان والمركز.

٧ـ ونظراً للوضع الحالي لكيان اقليم كردستان الذي يتجاوز الفيدرالية وتعقيدات الوضع وعدم حسمه، فان العلاقة بين حشك والحزب ككل تعترضها صعوبات غير قليلة. . .

رابعاً ـ تجارب الأحزاب الشقيقة:

تختلف تجارب وأشكال عمل الأحزاب الشيوعية في البلدان المتعددة القوميات، وتتباين من حيث التنظيم والطرق المناسبة لوحدة الشيوعيين الممثلين للقوميات المكونة للمجتمع والبلد المعني، وحسب خصوصية كل بلد والظروف الحسية والتاريخية الملموسة.

وهنا نستعرض بعض التجارب الملموسة لأحزاب شقيقة:

أولاً ـ الحزب الشيوعي الاسباني: يضم ١٧ حزباً إضافة إلى المحافظات.

جاء في النظام الداخلي للحزب:

«الحزب الشيوعي الاسباني منظمة فيدرالية. انبثق كنتاج لاتفاق حر وطوعي بين الأحزاب الشيوعية القائمة في كل الأقاليم وفي كل القوميات التي تتكون منها الدولة الاسبانية المستندة الى القرار السياسي للأعضاء المنتمين والذين يقيمون فيدراليتهم على أساس مبادئ التضامن والتوافق الديمقراطي في مشروع سياسي مشترك على المستوى العام للدولة.

ويقيم اعضاء الحزب العلاقات فيما بينهم على أساس المساواة والاحترام المتبادل ويحولون دون وجود سلوكيات وميكانيزمات ذات طبيعة عنصرية تمييزية أو فوارق جنسية، سواء على مستوى توزيع المهام أو للوصول إلى مراكز قيادية.

إن المنظمات الشيوعية لكل قومية واقليم وبلد، تشكل الاحزاب الشيوعية المعنية بها.

والتي بمجموعها تكون الحزب الشيوعي الاسباني.

ان التوجهات السياسية والنظم الداخلية الموضوعة من قبل منظمات الحزب الشيوعي المختلفة، هي ما يشكل الاطار الفيدرالي العام المعتمد والمصادق عليه على أساس مصالح الجميع المشتركة.

ويشكل ذلك عاملاً أساسياً لتماسك الحزب من أجل الدفاع عن الحقوق والحريات لعموم شعوب اسبانيا».

ولهذه المنظمات نظمها الخاصة، ولكنها منسجمة اجمالاً مع النظام الأساسي للحزب الشيوعي الاسباني. وتطبق خط الحزب العام باستقلالية ذاتية في اطار منطقة عملها.

أما الشكل القيادي للعمل فقد حددته المادة (١١) ـ (٢) تشكيل اللجنة الفيدرالية:

أ/ الأعضاء المنتخبون من المؤتمر الفيدرالي.

ب/ ممثلو منظمات الحزب الاتحادية ومنظمة الشبيبة.

وبصدد المؤتمر الفيدرالي تشير المادة (١٧) إلى ما يلي:

يعقد المؤتمر الفيدرالي العادي مرة كل ثلاث سنوات وفي إطار المؤتمر الفيدرالي تعقد منظمات الحزب الاتحادية مؤتمراتها الموازية وعلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: من أجل مناقشة التقارير واختيار مندوبيها إلى المؤتمر الفيدرالي.

المرحلة الثانية: بعد عقد المؤتمر الفيدرالي، من أجل مناقشة سياسة الحزب المقرة واختيار لجانه.

ويحدد الفصل التاسع العلاقة بين الحزب الشيوعي الاسباني والحزب الاشتراكي الكاتولوني الموحد. وجاء في المادة (٢٨) الحزب الاشتراكي، هو حزب مستقل متآخ مع الحزب الشيوعي الاسباني. أعضاء الحزب الاشتراكي يشكلون جزءاً من الحزب الشيوعي الاسباني لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات.

يمكن للحزب الشيوعي الاسباني المشاركة في المؤتمرات والكونفرنسات التي يعقدها الحزب الاشتراكي الكاتولوني وفي اجتماعات هيئاته القيادية وذلك حسب اتفاق مشترك بين قيادتي الحزبين.

ثانياً ـ رابطة شيوعيي يوغسلافيا

يشير النظام الداخلي إلى أشكال التنظيم (مع ملاحظة ان الوثيقة المعتمدة صادرة قبل تقسيم يوغسلافيا).

وتتوزع الهيئات القيادية على الشكل التالي:

١ــ التنظيم في الاقليم المستقل ذاتياً

مؤتمر الإقليم هو أعلى هيئة لرابطة الشيوعيين في الاقليم المستقل ذاتياً. وهو يحدد المواقف التي ينبغي على رابطة الشيوعيين في الإقليم أن تتبناها انسجاماً مع سياسة الهيئات والقيادات الأعلى.

٢ــ رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتراكية

يؤلف أعضاء ومنظمات رابطة شيوعيي يوغسلافيا في الجمهورية الاشتراكية رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتركية. يجتمع مؤتمر رابطة الشيوعيين في الجمهوريات الاشتراكية، كقاعدة عامة قبل مؤتمر رابطة شيوعيي يوغسلافيا.

يحدد المؤتمر سياسة ومواقف ومهام رابطة الشيوعيين في الجمهورية الاشتراكية، انسجاماً مع سياسة رابطة شيوعيي يوغسلافيا والشروط (الظروف) السائدة في الجمهورية، ويقترح دراسة المشكلات ذات الطابع الراهن على مؤتمر رابطة شيوعيي يوغسلافيا ولجنتها المركزية.

٣ــ رابطة شيوعيي يوغسلافيا

ــ تمثل اللجنة المركزية رابطة شيوعيي يوغسلافيا سواء في داخل البلاد أم في العلاقات مع الأحزاب الأجنبية.

ــ الأمين السياسي للجنة المركزية لرابطة الشيوعيين في جمهورية اشتراكية، إذا لم يكن عضواً في اللجنة التنفيذية للجنة المركزية لرابطة شيوعيي يوغسلافيا، يحضر جلسات اللجنة الأخيرة ويساهم بكامل الحقوق في أعمالها.

ملاحظة: هذه التجربة على غرار النموذج الذي كان قائماً في الاتحاد السوفيتي. الحزب الشيوعي السوفيتي الذي يضم الاحزاب الشيوعية في الجمهوريات اضافة إلى الشيوعيين الروس.

ثالثاً ـ الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي

برنامج فيدرالية الأحزاب الشيوعية في الجمهورية الفيدرالية الجيكية والسلوفاكية:

بالاستناد إلى وثيقة طرحها الحزب عام ١٩٩٠ وقدمت إلى المؤتمر ١٨ ونشرت في ١٠/٩/١٩٩٠ في صحافة الحزب. وهذه التجربة هي نموذج لمسعى حاول ترجمة الفيدرالية السياسية الى فيدرالية داخل الحزب، حيث حاول الحزب الشيوعي

الجيكوسلوفاكي الشقيق حينها اعادة ترتيب نفسه بطريقة تتطابق مع النظام الاداري للدولة الفيدرالية، وتشكل حزبان لكل منهما لجنته المركزية الخاصة ويجمع الحزبين حزب واحد هو الحزب الشيوعي الجيكوسلوفكي الذي يتشكل على اساس مؤتمر عام وقيادة عامة لكل شيوعيي جيكوسلوفاكيا تشمل صلاحياتها كل ما هو مشترك في الدولة الفيدرالية وتعنى بكل الشؤون العامة المشتركة وتكون الأحزاب المحلية معنية بشؤون جمهورياتها المحلية. ومن المعروف ان الحزب لم يعد موحداً بفعل انفصال سلوفاكيا عن تشيكيا. ورغم ذلك توجد في الوثيقة قضايا مهمة جديرة بالدراسة، نقتبس منها النصوص التالية:

ــ ان المنظمات الأعضاء في الفيدرالية هي أحزاب حرة لأناس يفكرون بحرية ويضعون المصالح البشرية العامة فوق المصالح الطبقية والحزبية.

وتعمل الفيدرالية عبر نضالها من اجل الدفاع عن مصالح العاملين بغض النظر عن انتمائهم القومي او عقيدتهم الدينية، الناس الذين يخلقون القيم المادية والروحية.

ــ ان الفيدرالية تنطلق وتواصل التقاليد التقدمية الانسانية الديمقراطية في الفكر التشيكي والسلوفاكي والعالمي.

ــ نعتبر أن من أكثر أهداف الفيدرالية اهمية، مهمة البحث عن المواقف والمعالجات والخطوات المشتركة للقوى اليسارية في تشيكوسلوفاكيا، بهدف التوصل إلى تحقيق اوثق تقارب وتحالف لها.

التخلي التام عن الممارسة السياسية والايديولوجية التي مارسها وتمسك بها الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي قبل ١٧ نوفمبر/ ١٩٨٩.

وتتخلى الفيدرالية عن مبدأ المركزية الديمقراطية في بناء الحزب، كما تتخلى عن كل بقايا بلشفة الحزب والتشويهات الستالينية، التي قادت في عواقبها نحو الهزيمة التاريخية للحزب الشيوعي.

كما نعتبر من المرفوض قبول أساليب وأشكال العمل بصورة لا نقدية والاعتماد أو الخضوع للقوى السياسية الأخرى المحلية والأجنبية.

ــ ان حل التناقضات والخلافات السياسية والاجتماعية أمر لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق التنافس الصريح والمفتوح والديمقراطي للأفكار والآراء.

ــ ينبغي اتخاذ جميع القرارات الأساسية على أساس المناقشات الحرة ومواقف الاعضاء والهيئات والمنظمات.

وينبغي أن لا تكون الفيدرالية منظمة لذاتها. فانها لا تستطيع تحقيق اهدافها الا حين تستطيع كسب الرأي العام.

ـ ترى الفيدرالية ان اتخاذ القرار النهائي بشأن جميع القضايا الهامة على صعيد الدولة او الجمهوريات أو على الصعيد المحلي، ينبغي ان يتم عبر الاستفتاءات الشعبية العامة.

رابعاً ـ الاحزاب الشيوعية في جمهورية روسيا الاتحادية:

تضم جمهورية روسيا الاتحادية أكثر من ثلاثين قومية وشعب وأمة وجماعة سلالية وعرقية، متوزعة في ١٧ جمهورية و٥ مناطق (مقاطعات) و١٠ دوائر جميعها تتمتع بالحكم الذاتي في اطار الجمهورية الاتحادية. وهذا التقسيم الى جمهوريات ومناطق ودوائر مرتبط بالواقع القومي ـ الجغرافي والاداري والتنوع العرقي لشعوب الجمهورية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك الحزب الشيوعي وتشرذم تنظيماته في الجمهوريات السوفيتية المختلفة، تعرضت الحركة الشيوعية في روسيا الى حالة من التشتت والتمزق. ويعمل الآن إلى جانب الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية، والذي يمكن اعتباره الحزب الشيوعي الرئيسي في البلاد، ثلاثة أحزاب شيوعية أخرى هي:

١ ـ حزب العمال الشيوعي الروسي

٢ ـ حزب البلاشفة الشيوعي لعموم الاتحاد السوفيتي

٣ ـ الحزب الشيوعي الروسي

وهذا الانقسام في الحركة الشيوعية الروسية يعود اساساً إلى الخلافات الفكرية والسياسية الناشئة بين هذه الأحزاب فيما يتعلق بموقفها من تقييم التجربة السوفيتية السابقة والأسباب التي أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتي والنظرة إلى المستقبل وغيرها. ولا علاقة لهذا الانقسام بالتعددية القومية والأثنية لسكان روسيا. وتسعى هذه الأحزاب جميعها لتعزيز نفوذها وبناء تنظيماتها بين سكان روسيا الاتحادية على اختلاف انتماءاتهم القومية والأثنية والمذهبية.

ونستعين هنا بمقتطفات من وثيقتين صدرتا عن الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية (ح.ش.ر.إ) (تقرير لجنة إعداد برنامج ح.ش.ر.إ في ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٤ وبرنامج ح.ش.ر.إ في ٢١-٢٢/ ١/ ١٩٩٥) لتوضيح موقف الحزب ونظرته الى إعادة قيام اتحاد

جديد للشعوب السوفيتية، والى وحدة الحركة او الأحزاب الشيوعية في روسيا الاتحادية، والموقف من اتحاد الاحزاب الشيوعية في اراضي الاتحاد السوفيتي السابق:

«ـــ ورد في الوثيقة البرنامجية أن ح.ش.ر.إ يعمل من أجل: «المحافظة على وحدة الدولة الروسية، واقامة اتحاد مجدد للشعوب السوفيتية، وتامين الوحدة القومية للشعب الروسي».

ـــ الغاء اتفاقات بيلوفيجسك (الاتفاقات التي تم بموجبها تمزيق الاتحاد السوفيتي السابق) واعادة تشكيل الدولة الاتحادية الواحدة بالتدرج وعلى أساس طوعي».

وعلى الصعيد التنظيمي والعلاقة بين الأحزاب الشيوعية القائمة في روسيا تقول الوثيقة البرنامجية: «الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية هو منظمة سياسية مستقلة، وهو يعترف باستقلال كل الأحزاب الشيوعية الأخرى، ويقيم علاقاته معها على مبادئ وحدة المصالح الطبقية والأهداف السياسية والاجتماعية والرفاقية والمساعدة المتبادلة وأخلاق الجماعية وهو يقف إلى جانب القضاء على التمزق في الحركة الشيوعية في روسيا، وتلاحمها على الاساس الفكري والاخلاقي والسياسي الواحد الذي وضعته اجيال الشيوعيين الروس والسوفيت. ويعد ح.ش.ر.إ عضواً كامل الحقوق في اتحاد الأحزاب الشيوعية، ويعتبر أن توطيد هذا الاتحاد هو شرط سياسي هام لاستعادة قيام الدولة السوفيتية الاتحادية والحزب الشيوعي الواحد على أساس طوعي».

ويضيف تقرير لجنة عمل إعداد برنامج ح.ش.ر.إ بهذا الخصوص:

«أما ما يتعلق باتحاد الأحزاب الشيوعية في أراضي الاتحاد السوفيتي فإن موقفنا هنا قد أعلنا عنه في كونفرنس عموم روسيا الذي انعقد في نيسان ١٩٩٤ إذ ورد ان التاريخ في مسار حركته نحو إعادة بناء الدولة السوفيتية الاتحادية يتطلب تشكيل حزب شيوعي موحد إلا أنه لا يجوز تسريع هذا التشكيل دون بناء المقدمات الضرورية».

خامساً ـ تجربة الحزب الشيوعي البلجيكي:

تحولت بلجيكا الى مملكة فيدرالية وتم تشكيل حكومة محلية فلامانكية في القسم الشمالي وحكومة فرانكفونية في القسم الجنوبي في حين رفض سكان بروكسل العاصمة الدخول في هذه العملية وشكلت فيها حكومة ثالثة إلى جانب الحكومة المركزية الفيدرالية.

وقد انقسم الحزب الشيوعي الى حزبين منفصلين ومستقلين عن بعضهما ولا

تربطهما في الوقت الحاضر سوى لجنة مشتركة تلتقي بشكل دوري للتباحث في كيفية التعامل مع الأرشيف السابق للحزب وتوزيع ميراثه.

ومن بين الـ١٧ بلد التي تعتمد الفيدرالية والـ١٨ بلداً التي تستند إلى بعض مبادئها توجد تجربتان، حسب اطلاعنا، وهما كالتالي:

١ ـ أحزاب ماركسية مستقلة توجهت عبر العلاقة الفدرالية للتقارب والاتحاد (إسبانيا).

٢ ـ حزب ماركسي واحد توجه عبر العلاقة الفيدرالية لتكوين أكثر من حزب ارتباطاً بنشوء دولتين مستقلتين سلوفاكيا، جيكيا.

الخلاصة:

١/ تجارب الأحزاب الشقيقة دلت أن قيامها منذ البداية يستند إلى المبدأ الأممي. أي أن الحزب الشيوعي يضم في صفوفه العمال والفلاحين والمثقفين والكادحين عموماً بصرف النظر عن الانتماء القومي. ولم نلحظ وجود حزب شيوعي على أساس قومي بما فيه الحزب الاشتركي في كاتولونيا.

٢/ شكل وطبيعة ومستوى تمثيل الشيوعيين من مختلف القوميات يختلف من بلد إلى آخر على صعيد الأحزاب الشيوعية، بعض البلدان الفيدرالية حزب واحد موحد لا يعطي اي خصوصية متميزة للمسألة القومية وبعض البلدن الفيدرالية تقوم الاحزاب الشيوعية فيها على أساس الجمع بين الأممية والقومية، بين الاتحاد واللامركزية، ومثال ذلك إسبانيا. إلا أن كل التجارب تقوم على بناء حزب واحد.

٣/ خصوصية المسألة القومية على صعيد البلدان تجد انعكاساتها بالضرورة على صعيد الأحزاب، مما يتطلب البحث عن الشكل المناسب لبناء الحزب وفق الظروف الملموسة، آخذين بنظر الاعتبار التجارب السابقة والأوضاع الراهنة والمستقبل المنظور على الصعيدين الوطني والعالمي، الداخلي والخارجي.

التيار الديمقراطي لابد أن يؤكد وجوده

عزت العراقي

بمساهمتي في مناقشة «الموضوعات» لم اتناول ظاهرة «التيار الديمقراطي» على اهميته، فأطرح هنا ملاحظاتي حوله.

منذ فترة، ليست بالقصيرة، نسمع ونقرأ في صحف المعارضة العراقية أخباراً عن نشاطات وفعاليات يقوم بها التيار الديمقراطي العراقي في أرجاء مختلفة من العالم. وقد توزعت هذه النشاطات على موضوعات مختلفة صبّت في مجملها في التعريف بمعاناة شعبنا الذي يئن تحت وطأة النظام الديكتاتوري وممارساته، التي تنتهك بفظاظة أبسط حقوق الانسان، فضلاً عن الظروف المعاشية القاسية الناتجة عن الحصار الاقتصادي الذي لم يلحق الأذى بالنظام قدر ما الحقه بشعبنا، وهي نشاطات للحصول على أوسع تضامن مع شعبنا، ولمطالبة قوى شعبنا واحزابه الوطنية ورص صفوفها ونبذ الخلافات الثانوية وجعل مصلحة الوطن فوق كل اعتبار، مستنكرة حالة الاقتتال الجارية في كردستان التي تصب موضوعياً في صالح النظام على حساب مصلحة شعبنا العراقي بعربه وأكراده وأقلياته القومية.

وكان أبرز عناوين هذه الفعاليات رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب وتشديده على النظام، المطالبة بتطبيق القرار ٩٨٦ بصيغة «النفط مقابل الغذاء» كخطوة ضرورية في الوقت الحاضر على طريق الرفع الشامل، وقطع الطريق أمام أي تسويف في تنفيذه من قبل النظام أو الجهات الاخرى، والمطالبة بتطبيق القرار ٦٨٨ الخاص بحقوق الانسان

العراقي والسعي لجعل هذا القرار ملزماً كما هي حال القرارات الأخرى التي صدرت عن الامم المتحدة، هذا فضلاً عن النشاطات والفعاليات ذات الطابع الاستنكاري للاقتتال في كردستان.

وعلى صعيد ترتيب أوضاع التيار الديمقراطي الداخلية، تمت خطوات جيدة ذات مغزى هام تؤشر، من حيث الجوهر، الامكانات الكبيرة الكامنة التي ينطوي عليها هذا التيار. فقد تشكلت عدة لجان تنسيق في بلدان مختلفة منها بريطانيا، والسويد وبلغاريا، هذا بالإضافة لاشكال التنسيق الجارية داخل البلاد. وأصدرت بعض لجان التنسيق نشرة بإسمها معرفة بنفسها وما قامت به من نشاطات وفعاليات. ويبدو أن المحاولات جارية في بلدان اخرى لتشكيل لجان تنسيق لقوى التيار الديمقراطي. ليس هذا وحسب بل يلاحظ أن هناك شكلاً من أشكال التنسيق بين لجان التنسيق نفسها يأخذ طريقه للتبلور والظهور، مما يبشر ببوادر عمل منسق كبير الأهمية قد ينهض به التيار الديمقراطي خلال الفترة القادمة (انظر نشرة ل/ت التيار الديمقراطي، بريطانيا، العدد/ ٢).

إن الاهتمام بالتيار الديمقراطي ونشاطاته وتطور عمله ينبع من الحاجة الفعلية الماسة لهذا التيار في ساحة النضال الوطني الذي يهدف الى القضاء على النظام الديكتاتوري وإقامة نظام وطني ديمقراطي فدرالي موحّد، تعددي وتداولي، وبناء دولة القانون والمؤسسات الدستورية. فالتيار الديمقراطي يضم قوى واحزاباً وشخصيات لها تاريخ عريق مفعم بالنضال الجسور والتضحيات الجسام، وتمتلك تجارب وخبرات نضالية كبيرة وثمينة اكتسبتها من خلال معاركها المشرفة ضد أعداء الوطن والشعب وفي سبيل بناء مستقبله السعيد ودفاعاً عن كرامته وحريته. والتيار الديمقراطي فضلاً عن ذلك يمتلك طاقات علمية متخصصة موزعة على جميع فروع العلم والمعرفة، من مفكرين وعلماء ومختصين وكوادر قادرة على التعامل مع أحدث المعطيات للعلم والتقنية الحديثة، تلك الطاقات التي لايمكن الاستغناء عنها في عملية اعادة بناء الوطن، وهي ضمانة لتطوره اللاحق.. ناهيك عن العدد الهائل من رجال الثقافة والأدب والفن والمشتغلين في شتى ضروب الابداع الانساني، الى جانب الاساتذة والمربين المفعمين بالروح الوطنية والتقدمية والمثل الانسانية النبيلة. هذه الطاقات البناءة الجبارة متحمسة لتطبيق معارفها داخل الوطن اذا ما توفرت لها أجواء الحرية والديمقراطية الحقيقية، الضمانة الوحيدة لازدهار العطاء والابداع.

ويتميز التيار الديمقراطي احزاباً واشخاصاً، بقدرته على مراجعة نفسه وتقويم نشاطه وانتقاد أخطائه التي وقع فيها والبحث عن الضمانات التي تحول دون تكرارها.. وقدرته على التجديد والالتزام الصارم بمثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

حقاً لم يرتفع كل شيء نحو مستوى الطموح وبالقدر الذي تتحدث عنه الوثائق الصادرة عن الأطراف المشكلة في التيار الديمقراطي، و كما تدل المتابعة المتأنية للممارسة الفعلية على الأرض لكن تغيّراً كبيراً قد حدث فعلاً، وتحولاً في طريقة التفكير والنظر الى الأمور قد توطّد. ومن الصعب بل المستحيل التراجع عن ما تم تحقيقه. إن هذا التقدم لم يتحقق، على مايبدو، إستجابة لرغبة شخص يمتاز بنفاذ البصيرة، او عدد من القادة العقلاء، بل إستدعاه تطور الحياة ذاتها وفرضه منطقها الخاص. ومن يريد مجاراتها لابد له أن يتعامل مع معطياتها ووقائعها ويوظفها لخدمة الأهداف النبيلة التي يناضل من أجلها.

إن المعطيات الملموسة تؤكد ان هذا التيار قادر على استخلاص العبرة من الاخطاء التي وقع فيها مثل غيره من القوى الوطنية العراقية، منظمات واحزاباً، ومن أهمها اهمال قضية الديمقراطية السياسية، وضرورة التعامل مع الرأي الآخر بإحترام وحرص، واحترام حقوق الانسان وحرياته وكرامته ووضعها فوق اي اعتبار، وقيام دولة القانون والمؤسسات الدستورية. ان وعي أهمية ما تقدم لانلاحظه فقط في ادبيات أطراف هذا التيار، بل يتجسد أيضاً وبحدود معقولة في الممارسة الفعلية، وبالدرجة الأساسية في الحياة الداخلية للاحزاب والتشكيلات السياسية ولسلوك الشخصيات التي تنتمي لهذا التيار، او تلك التي تحسب على ملاكه. كما نلاحظه متجسداً في الوثائق الداخلية التي صدرت عن هذا التيار. جاء في لائحة حركة تنسيق التيار الديمقراطي العراقي/ بريطانيا على سبيل المثال: ان حركة التيار الديمقراطي في بريطانيا هي حركة سياسية تضم احزاباً وقوى ومنظمات وشخصيات مستقلة تلتزم بالديمقراطية فكراً وممارسة. وتسعى الحركة الى تنسيق جهدها بهدف نشر الوعي السياسي الديمقراطي من أجل تحقيق الديمقراطية القائمة على سيادة القانون والبرلمانية والتعددية السياسية والفكرية وإحترام حقوق الانسان وضمان الحريات العامة والخاصة وتحقيق العدالة الاجتماعية». وعن أساليب عملها تقول لنا الوثيقة: «تستند الحركة في عملها الى الأساليب الديمقراطية واحترام حرية الرأي والفكر والتعبير سواءً في علاقاتها الداخلية او الخارجية». اما الانتساب الى الحركة «فهو مفتوح لكل من يعمل على تحقيق أهدافها وبرامجها» من

«أحزاب وقوى ومنظمات وشخصيات مستقلة». كما تجيز لغير المنتسبين لها أو لعضويتها من الأحزاب والقوى والشخصيات ويتفقون مع أهدافها حضور اجتماعاتها ومؤتمراتها.

وبالإضافة الى ما تقدم فإن التيار الديمقراطي يعلن بوضوح شديد إيمانه العميق بامكانية شعبنا العراقي وقدرته على تخليص نفسه من ليل الديكتاتورية إذا ما تضافرت جهود أبنائه وتوحدت طاقاتهم، ولايجد في الاعتماد على العامل الخارجي والتعويل عليه سوى الجري وراء الأوهام رغم اعترافه بتأثير هذا العامل على مجريات الامور في بلادنا بسبب السياسة الرعناء للطغمة الحاكمة وما ترتب عليها من نتائج معروفة. لكن تأثير هذا العامل يتحدد بمدى انسجامه مع مصالح الاطراف الدولية والاقليمية التي تضع مصالحها اولاً وقبل كل شيء..

وهكذا فإن التيار الديمقراطي تشكيل سياسي للقوى الوطنية العراقية واسع وعريض يعبر من خلال نشاطاته الفكرية والسياسية وفعالياته وتوجيهاته عن طموحات الشعب العراقي بكل تلاوينه الاجتماعية ويسعى لترسيخ قواعد الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الانسان. وهو بعد ذلك لا يعتبر نفسه بديلاً للقوى والاحزاب والمنظمات، ولا يسعى الى إلغاء أحد قدر ما يطمح الى توظيف كل جهد خير في خدمة الوطن ومستقبله الديمقراطي.. لذلك فهو مرشح لان يلعب دوراً فاعلاً في إطفاء شعلة العداء والاحتراب وسوء الظن والريبة السائدة في ساحة المعارضة العراقية، (التي ما انفك النظام واعداء شعبنا العراقي يذكونها باستمرار) واقتلاع جذوتها الى الأبد.

رغم ذلك فإن هذا التشكيل الجديد المتميز عن التشكيلات التي عرفناها سابقاً على الساحة السياسية العراقية لايزال في بداية الطريق ولابد أن يحث الخطى ويعمل بوتيرة أسرع تتناسب مع وتيرة تطورات الاحداث الجارية في بلادنا والتحديات التي تتعرض لها، ومع وتيرة التردي المتواصل للحياة المعاشية والصحية والاخلاقية التي تزداد تدهوراً كل يوم بل كل لحظة.

وإذْ يعلن التيار الديمقراطي انه حركة سياسية ديمقراطية الا اننا لم نلحظ، حتى الساعة، وجود أي برنامج سياسي لهذه الحركة يعين بوضوح مفهومه للديمقراطية، كيفية انتقال البلاد من ليل الديكتاتورية واستهتارها بحقوق الانسان العراقي الى مجتمع الديمقراطية والعدالة الاجتماعية التي يتحدث عنها التيار، وما الذي ينبغي عمله للوصول الى هذا الهدف، وماهي السبل والأساليب التي يرى هذا التيار إعتمادها، ماهو منظوره

لاشراك الانسان العراقي المعني بهذه التحولات، في هذه العملية، كيفية مواجهة القيم والتقاليد والاعتبارات التي غرسها النظام في أذهان الناس طيلة فترة حكمه البغيض وبدد من أجل ذلك أموالاً طائلة، قيم القوة والعنف والقمع والقسر واحتقار الانسان والتنكر لحقوقه. وإستبدالها بالمثل التقدمية والديمقراطية.. الخ؟ ولكي يحظى التيار الديمقراطي بالدعم والتأييد من قبل القوى الديمقراطية والشعب العراقي عامة لابد أن يكون واضحاً ومفهوماً، لا رقماً آخر يضاف لقائمة المعارضة المعروفة..

إن تصوراً واضحاً لمفردات هذا البرنامج لم يتشكل بعد حتى في إطار القوى المكونة للتيار الديمقراطي، على ما أعتقد. ففي «موضوعات» المؤتمر الخامس والنقاش الدائر حولها، طرحت آراء مختلفة بدرجة او اخرى حول الانتماء للتيار الديمقراطي، وهل أن هذا التيار عام شامل لكل الديمقراطيين أم أنه تيار لليسار العراقي فقط، ناهيك عن المستوى المتفاوت من الحماس. بغية الارتقاء بصيغ عمل التيار واساليبه ودفعه خطوات اخرى إلى الأمام. كما ان هذا التيار يعاني وبحدود معينة من أمراض المعارضة العراقية، واقصد موضوع الزعامة والنسب وما الى ذلك. وعلى هذا الصعيد أعتقد أن من المناسب أن تكون اللائحة الداخلية، إذا جازت التسمية، واضحة وضوحاً كافياً لالغاء أي إشكال وبما يضمن توظيف كل الجهود نحو تحقيق الاهداف التي يسعى التيار لتحقيقها.

ويلاحظ أيضاً أن وتيرة التحرك والاتصالات بالقوى والأطراف والشخصيات الديمقراطية غير المنتمية للتيار الديمقراطي والتنسيق معها محدودة وبطيئة للغاية. أما فعالياته ونشاطاته فغالباً ما تأخذ طابعاً مناسباتياً، إذا جاز التعبير.

ومع ذلك فالتيار الديمقراطي حافل بالامكانات والطاقات الوطنية الخيرة، ويمتلك كل أسباب النجاح إذا ما تضافرت جهود أطرافه وجهود كل الديمقراطيين من أبناء وطننا الحبيب، من أجل تقريب ساعة النصر على الديكتاتورية ونظامها البغيض وبناء غد بلادنا الحر الديمقراطي المزدهر.

١٩٩٦/١١/١٣

لتبقى السياسة الوطنية ثابتة

عبد الهادي حسين

كان الحزب الشيوعي العراقي منذ تأسيسه حزباً للوحدة الوطنية لانه التنظيم السياسي الوحيد الذي ضمَّ ويضمّ بين صفوفه كل مكونات الشعب العراقي (عرباً ـ كرداً ـ تركمان ـ ارمن ـ مسلمين ومسيحيين، صابئة ـ يهود ـ يزيديين) انه حزب كل العراقين. وبالرغم من هوية الحزب وايديولوجيته الطبقية، كان لبرنامجه السياسي الوطني، الذي يلبي طموحات واماني غالبية الشعب، دوراً في سعة وانتشار افكاره بين شرائح متنوعة من مجتمعنا. كتب بهجة العطية عام ١٩٤٩، بصفته رئيساً للشرطة السياسية يقول: «انتشرت الشيوعية انتشاراً واسعاً في المدن الكبرى الى درجة ان الحزب اجتذب اليه في أيامه الأخيرة مايقرب من ٥٠٪ من شباب الطبقات كافة» وهذا يدل على عمق تغلغل افكار الحزب بين صفوف العراقيين آنذاك. ولقد اكدت تجارب الواقع وبرامج الحزب السياسية ان التغيير المنشود لمجتمعنا ليس على يد طبقة دون غيرها وانما يتطلب تحالفاً عريضاً بين كل الشرائح الاجتماعية التي لها مصلحة في التغيير التقدمي الديمقراطي.

لذلك كان انتشار أو انحسار شعبية الحزب تحددهما دائماً برامجه السياسية وطرق واشكال النضال من أجل تطبيقها. فكلما كان برنامج حزبنا السياسي وطنياً يضع مصالح شعبنا ومستقبله كهدف لسياسته كلما ازداد قوةً واتسعت قواعده واجتذب التفافاً شعبياً واسعاً حوله، وكلما جانب الواقعية باتجاه مصالح وسياسات مرحلية كتحالفاته مع

النظام الحالي سابقاً وتجاربه التحالفية الحالية مع فصائل المعارضة العراقية، انعكست سلباً على سمعة الحزب السياسية وسببت ارباكاً وانكساراً سياسياً في منظومة افكاره وبين صفوف اعضائه ومناصريه.

ولأننا على مشارف مؤتمرنا السادس، وازاء الوضع السياسي المتدهور والغامض الذي دشنه النظام بدخوله غير المفاجئ الى كردستان، وامام التهديدات والتدخلات الاقليمية، وضربات الامريكان المستمرة لعراقنا العزيز، وازاء الجوع العراقي المستمر والمخاوف الوطنية المشروعة على وحدة العراق وسيادته، لابد أن يكون لحزبنا الشيوعي برنامج وخط سياسي واقعي يمحص كل هذه المآسي السياسية ويستشرف تفاعلاتها في المستقبل القريب والبعيد.

يرى البعض ان هناك تناقضاً بين شعاري اسقاط النظام ورفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا اللذين أقرهما المؤتمر الخامس للحزب، بل هنالك من يعتقد أن شعار رفع الحصار ماهو الا غزل مع النظام الشوفيني بحجة ان حزبنا ونظام بغداد يطالبان برفع الحصار الاقتصادي، بمعنى آخر، يعتقد هؤلاء ان رفع الحصار يعني تقوية النظام وادواته القمعية، لان طاغية العراق سيستثمر معظم الدخل لدعم مؤسساته الامنية وتزويد جيشه الجمهوري بكل انواع أسلحة الدمار. ويتناسى هؤلاء ان الحصار الاقتصادي مفروض اساساً على الشعب فقط وان النظام لم يتأثر به قطعاً وعلى العكس تماماً فقد ظل النظام ممسكاً بخناق شعبنا بالرغم من انتفاضة شعبنا في آذار ١٩٩١ وبالرغم من جميع الصراعات والتصدعات التي حدثت في مؤسسات النظام وداخل الاسرة الحاكمة، وظل متمكناً من دكتاتوريته وتعسفه واضطهاده لعموم شعبنا، واستطاع، بفعل عامل الحصار، ايصال شعبنا الى مدارك قلما وصلها شعب آخر. وهذه المأساة مستمرة امام الصمت المطبق من شعوب العالم وانظمتها وبموافقة كل انظمة الغرب وخاصة امريكا تحت لافتات شرعية الامم المتحدة وقوانينها..

وحسب بيان منظمة اليونسيف المعلن في تشرين الثاني ١٩٩٦، أدى الحصار ويؤدي الى موت اكثر من ٤٥٠٠ طفل شهرياً بسبب سوء التغذية ونقص الدواء. ونتيجةً لدمار البنية التحتية بفعل قصف الحلفاء تعطلت المعامل والمصانع وشبكة الخدمات. فاصبح الفقر والجوع ظاهرة مَست غالبية شعبنا. فظهرت في مجتمعنا ظواهر التشرد، وانتشار الجريمة، وتفسخ الاخلاق، واندثار القيم النبيلة. وهذا يمكن النظام من استمرار سيطرته وقوته على حساب مصالح الوطن والشعب. لقد ادت الضائقة الى تشوهات

خطيرة في طبيعة المجتمع العراقي. ان استمرار الحصار بهذا الشكل الكارثي لايعني الا استمرار النظام واستفحال الكارثة. فحريٌ بهؤلاء الواقفين في صف استمرار الحصار ان يضعوا نصب أعينهم كل هذه الكوارث ومشاعر أهلنا ومأساتهم قبل ان يطالبوا باستمرار الحصار. وليس صدفة ان يطالب هؤلاء ايضاً باحترام الشرعية الدولية وعدم التقاطع مع قراراتها أو انتقاد الغرب. وهذا لايمكن تفسيره بغير مراهنتهم على العامل الخارجي والدور الامريكي بالذات من أجل تغيير النظام، وهم غير مبالين بتقديم تنازلات سياسية تمس سمعة العراق وسيادته الوطنية.

ان شعار المؤتمر الخامس «رفع الحصار الاقتصادي وتشديد الخناق على الدكتاتورية» يبقى صحيحاً ولايمكن تفسيره الا لصالح شعبنا العراقي. لقد طالب حزبنا، وهذا مسطر في وثائقه، برفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا دون أية شروط، اما تشديد الخناق على النظام، كما طرح ويناضل الشيوعيون من أجل تطبيقه، فهو مسؤولية وطنية تتحملها كل أحزاب المعارضة العراقية التي تعمل من أجل اسقاط النظام وارساء البديل الديمقراطي. ويتم ذلك عبر محاصرة ومقاطعة النظام الفاشي سياسياً ودبلوماسياً، عربياً ودولياً، ومطالبة الامم المتحدة ودول الغرب برفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا تحت اشراف دولي لمنع النظام من الاستفادة من العوائد النفطية في تقوية جيشه ومؤسساته القمعية.

المعروف ان لدول الغرب وامريكا بالذات مصالحاً استراتيجية في المنطقة العربية لايمكن المساومة عليها، وان جوهر النظام الرأسمالي الجديد يؤدي الى استمرار حالة عدم الاستقرار في المنطقة وبناء انظمة سياسية تابعة وغير معارضة لهذه المصالح. إن دكتاتورية صدام أو أية دكتاتورية اخرى، مع بعض التعديلات الشكلية، هي الاطار الاسلم لتمرير سياسة الامريكان والغرب في منطقتنا ومناطق العالم الثالث الاخرى. وهذا يتطابق مع الرؤية السياسية التي جاءت بها «الموضوعات»... تحضيراً للمؤتمر السادس لحزبنا حيث نصت ان الامريكان وبعض دول الجوار «يريدون تغييراً فوقياً محسوباً بدقة ومسيطرا عليه لمنع اية تداعيات غير متوقعة يمكن ان تنشأ عن تدخل جماهير شعبنا وقواها السياسية في عملية التغيير المنشود واعطائها طابعاً ديمقراطياً عميقاً». وهذا هو السبب الرئيسي وراء رفض امريكا والغرب التعامل مع المعارضة الوطنية أو اعطاءها صفة شرعية في تمثيل الشعب العراقي أو دعمها من أجل اسقاط النظام الفاشي. لأن بعض اطراف المعارضة، وحزبنا العراقي طرف رئيسي فيها، تناهض

مبدئياً وعملياً أية وصاية دولية على مصالح شعبنا العراقي. ان امريكا قد اعلنت وعلى لسان اكثر من مسؤول حكومي بان ضربها المستمر للقواعد العسكرية العراقية هدفه المحافظة على مصالحها النفطية في المنطقة. وليس لديها نية لأضعاف النظام أو تقويضه لصالح مجيء نظام وطني وديمقراطي بديل. لكنها وبنفس الوقت تعمل وتراهن وبالتعاون مع حلفائها في المنطقة على خلق وتفريخ نظام استبدادي آخر يتفق مع مقاساتهم وشروطهم السياسية. ودون توافر الشروط هذه لن يرضى الغرب، وامريكا بالذات، ببديل لصدام افضل منه.

لذا على حزبنا، واطراف المعارضة الوطنية الاخرى، أن تدرك صعوبة تحقيق البديل الديمقراطي في ظل الشروط الدولية القائمة. وهذا لايعني استحالة تحقيق هذا البديل. فنضال الشعوب ووصولها لانظمة وطنية ديمقراطية في مناطق مختلفة من العالم خير دليل على ذلك. وهنا تكمن مهمة حزبنا واطراف المعارضة العراقية الاخرى للعمل من أجل بناء تحالف وطني ديمقراطي يرفض التعويل على العامل الخارجي الامريكي بالذات، من أجل اسقاط النظام وبناء نظام ديمقراطي تعددي. وهذا لايعني مقاطعة القرارات الدولية بل الصحيح هو استثمار كل القرارات والامكانيات الاممية والدولية التي تخدم قضية شعبنا ومستقبله والتحرك بشكل جدي على المحور الاوروبي ومؤسساته السياسية لصالح قضيتنا. وعلى حزبنا بشكل خاص الابتعاد كلياً عن سياسة تحالفات الحد الادنى والتحالفات العريضة والتي ساعدت في سياق صيرورتها وتعاقبها ومنذ ربع قرن على دوام هذا النظام واستفحال افحش فاشية عرفها العالم حديثاً. فهناك تيارات واحزاب غير منسجمة وضعيفة داخل خيمة المعارضة عاجزة عن اسقاط الطاغية ونظامه. ان التحالف السياسي التاريخي المطلوب لن يكون تحالفاً الا لمستقبل استقرار العراق السياسي في بناء نظام وطني ديمقراطي يطوي صفحات العنف والجوع ويحقق مصالح شعبنا في الامان والسلام. وعلى حزبنا ان يناهض بل ويفضح كل التحالفات التي تختبئ تحت شعار وهدف اسقاط النظام فقط. فهدف اسقاط النظام وبالرغم من أهميته الكبرى لا معنى له دون ربطه بهدف اسمى وهو استقرار العراق سياسياً. ان جوهر التحالفات السياسية يجب ان يكون مرتكزاً على مستقبل العراق وسقوط النظام جزء من افق هذا المستقبل وليس العكس، فرصاصة طائشة ومترددة من جندي مجهول أو تمرد ثكنة عسكرية أو حتى جرعة ماء قد تؤدي هذه المهمة. ولكن السؤال يبقى: هل يستقر العراق؟ وهل يستفيد النظام الجديد من دروس السياسة في العراق ام انه سيستنجد

بالشعب كعادة من سبقوه ويعدهم بوفرة الدواء والغذاء والعيش الرغيد ثم ينقلب ضد وعوده ويمارس دكتاتوريته التي لا تختلف عن سابقتها الا في الشكل؟

الكلام عن التحالفات يجرنا للحديث عن ضعف وتشتت المعارضات العراقية. إن أهم أسباب تشتت المعارضة العراقية هو عدم اتفاقها على هدفين مركزيين يهمان مصلحة الشعب العراقي ومستقبله، وهما وسائل اسقاط النظام وشكل النظام السياسي القادم. فبالضد من سياسة حزبنا وبعض الأطراف الوطنية الاخرى والذي يشكل التيار الديمقراطي محورها الذي يراهن ويعمل على استنهاض قوى شعبنا في الداخل والخارج من أجل الاطاحة بالنظام، هنالك أطراف من المعارضة تعول على العامل الخارجي، وامريكا بالذات، واخرى على قوى اقليمية كوسائل اساسية لاسقاط النظام، بل ان بعض الاحزاب القومية بمعية بعض القوى الاسلامية تدعو الى تحالف غايته النهائية اسقاط النظام فقط على ان يترك للشعب العراقي حرية اختيار شكل نظامه السياسي القادم. ان هذا الطرح الغامض ينطوي على نيات وحسابات بعيدة عن مصالح شعبنا الوطنية. فعلى الرغم من التزامنا بحرية الشعب العراقي في اختيار نظامه السياسي وهي عين الديمقراطية الوطنية، الا انى لا أشاطر هؤلاء هذا الموقف لانهم يضمرون غير مايعلنون، مما يؤدي الى «افغنة» العراق عبر شعار دع الشعب يختار نوعية وشكل نظامه السياسي القادم. فالشعب العراقي الذي عركته المآسي والويلات الطويلة لن يختار غير طريق الديمقراطية والسلام ومن يراهن على غير ذلك ومهما كانت شعاراته يعمل على استبدال نظام الحكم الحالي بنظام اسوأ من نظام صدام. فبعض هذه الاحزاب وبدعم من قوى اقليمية مجاورة تسعى لفرض سياستها ومفاهيمها على قوى المعارضة العراقية وعلى الشعب العراقي قبل سقوط النظام الفاشي فماذا يفعلون بعد سقوط النظام؟ وكيف يختار الشعب شكل نظامه القادم وفي اي مناخ؟ فبعض هذه القوى تعتبر العنف من الوسائل المقدسة وتؤطر اتباعها على اسس طائفية ضيقة تتنكر لحقوق الكرد وتناهض حقوق الاقليات وتعتبر مفهوم سيادة الشعب تعدياً على حكم الله ومفردات الديمقراطية والحرية والسلام مفاهيم ماسونية وغربية يجب الجهاد ضدها.

لذلك، على الحزب الشيوعي العراقي ان يرسم سياسته التحالفية على أساس مستقبل استقرار العراق السياسي، والشرط الديمقراطي يحدد الحلفاء الحقيقيين لحزبنا ومصلحة شعبنا ومستقبله. ونظراً لتنوع الخارطة السياسية العراقية ولمدى قرب أو بعد هذه المعارضات من موضوعة الديمقراطية يمكن أن يتشكل اكثر من تحالف سياسي.

ولاضير من تكوين لجنة وطنية للتنسيق بين هذه التحالفات وتقريب وجهات النظر في سبيل اسقاط النظام وتأسيس نظام وطني ديمقراطي، على ان يترجم ذلك على ارض الواقع عبر انشاء قيادة ميدانية داخل العراق تحضر لانتفاضة شعبية جديدة مستفيدة من أخطاء تجربة انتفاضة آذار ٩١ المجيدة وتوكل اليها مهمة استنهاض وتنظيم قوى شعبنا في الداخل بكل مكوناته للإطاحة بالنظام، وان تلعب اللجنة الوطنية دوراً اساسياً وجاداً بارساء علاقات عمل وتضامن مع شعوب واحزاب وانظمة دول الجوار، وتعمل لتقوية علاقاتها مع منظمة الامم المتحدة ودول الاتحاد الاوروبي لصالح قضية شعبنا العادلة.

وعلى حزبنا ان يستفيد من اخطاء التجربة الانصارية في كردستان ويبدأ كفاحه المسلح في عموم العراق، على ان يتزامن هذا الكفاح مع النضال السياسي السلمي عبر المطالبة المستمرة بتطبيق قرار رقم ٦٨٨ والتوصيات الدولية الاخرى الخاصة بحقوق الانسان في العراق، والعمل على فرض انتخابات ديمقراطية تحت اشراف الامم المتحدة ودول الاتحاد الاوروبي في ظروف وشروط تتيح للشعب العراقي التعبير عن رأيه في جو من الطمأنينة وتجربة جنوب افريقيا مثال ساطع لهذا المنحى العنفي ـــ السلمي للنضال.

وعلى حزبنا واطراف المعارضة العراقية ان تستغل ظروف الصراع السياسي ـــ الاقتصادي الدائر بين امريكا ودول الاتحاد الاوروبي ورغبة الاخيرة في ان تلعب دوراً سياسياً تنافس به الدور الامريكي في المنطقة. كما صرح بذلك ديك سبرنج وزير الخارجية الايرلندي في ١٠/١٠/٩٦، بصفته رئيساً للاتحاد الاوروبي، وكما اكد الرئيس الفرنسي شيراك في زيارته للمنطقة العربية مؤخراً. وعلينا ان نقوم بحملة دولية مكثفة عبر نشاطات اعلامية وفعاليات سياسية خاصة بالغاء الحصار الاقتصادي وتقديم صدام وزمرته لمحكمة دولية ومن أجل نظام ديمقراطي للعراق. وتبقى مهمة حزبنا الملحة والوطنية، وبالتعاون مع المنظمات والاحزاب العراقية والشخصيات الوطنية المستقلة، تقوية التيار الديمقراطي العراقي وتوسيعه وتحديد مفاهيمه السياسية على ان يتضمن برنامجه السياسي برنامجاً اقتصادياً يتفق مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان. وبذلك يمكن ربط الديمقراطية السياسية بالعدالة الاجتماعية، لان التفاوت الكبير بين الدخل وتوزيع الثروة يهدد الديمقراطية ذاتها.

مما لاشك فيه أن حالة كردستان العراق أدخلت اطراف المعارضة العراقية في اوهام سياسية قاتلة وحزبنا الشيوعي واحد من هذه الاطراف التي راهنت على حالة كردستان

وتجربتها «الديمقراطية» وعلى مستقبل الحركة الكردستانية وآفاق تطورها. ومن هنا جاء الخطأ الفادح باعتبار كردستان قاعدة اساسية ووحيدة لانطلاق المعارضة العراقية، وحركة الانصار خاصةً، وبالتالي ترك ساحة العراق بتنوعه وشعبنا في الداخل دون سند نضالي، دون أخذ الظروف الاقليمية والدولية وحساسية القضية الكردية في منطقة الشرق الاوسط بعين الاعتبار. لقد زاد في الطين بله الاحتراب الداخلي بين (حدك) و (أوك) وتداعيات ذلك الاحتراب الذي توج بدخول قوات صدام الى أرض كردستان بطلب من (حدك) وتدخلات ايرانية وتركية مستمرة بطلب من هذا الطرف أو ذاك. فصارت كردستان ساحة حرب مملوءة بالالام والتشرد وموقعاً للتدخلات الخارجية والداخلية ومرتعاً للمخابرات الاقليمية والدولية. فتحولت كردستان الى وضع لايخدم مصلحة الشعب العراقي، والشعب الكردي بالذات. لذلك يجب على حزبنا ان يضع النقاط التالية كركائز أساسية في سياسته المستقبلية الخاصة بكردستان:

١) ان مايُسمّى كذباً بالملاذ الآمن هو حالة مؤقتة لايمكن ان تستمر في الظروف الاقليمية والدولية السائدة، لذا يجب الاستفادة من حالة كردستان الحالية لحماية الشعب الكردي وقواعد المعارضة العراقية أولاً واعتبارها ثانياً احدى المنطلقات الممكنة لاسقاط النظام الحالي.

٢) ان تعمل جبهة الاحزاب الكردستانية، وبدعم من قوى المعارضة العراقية وبالتعاون مع المنظمات الدولية المختصة بحقوق الانسان ومجموعة دول الاتحاد الاوروبي، من أجل اكتساب شرعية دولية لادارتها الذاتية للمنطقة الكردية وذلك عبر انتخاب برلمان وحكومة كردية تعكس الخارطة السياسية في كردستان العراق.

٣) ان مستقبل كردستان مرحلياً ومستقبلاً مرتبط بمستقبل الديمقراطية في العراق. فالنضال من أجل اسقاط النظام الفاشي واقامة بديل ديمقراطي هي مسؤولية كل العراقيين بكل مكوناتهم، ومسؤولية الاحزاب الكردستانية مسؤولية مزدوجة وطنية وقومية. لذا على احزابنا الكردستانية استشارة واشراك اطراف المعارضة العراقية بكل المفاوضات الاقليمية والدولية التي تهم قضية كردستان لانها جزء من قضيتنا الوطنية في العراق.

لندن، ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٦

حول مقالة هادي العلوي

«التنظيم المشاعي للمجتمع»

عبد الإله الياسري

١ ــ «إنّ مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنيّ الى ملكوت اللّه».

انجيل متّى ١٩

٢ ــ «والذين يكنزون الذهب والفضّة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

سورة التوبة ــ آية ٣٤-٣٥

٣ ــ رأس المال «سرقة متّصلة وافتئات على العمل».

رأس المال ـ ماركس

قدّم المفكر الوطني هادي العلوي (في الثقافة الجديدة ــ العدد ٢٧١ لشهري آب وأيلول ١٩٩٦) مخططاً للحزب الشيوعي العراقي تحت عنوان: «التنظيم المشاعي للمجتمع» ليطالب به «بعد سقوط نظام صدّام حسين حيث ستنفتح الساحة للحضور الشيوعي. . .». والمخطط جدير بالاهتمام الوطني للتوصل الى المعرفة الحقيقية المطابقة لواقع العراق، والعمل بها بمعزل عن التأثر بأيّ ضغط خارجي أو داخلي.

وقبل أن أحدّد موقفي منه، أحاول وصف بنائه العام، ثم تفكيك مكوناته الأساسية التي تكوّن منها لتقريبه ومعرفته اكثر. يتلخص بناء المخطط العام بالافكار الآتية:

ــ أسس التنظيم المشاعي للمجتمع وتقييم المذاهب المشاعية وتجاربها في الشرق.
ــ الترابط الشبكي بين المشاعية المحلية والايديولوجيا الماركسية.
ــ الصيغة التطبيقية للتنظيم المشاعي وضمان نجاحه واستمراره في ظل سلطة شيوعية.
ــ علاقته بالديمقراطية والتعددية.
وهو يتركّب من قسمين رئيسين: تشريعي و تنفيذي.

أـ القسم التشريعي:

ويتكوّن من عنصرين مندمجين في وحدة فكرية مؤسسة على الالتزام الشيوعي. وهذان العنصران المندمجان هما: المشاعية المحلية والايديولوجيا الماركسية.

ـ المشاعية المحلية:

وهي النسخة الأصلية القديمة للشيوعية في الشرق. وتظهر في نموذجين: نموذج تنظيري ونموذج تطبيقي. والنموذج التنظيري هو ما تعكسه مذاهب الحكماء الشرقيين. ومن أكثرهم وضوحاً وعمقاً حكماء الصين: «المنتمون الى المدارس الثلاث الكبرى: التاوية والموهية والكونفوشية الجديدة» وحكماء الاسلام: «المنتمون الى سلك التصوف الاجتماعي». والتياران يلتقيان في تكوين «المجتمع العظيم (. . .) الذي تكون فيه الدولة ومؤسساتها في خدمة الشعب وليس العكس». والنموذج التطبيقي هو ماورد على سبيل المثال في تجربتين مشاعيتين هما: تجربة المسيح وحوارييه زمن الامبراطورية الرومانية وتجربة القرامطة في العراق زمن الدولة العباسية.

ـ الايديولوجيا الماركسية:

وهي النسخة الشيوعية الحديثة المتطورة الى «موقف اممي» والمتداخلة مع الشيوعية المحلية في الموقف الاجتماعي الطبقي المشترك، والمتميزة عليها باكتشاف قوانين الجدل المادي لاستخدامه لتغيير الواقع. ولكنّ كلتيهما لاتعملان الاّ مندمجتين كشفرتي المقص: «ان الحكمة الشرقية لاتكفي وحدها والماركسية لاتكفي وحدها فلابد من الشفع بينهما لانشاء شيوعية فاعلة». وضرورة اندماجهما معلّلة بمسألتين:
ــ عجز الماركسية وحدها في التجارب الشيوعية الحديثة.

ــ عجز المشاعية المحلية وحدها في التجارب الشرقية القديمة.

ومن اندماجهما تتولّد «الشيوعية الفاعلة» التي لا تخرج من فضاء الفكر الى ميدان الواقع لتطبيقها عليه الاّ بواسطة: وهي السلطة الشيوعية الجديدة المتجاوزة سلبيات السلطات الشيوعية.

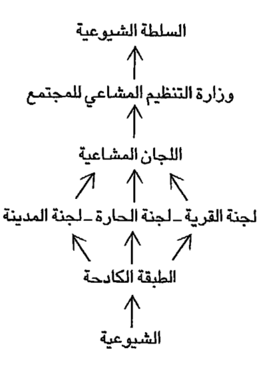
ـ الالتزام الشيوعي:

وهو المفسر بـ «الموقف الشيوعي من الشعب كمنحى التزام اجتماعي طبقي لا كمنحى التزام ايديولوجي». ولأنه «اجتماعي طبقي» يكون محصوراً بالجماعة المعوزة، ومنحازاً لمصلحتها. وبنفي «الايديولوجي» المحض منه يكون اساس البناء في المخطط قد اقتصر على الالتزام الفعلي فقط. إنّ نجاح الشيوعية الفاعلة في القسم التشريعي من المخطط يتوقف على المدامجة بين المشاعية المحلية والماركسية من جهة، وعلى الالتزام الشيوعي الفعلي والسلطة الشيوعية من جهة أخرى. ومن هذا تتكون المعادلة الآتية:

(المشاعية المحلية+الماركسية) + الالتزام الشيوعي + السلطة الشيوعية = نجاح الشيوعية.

ب ـ القسم التنفيذي:

يكون تنفيذ المخطط بعد سقوط صدّام حسين بمبادرة من الدولة التي يفترض ان تكون للحزب الشيوعي العراقي فيها سلطة لاستحداث وزارة جديدة باسم «وزارة التنظيم المشاعي للمجتمع» يديرها الشيوعيون الفاعلون الذين ينطبق عليهم الالتزام الشيوعي المفسر في المخطط. «وتقوم الورارة بتشكيل لجان مشاعية» تعمل في القرية والحارة والمدينة، لتؤدي وظائف غذائية وصحية وسكنية واجتماعية وامنية للطبقة العراقية الكادحة (٨ وظائف). وغاية الوزارة هي تطبيق مفهوم التنظيم المشاعي للمجتمع الذي يعني «البدء بالشيوعية من القاعدة وايصالها الى القمة بدل الوضع المعكوس الذي طبقت به الشيوعية في الاتحاد السوفييتي (السابق) بعد البلاشفة». لضمان استمرارها المرهون بوجود سلطة شيوعية جديدة من جهة وظهور طليعة مشاعية واعية متجاوزة ظاهرة المثقفين «الحاكمة الآن في الوسط الثقافي العربي» واتخاذ اجراءات وقائية لانجاح المخطط من جهة ثانية. ويوضح التخطيط التالي صيغة العمل:



وبهذين القسمين: التشريعي والتنفيذي يكتمل بناء «التنظيم المشاعي للمجتمع» موضوعاً للمقارنة مع ابنية الغير من حيث الديمقراطية والتعددية:

ان افكار المخطط ليست ديمقراطية لانها منحازة، وليست قمعية بنفس الوقت لأن الخيرات المادية للمجتمع المستولى عليها بالانتصار في الصراع الطبقي، توزع بالعدل على الكادحين وغير الكادحين. وهذا التوزيع العادل يُسمى في المخطط بالديمقراطية الاجتماعية التي تعاكسها الديمقراطية السياسية المتعارضة مع الانحياز الطبقي، والمطروحة من قبل المثقفين ذوي الهموم الضيّقة.

ويُختتم المخطط باقتراح الثورة المسلحة لحل ازمة العراق أملاً بأن يتقدمها الشيوعيون و «أن تقوم التجربة الشيوعية القادمة على الديمقراطية والتعددية داخل معسكرها الخاص، وان لاتكون دموية في التعامل مع الخصوم الطبقيين بعد أن تنتزع منهم السلطة» وان ينفذ المشروع المشاعي في ظل السلطة الشيوعية الجديدة التي سيدعمهاالمشاعيون على مقدار التزامها الشيوعي.

الموقف من المخطط:

بعد عرض الصورة المركبة للمخطط، وتفكيكها الى اجزائها كما هي، ينطرح سؤال: ما الموقف من هذا المشروع المشاعي؟ وبالتحديد ما موقف الشيوعيين العراقيين منه؟

ان اهميته تكمن عندي في شيئين:

١ ـــ انه يشكل رؤيا جديدة للواقع ٢ ـــ انه يقدّم طريقة اخرى للعمل.

وفي هذين الشيئين تتجلّى الحداثة، بمعناها المعرفي لا الزمني، التي لايمكن اغفال ضرورتها لانها تخترق جمود الفكر وسياج التقليد. والماركسية ليست فكراً لاهوتياً مغلقاً في وجه هذه الحداثة التي تشكّل دافعاً قويّا لاعادة النظر في مستوى الفهم لجوهر الفلسفة الماركسية كاداة معرفية يمكن بواسطتها تحليل الواقع العراقي تحليلاً غير منفصل عن خصوصيته المحلية وعن ظروفه الزمانية والمكانية من خلال ربط أجزائه الموضوعية مع بعضها ربطاً جدلياً ماركسياً لفهمه وتغييره.

ان الماركسية، كما وصلت الى المجتمع العراقي، تبدو منفصلة عن الموروث الفكري للشرق، بل وفهمت لدى الكثير انها في حالة ضدية معه. وانعكاساً لهذا الفهم ارتفعت شعارات ودارت مناقشات لتسفيه ذلك الموروث تسفيهاً لم يستند الى أساس من التحليل النقدي للفكر. ولو مورس مثل هذا التحليل النقدي لتمّ اكتشاف القاعدة الفكرية المشتركة بين مشاعية ماركس ومشاعية حكماء الشرق. لقد اقتصر معظم التنظير الشيوعي العراقي على المقولات الماركسية ـــ اللينينية الجاهزة دون اي ربط بالفكر المشاعي الموروث في الشرق وخلفيته الاجتماعية. وهذا الاقتصار كان تشويهاً لقوانين الجدل الماركسي نفسها لانه منفصل عن الإمكانية الماركسية وعن الخصوصية المحلية للمجتمع العراقي وما فيها من اختلافات عن خصوصيات المجتمعات التي طبقت فيها الشيوعية الحديثة في الاتحاد السوفييتي السابق ودول اوروبا الشرقية. وقد نتج عن هذا الانفصال صراع بين طائفيتين: طائفية شيوعية وطائفية سلفية أدّى الى تصادم عنيف استغلته الامبريالية الغربية واعوانها المحليون لعرقلة تقدم الحركة الشيوعية في العراق، وقد أدّى ايضاً الى مجاراة السياسة السوفيتية الخارجية الضاغطة على ارادة الحزب الشيوعي العراقي آنذاك لتحقيق مصالحها الخاصة. ان مايطرحه المخطط المشاعي من فكر حديث يعيد الثقة الكاملة بفاعلية الشيوعية لكي يصنع الشيوعيون العراقيون تاريخ مجتمعهم الخاص وتطوره دون انقطاع عن تراثهم الحضاري، ودون تأثر بالضغوطات الخارجية الجديدة. وهذا الطرح مغاير لما يطرحه معظم المثقفين اليوم. انهم يظهرون الشيوعية وكأنها منفصلة عن الواقع الموضوعي وهم يقصدون من ذلك التجديد لتكون اكثر ملاءمة له، واكثر استجابة للوضع العالمي الجديد. لقد اهتزّ اكثرهم من صدمة الانهيارات الاشتراكية ابتعاداً عن الاصول الماركسية بدلاً من التعلم من الدرس الجديد

وتشخيص الاسباب الحقيقية التي أدّت الى الارتداد عن الشيوعية. ان هذا الاهتزاز هو تعبير عن حالة الاحباط الفكرية التي احدثت فوضى سياسية ذات صخب ديمقراطي مبهم وفارغ من كل محتوى ابداعي ناتج عن ظروفنا الخاصة.

ان الطفرة النوعية من التغني بديكتاتورية البروليتاريا الى التغني بالديمقراطية السياسية هي رد فعل سلبي لصدمة الانهيارات الاشتراكية لا يعبر عن تحمّل مسؤولية الواقع، وهي محاولة هروبية منه، موازية في وسائلها الى العقل الديني وتصوراته الميتافيزيقية التقديسية.

ان أي خطاب صريح أو موح بان الديمقراطية السياسية حقيقة في عدم الانحياز الفكري هو ضرب من الوهم وطريقة لتمويه الواقع وتغطيته سواء أكان ذلك في الغرب أم في الشرق. ان طرح الديمقراطية السياسية بصيغها المنقولة والمترجمة لاتبدو مفهومة، وهي تهدم ولا تؤسس. وان القبول بها في صورتها المطروحة يعني مخادعة الشعب العراقي، واخضاعه مباشرة للارادة الامبريالية واحتواء نضاله الوطني من أجل السيطرة على الساحة السياسية التي يتنافس فيها المتنافسون.

ان فكرتي الموازية لافكار المخطط المشاعي تتلخص في أمرين:

١ ــ تأييد نظرية دمج الماركسية بالفكر المشاعي الشرقي وتطبيقها على المجتمع العراقي بصيغتها المبينة بعد سقوط نظام صدّام حسين.

٢ ــ الاستعداد للعمل في هذا المشروع المشاعي تطوعاً في المستقبل.

وفكرتي هذه ناتجة عن فهمي للفلسفة الماركسية الكونية الشاملة وعن فهمي للالتزام الفعلي المبني على رأي ماركس الذي اخرج الفلسفة من حيز التامل النظري الى ميدان العمل التطبيقي وعلى رأي لينين في النضال: «يجب ان يرتبط بالممارسة الفعلية للحركة الطبقية». وكان مفهوم الالتزام عند مؤسس الـح. ش. ع فهد مبنياً على هذا المعنى، ومتجلياً في موقفه من الالتزام الايديولوجي المحض من خلال قولته الساخرة: «شيوعيو المقاهي».

انا اذن صوت يرتفع من بين الأصوات المضمخة بعرق الكادحين ونزيف الجياع في العراق لأعلن ان البذرة الشيوعية التي اودعها اجدادنا العراقيون بقيادة حمدان القرمطي في ارض الكوفة قبل ان يولد ماركس وقبل أن تتاسس الاحزاب الشيوعية، ستينع حتماً على يد الأحفاد المشاعيين في ساحة الصراع الطبقي من أجل غدٍ عراقي مشرق، يكون فيه الناس أحراراً. و«من لايملك شيئاً لايملكه شيء».


أدب وفن

نموذجان من الشعر السومري*

علي الشوك

ستقتصر اسهامتي في هذه الامسية على قراءات من الشعر السومري. حسبما يسمح الوقت. لكنني أرى ان أبدأ بكلمة موجزة عن الأدب القديم في وادي الرافدين.

وقبل ذلك ايضاً أود ان أشير الى أن الادب العربي مدين للغة السومرية باكثر من مصطلح ادبي، من بينها كلمة «الشعر». فالبابليون كانوا يطلقون على الشعر كلمة «شيرو»، ولعل هذه ترجع الى (سير) أو (شِر) SIR السومرية التي ظهرت في نظام الكتابة المسماريّة منذ أول ظهور الكتابة، وكانت تعني باللغة السومرية: الغناء والانشاد والترنيم. ويبدو ان هذه الكلمة مشتركة في اللغات السامية جميعها او معظمها. ففي العربية هناك (الشعر)، وكذلك (السورة)، كما نعتقد؛ وفي الاوغاريتية (ش ي ر): يغني؛ وفي العبرية (شير): يغني، ومنها «شير هشريم»، اي نشيد الانشاد؛ وفي الآرامية (شور). وحتى في السنسكريتية نرى ان Shur تعني: يغني.

فاذا كان اصل هذه الكلمات سامياً، فلعلها ترجع الى كلمة (شورو) التي تطلق على الثور، وذلك ان الاقدمين، لاسيما في وادي الرافدين كانوا يعتقدون ان الثور مصدر الموسيقى، لأن الاوتار التي تصدر عنها الموسيقى كانت تصنع من مصارين الثيران.

وانا اميل الى الاعتقاد بأن كلمة «الادب» العربية مأخوذة من كلمة e-dubba

* ألقيت الاسهامة في «ديوان الكوفة» بلندن ضمن ندوة عن الابداع الفني السومري شارك فيها د.محمد مكية، وادارها د.صلاح نيازي.

السومرية التي تعني (بيت الالواح)، اي (المدرسة). ومما زادني قناعة بذلك انني لم اجد في اللغات السامية لفظة تفيد مثل هذا المعنى.

الأدب السومري

اننا نعرف اليوم اكثر من ١٥٠ نصاً ادبياً سومرياً، من بينها حكايات اسطورية كتبت شعراً، وقصائد ملحمية، ومزامير، واغاني حب عن طقوس الزواج المقدس بين ملك مقدس وكاهنة، ومناحات جنائزية، وتظلمات من الكوارث، وتراتيل تمجد الملوك. وهناك العديد من النصوص التعليمية: تعاليم اخلاقية، توصيات اخلاقية، محاورات، حكايات خرافية، نوادر، امثال، اقوال شعبية.

والى جانب ملحمة گلگامش وملحمة الخليقة (الاكدية) وملحمة الطوفان، يمكن القول ان التراتيل هي زينة الادب السومري. وكانت التراتيل تتلى بصوت عال من قبل كاهن فرد او جوقة. كانت تتلى عن ظاهر قلب، لان الكهنة كانوا اميين كقاعدة.

والمناحات نصوص ذات طابع ديني ايضاً. لكن اقدم نموذج نعرفه منها لا صلة له بالعبادات: انه مناحة على دمار لگش على يد الملك لوغال زاغيزي. اما المناحات الاخرى التي وصلتنا، كالمناحات حول سقوط سومر واكّد، وخراب اور، ونيبور، واريدُو، واوروك، فجميعها لها ابعاد طقوسية. ومثل هذه الآثار الادبية كانت تؤلف عادة عند اعادة بناء المدن المدمرة او في مناسبة تهديم معبد قبل بناء آخر جديد مكانه.

من بين النصوص الادبية الدينية نجد السلسلة الرائعة من القصائد (او الاناشيد الدينية) التي تبدأ بـ «نزول انانا الى العالم الاسفل» وتنتهي بـ «موت تموز». ومعظم التراتيل تنتمي الى اسلوب مدرسة نيبور.

وتشمل نصوص نيبور ايضاً على تسع اساطير شعرية حول مآثر الابطال، الذين ينتمون، استناداً الى قائمة الملوك السومرية، الى سلالة اوروك الاولى شبه الاسطورية: اينمركار، ولوگالباندا، وجلجامش. وحتى اساطير اوروك كانت تعتبر ضمن التحدار النيبوري، لأن نيبور كانت مركزاً ثقافياً.

واكثر الآداب السومرية شيوعاً ما يدعى بالاساطير الاتيولوجية (التفسيرية). كما ان تنظيم الحياة على الارض ـــ فرض النظام وتحقيق الرفاهية ـــ كان أكثر المواضيع المفضلة في الشعر السومري. ومثل هذه القصص تتضمن قصصاً عن خلق الآلهة التي

كانت مهماتها الاشراف على تطبيق النظام على الارض، وتعيين الواجبات المقدسة، وتأسيس النظام الكهنوتي، واسكان الارض بالكائنات البشرية، وحتى خلق مختلف الادوات الزراعية.

اما الاساطير التعليمية فهي مؤلفة بصيغة حوار بين ممثلي مختلف فروع الاقتصاد وحتى مختلف الاشياء في الحياة اليومية، يحاول كل منهم أو منها البرهنة على تفوقه على الآخر. وقد لعبت الـ e-dubba (المدارس) السومرية دوراً كبيراً في انتاج هذا النوع من الأدب.

ومعظم المؤلفات التي ورد ذكرها اعلاه وصلت الينا في صيغة نصوص دوّنها مدرسون او تلاميذ في المدرسة. لكن هناك ايضاً نصوصاً ادبية كانت تدعى «نصوصاً مدرسية»، وهي موجهة للطلاب بصورة عامة، وغالباً ما تتخذ شكل حوار شعري، وبعضها نصوص من الحكمة الشعبية، والحِكم، والامثال، والنوادر، والخرافات، والاقوال.

لقد حافظت هذه المادة المتنوعة جداً على الكثير من اسلوب الادب الشفهي. وكانت معظم هذه النصوص تعتمد على طريقة التكرار (قد يبلغ احيانا تسع مرات)، ربما لمساعدة الذاكرة. وهذا يؤكد انحدار الادب السومري باشكاله كافة من الادب الشفهي. وكثير من هذه النماذج يبدو لنا مفككاً وركيكاً وفجاً، مع ان القدماء لم يكونوا يعتبرونه كذلك.

ومع ذلك، ماهي ضرورة اعادة الجملة ذاتها تسع مرات، مع ان الكتابة على اللوح الطيني تقتضي الايجاز كثيراً؟

لكن من الخطأ التصور ان الادب السومري يفتقر الى القيم الجمالية. ان طريقة التفكير المجازية بحد ذاتها اورثت نوعاً من الخطاب التخيلي، وهذا آل الى استعمال اسلوب التوازي، الظاهرة النموذجية للشعر الشرقي القديم. والقصائد السومرية في واقع الحال كلام موقّع. لكنها لا تلتزم باوزان شعرية صارمة؛ وقد فشلت محاولات العثور على تفعيلة او وقفات، او مقاطع مشدّدة في الشعر السومري. ان اهم الوسائل الشعرية التي استعملت للتأكيد على الايقاع، هي التكرار، والتعداد الايقاعي للالقاب المقدسة، وتكرار الكلمات الاولى من السطر في عدة سطور، وهكذا. وهذه كلها من خصائص الشعر الشفوي.

مناحة على خراب سومر واور

لقد اظلم النهار ، ولم يعد ثمة قانون او نظام
واكتسحت العاصفة كل شيء كالطوفان
وتعطلت قيم المجتمع في سومر
وزال الحكم المرضي عنه ،
ودُمرت المدن ، ودمرت البيوت ،
ودمرت الحظائر ، وزالت زرائب الغنم من الوجود ،
ولم تعد ثيران سومر تقف في حظائرها ،
ولم يعد غنمها يسرح في زرائبها ،
وباتت انهارها تجري بمياه مرّة ،
وصارت حقولها الغنية تنبت اعشاباً ضارة ،
وسهوبها تُغل زروعاً نائحة ،
ونساؤها لايحدبن على اطفالهن ،
ولم يعد الزوج يقول «آه يازوجتي» ،
والزوجة لم تعد تهنأ بمداعباته ،
ولم يعد الطفل الصغير ينشأ على رُكبهما ،
ولم تعد الحاضنة تغني تنويمة الاطفال ،
ولقد تغير حال الحكومة ،
واضطُهدت العبادة ،
وازيلت الحكومة عن البلاد ،
وجاء حكم يشخُص الى تربة معادية ،
ولم يعد ابناء اور يقيمون في منازلهم ،لقد اصبحت ارضاً غريبة .
وذبل النبت على ضفاف دجلة والفرات ،
ولم يعد احد يسلك الطرقات والدروب ،
وآل مصير المدن والقرى العامرة الى خراب ،

وصار ابناؤها ذوو الرؤوس السود يُقتلون بالهراوة ،
ولم تعد حقولها تُعزق ، او تبذر البذور في تربتها ،
ولا تتردد صرخاتها واغانيها في البراري ،
ولا تنتج حظائرها السمن والجبن ، ولم تعد التربة تسمد بالروث ،
ولم يعد الراعي يلوّح بالعصا القصبية في الحظيرة المقدسة ،
ولم يعد صوت تحريك ممخضة اللبن يترجع في الحظيرة ،
لقد تشتت شمل القطعان ، كبيرها وصغيرها ، في السهب ،
وحل الفناء بالكائنات الحية...
وفي الاهوار صار القصب يذبُل ، ويتعفن
وذوت اشجار البساتين ، ولم تنمُ ،
في الارض حلت مصيبة لم يألفها البشر ،
شيء لم يُر مثله من قبل ، وتعجز الكلمات عن وصفه ، ويتعذر تحمله .
على البلاد المرعوبة ، جميعها ، حطت يد فاتكة
وصار الناس يتنفسون بمشقة ،
لقد مزقت العاصفة شملهم ، واحالت نهارهم ليلاً .
كان يوماً غرقت فيه الافواه والرؤوس بالدم ،
يوماً نزلت فيه المسحاة من فوق
لتحرث المدينة عاليها سافلها
في ذلك اليوم تصدعت السماء ، وتمزقت الارض ،
وأعمتْ العاصفة البشر ،
اظلمت السماء ، وحجبتها سجف ، واستحالت الى عالم اسفل .
من كان لديه بساتين واراض هجر حقوله واراضيه ،
وقال «واه على حقولي وبساتيني» ،
من كان لديه بيت حسن البناء هجر بيته ،
وقال «آه يامنزلي» .
لقد دهم الطوفان الارض ، واكتسح كل شيء ،
هدر كعاصفة هوجاء على الارض ، من يستطيع الافلات منه!
جاء ليدمر المدن كلها ، ويدمر المنازل كلها ،

ويُسيّد الكاذب على الصادق .
في ذلك اليوم ، الكلمة ـ من يعرف معناها؟ ـ
هجمت كالعاصفة ،
كلمة انليل (إله العاصفة) التي تتجه نحو اليمين
صارت تتجه نحو اليسار
في اور لم يتولَّ احد امر العناية بالطعام ،
ولم يتول احد امر العناية بالماء ،
من كان يتولى امر العناية بالماء ، تنحى عن الماء
لم يُلق بالاً له .
تحت ، اصبح العيلاميون اصحاب الحل والربط ،
تلطخت ايديهم بالدماء
وفوق ، تحكّم شعب هالما «ابناء الجبال» بأرواحنا ،
وكان ابناء القدنُوما يشدّون الهراوات على خواصرهم ،
وتحت يلوّح العيلاميون بسلاحهم كالطاعون
واور ، مثل ثور بري كان جم الثقة بنفسه ، يخرّ على ركبتيه راكعاً .
اور لاحول لها مثل قصبة وحيدة تحني رأسها ،
ابناؤها مثل سمكة أُمسكت باليد ، فقدوا حياتهم
فقراؤها ونبلاؤها ملقونَ في الطرقات ، لا احد منهم يقوى على النهوض ،
في اهراء نانّا لم يبق حبوب ،
لقد الغيت وجبات عشاء الآلهة
وفي صالات طعامهم الكبيرة لم يبق خمر وعسل ،
وفي فرنها الفاخر لم تعد الثيران والخرفان تشوى
رصيف نانّا «اللازوردي» جُرِّد من الماء ،
الماء عند قيدوم الزورق لا يرجّع صدى
الزوارق والمراكب كفّت عن التوجه الى الرصيف اللازوردي ،
على نهرك الذي يصلح للمراكب ، ولم تعد ثمة مراكب .

اور ، كمدينة هشمتها فأس ، أصبحت في عداد الخرائب
اور ، حتى كلابها لم تعد تشمشم عند قاعدة جدرانها
عند اسوارها تترجع المناحات
... وينكمش الناس رعباً امام السلاح
في اور ، توقع الفؤوس الكبيرة الدمار ، والرعب بين الناس ،
الرمح ، «سيد السلاح» يُسدَّد الى صدور الناس
السهام ، وعصي الرمي ، والمقاليع تصيب مقتلا في كل مكان ،
رؤوس السهام تملأ اجسادهم كالمطر ،
الجلاميد الكبيرة تهرس عظامهم . .

ومن نجا من السلاح قضت عليه المجاعة
لقد حلت المجاعة بالمدينة كالطوفان ، ولم يكن ثمة خلاص منها
المجاعة احنت ظهورهم ، وشلت اعصابهم ،
لقد القى شعبها السلاح على الارض مرغمين
ورفعوا ايديهم الى رقابهم ينوحون
وراحوا يتشاورون فيما بينهم ، ويُلقون الخطب البليغة :
«ويل لنا ، ماذا بوسعنا ان نقول ، ماذا بوسعنا ان نضيف!
حتى متى نظل نغنى في فم الدمار!
اور ، في داخلها موت ، وفي خارجها موت ،
في داخلها نموت من المجاعة ،
وخارجها نقتل بسلاح العيلاميين ،
لقد اكتسح العدو اور ، فلنصمد بوجه الموت...»
هكذا كانوا يرددون بلسان واحد

مرثاة

هذا النص الذي وصلنا كاملا تقريباً (وهي حالة نادرة) عبارة عن نشيد جنائزي لحبيب فتاة. ومع أنه يبدو واضحاً جداً في كلماته الا ان فحواه وغرضه يصعب ادراكهما. ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود الى المقصود بكلمة "GIR" التي تترجم بمعنى «رسول، او ساعٍ». فما هو موقع هذا الرسول عند الفتاة التي ترثيه، وماهي علاقته بها؟

«ان رسولك يقترب ، أعدّي نفسك ،
ايتها الفتاة ، رسولك يقترب ، اعدّي نفسك ،
رسولك العزيز يقترب ، اعدي نفسك .
آه ، الرسول! آه ، الرسول!
رسولك ، هو القادم من بعيد ،
رسولك القادم من الحقول النائية ، من المسالك الغريبة ،
سنونوك الذي لن يأتي من الايام البعيدة ،
يعسو بك الطافي على المياه المرتفعة للنهر الهادر ،
ضبابك الضارب فوق سلاسل الجبال ،
عشبك الطافي فوق النهر ،
وعلُك الهائم بين الجبال .
رسولكَ ، ذو الطالع السيء ،
رسولك ، ذو العينين الدامعتين ،
رسولك ، ذو القلب الحزين ،
رسولك ، الذي التهم الفيضان عظامه ،
رسولك ، الذي تقاذف الفيضان رأسه ،
رسولك ، الذي تلقى ضربة على صدره العريض» .

«بعد ان يأتي رسولي ، سأقدم له كل شيء :
سأقدم له كعكاً و... ،
سأقدم له ثمر الحقول ،

سأقدم له شعيراً محمصاً وتمراً ،
سأقدم له البيرة ذات المذاق الحلو ـ المر ،
سأقدم له عنب الكروم ،
سأقدم له تفاح الارض الواسعة ،
سأقدم له تين الارض الواسعة ،
سأقدم له الـ.. من شجرة التين ،
سأقدم له تمراً من عذوق النخل ،
سأقدم له عسل ونبيذ البستان .
بعد ان يأتي رسولي ، سأقدم له كل شيء :
سأقدم له ماء ساخناً وبارداً ،
سأقدم له العنان والسوط ،
سأقدم له رداء نظيفاً وزيتاً فاخراً ،
سأقدم له كرسياً ومسنداً للقدمين ،
سأقدم له سريراً اخضر ،
سأقدم له قشدة وحليباً من الحظيرة» .

«رسولي ، جاء ،لكنه لايمشي ، جاء ،لكنه لا يمشي ،
لديه عينان ،لكنه لايراني ،
لديه فم ،لكنه لايستطيع محادثتي ،
رسولي جاء ، تقدم! لقد جاء بالفعل ، تقدم!
لقد احضرت خبزاً ،ومسحته به ،
ومن كأس لم تتلوث
ومن صحن لم ينجّس ،
سكبت ماء فشربته الأرض التي سكب عليها
وبزيتي الفاخر مسحت الجدار من اجله ،وببدلتي الجديدة لففت الكرسي .
لقد دخلتْ الروح ،لقد رحلتْ الروح ،
لقد تلقى رسولي ضربة في الجبل ، في قلب الجبل ،
وهاهو الآن ملقى على الأرض ميتاً» .

المسرح الكردي بعد الانتفاضة

صباح هرمز*

يبدو من الصعب على المهتمين بدراسة وتوثيق المسرح الكردي وأرشفته تحديد تاريخ نشأته، بسبب وجهات نظرهم المتباينة بشأن تاريخ أول عرض. الا انهم لايختلفون في كون ملحمة «مه مى ئا لان» لمؤلفها عبد الرحيم هه كارى أول نص مسرحي كردي. ولعل هذا حفز البعض منهم لربط بدايات نشوئه بهذا النص، والبعض الآخر بمسرحية ملحمة «مه م وزين» لأحمد خاني المنشورة عام ١٩١٩ في مجلة «بانگى كردستان». لكن هذه المسرحية، كما يقول الفنان فهمى سلمان، نُشرت في جريدة «رين» الاستانبولية عام ١٩٢٨[1]. ويشير الفنان والارشيفي كاوة احمد ميرزا إلى عرضها في السليمانية عام ١٩٣٥[2].

شخصياً أميل الى الاعتقاد ان المسرح الكردي نشأ حوالي عام ١٩٢٦ بعرض النص العربي «لولا المحامي»[3] الذي ترجمه فؤاد رشيد بكر الى الكردية تحت عنوان «علم وجهل» لعدم وجود مايؤكد عراقته، وإرتباط نشوئه بنشوء المسرح العراقي، واستيحائه من قبل الدارسين او الملمين بلغات أجنبية أو العربية عن طريق الترجمة.

استدلالا من تراث ماضيهم القديم والحديث وفولوكلورهم القريب والبعيد، أفتقر الأكراد الى النزعة التمثيلية السائدة مثلا لدى سكان وسط وجنوب العراق في التمثيل الديني لمأساة الحسين، وليس عندهم ملاه ليلية تقدم ألوانا تمثيلية تسمى «الاخباري».

* ناقد مسرحي وصحفي، اربيل ـــ عنكاوا

كما لم يعرفوا مسرح خيال الظل والقراقوز مثلما عرفته شعوب معظم الدول العربية. واذا كان أدبهم الملحمي زاخراً بالأداء الدرامي كملحمة «لاس وخه زال» و «محمد سيوى» و «مهه م وزين» و «مه مي ئا لان» و «خه ج وسيامند» فان مضامين كل هذه الملاحم متشابهة الاّ بمقدار تعيين موقعها الجغرافي ورسم شخصياتها.

ان المسرح لم يصل الى الدول العربية الاّ عن طريق الترجمة والاستيحاء. فتاريخ أول مسرحية في العراق يعود الى عام ١٨٩٣ حين كتب نعوم فتح الله سحار مسرحية «لطيف وخوشابا» معربة عن الفرنسية، وأستوحى مارون النقاش المسرحية العربية الاولى «البخيل» من موليير. ونشأ المسرح في مصر على يد فرقتين فرنسية وأيطالية زارتا مصر عام ١٨٧٠. فبأستثناء المسرح الجزائري أرتبط نشوء المسرح العربي بترجمة المسرحيات العالمية أو تعريبها. ونشأ المسرح الكردي أغلب الظن عبر هاتين القناتين. وما يعزز هذا الظن زيارة الفنان الراحل حقي الشبلي لمدينة السليمانية عام ١٩٢٠ لتقديم مسرحيات بالعربية. ثم ترجم فؤاد رشيد بكر، وهو من الطلبة الاكراد ببغداد المسرحية العربية «لولا المحامي» عام ١٩٢٦.

ان تحديد نشأة المسرح الكردي، منوط بالقائمين بتوثيقه. واهتمامي به ناشىء من كوني ناقداً مسرحيا، ساهمت بجزء متواضع في دفع عجلة هذا الفن الى أمام.

ليس غريبا أن تتسم العروض المسرحية التي قدمت ابتداءً من منتصف العقد الثاني الى العقد السابع بالسطحيّة وبمستوى فني متدن وباساليب اخراجية سهلة وفضفاضة، نظراً لندرة المصادر الثقافية الخاصة بالمسرح، واجتهاد القائمين عليه وفق أمزجتهم وفهمهم لطبيعة التعامل مع مفرداته الفنية، بالاضافة الى عدم وجود كادر متخصص به وخلو كردستان من فرقة فنية لاحتضان النتاجات المقدمة، ماعدا «جمعية الفنون الجميلة»(٤) المؤسسة عام ١٩٥٧ التي كما يشير كاوة احمد ميرزا، لم تتمكن أن تلعب دورا ايجابياً في مجمل الحركة المسرحية الكردية واصبحت مشلولة بين ١٩٥٨-١٩٦٣. أقول كل هذه العوامل حالت دون نمو المسرح الكردي وتقدمه الا بعد بيان ١١ آذار ١٩٧٠. فانبثقت ثلاث فرق فنية في اربيل هي فرقة فنون اربيل، جمعية الفنون والاداب الكردية، وفرقة الفنون الكردية الحديثة، وكذا فرق في مدينة السليمانية، وإنْ كانت فرقة السليمانية للتمثيل قد تأسست في عام ١٩٦٩، أي قبل تأسيس جمعية الفنون الجميلة الكردية بعام، وفرقة المسرح الكردي الطليعي عام ١٩٧٣. فشهدت أوائل السبعينات نمو المسرح الكردي وبناء صبرحه الحقيقي. ففي عام ١٩٧٠ عرضت في

السليمانية مسرحيات [٥] «حفار القبور»، «ظلال الشوك»، «في مستشفى المجانين»، «دهاء النساء»، و«الاضطراب» لفرقة السليمانية للتمثيل. و«البرغوث»، «السائق»، «خمسة اشخاص»، في «فندق ستوارت ردي»، و«الأبله» لجمعية الفنون. وفي اربيل قدمت فرقة فنون اربيل بين ١٩٧٠-١٩٧٤ سبعة عروض، وجمعية الفنون والاداب الكردية أربعةً. الاّ ان الخط البياني لنشاطات هاتين الفرقتين سرعان ما يتنازل بين أعوام ١٩٧٤-١٩٧٨، اذْ لم تقدم فرقة فنون اربيل بعد عام ١٩٧٤ سوى عمل مسرحي، وكذا بالنسبة لجمعية الفنون، حيث هبطت من أربعة عروض الى عرضين. بينما لم تُوفق فرقة الفنون الكردية الحديثة في تقديم باكورة نتاجها الاّ في نهاية عام ١٩٧٣، وأعقبته بعمل آخر ثم جمد نشاطها في عام ١٩٧٨. ثم يتصاعد الخط البياني بحلول عام ١٩٧٩ لنشاطات الفرقتين الباقيتين فتقدمان ستة عروض هي: البيت الجديد، السؤال، الميزان، مقامات أبي الورد، المعرض، والغراب والصعلوك. وارتفع عدد العروض في السليمانية بين أعوام ١٩٧٠-١٩٨٠ الى أربعين عرضاً.

وفي بداية السبعينات ظهرت أسماء كردية بنصوصها المحلية أمثال: عمر علي أمين، أحمد ده نگك گه وره، محمد صديق محمود، فتاح كريم، أمين ميرزا كريم، كمال دلشاد، طلعت سامان، نجم الدين ملا، حمه كريم هه ورامي، شيركو بيكس، وكاوس زنگنة. وظهرت في الاخراج الاسماء التالية: أحمد سالار، صباح عبد الرحمن، سعدون يونس، برهان معرف، طلعت سامان، أحمد ده نگك گه ورة، نوزاد مجيد، فرهاد شريف، سمكو عزيز، غازي باموني، وطه خليل.

لعل عدم دراسة مسرحيي أربيل، وعدم توحيد وجهة نظرهم في بداية السبعينات في ملتقى أو تجمع فني يهدف الوصول الى قرارات وصيغ ترسم الخطوط العريضة لتأسيس حركة مسرحية وبلورة الاسس التي تعتمد عليها قد أدى الى تشتيت وبعثرة جهودهم في عروض تتسم بالعفوية في تناول النص المحلي الذي يفتقر الى العناصر الدرامية والبناء الفني المحكم، ويعتمد لغة اخراجية ــ تقليدية وفضفاضة لمخاطبة العقول الساذجة وذلك لأعتبارين: ينطوي الاول على اتخاذ النص المحلي منحى لتوجهها. والثاني هو ان المسرح في هذه المرحلة بحاجة الى استقطاب اكبر عدد ممكن من المشاهدين عبر الامكانات المتوفرة وقدرة المخرج في توظيف المفردات الاخراجية وتجسيدها على خشبة المسرح لخلق تذوق فني لديهم.

لقد أثبتت السنوات المنصرمة عدم صواب هذا التوجه، ذلك ان أصحابه لعقدين من

الزمن لم يتطور نتاجهم، ولم يتحقق هدفهم في اجتذاب الجمهور الاعتيادي بدليل أن أفضل عمل مسرحي لايستمر عرضه أكثر من اربعة أو خمسة أيام، دون أن يخلقوا لدى الجمهور تذوقا فنياً باتجاه تحرره مما غذته السينما التجارية من مفاهيم خاطئة عن الفن بأفلامها الهابطة. لستُ ضد النص المحلي والجمهور الاعتيادي، لكن تجربة المسرح الكردي على مدى ما يربو على عقدين في السليمانية أثبتت صحة التوجه الى النص العالمي والجمهور المسرحي.

قبل أكثر من ١٧ سنة كتبت بجريدة «العراق» حول هذه المسألة: «تكشف ظاهرة الاقبال على النص العالمي قدرة كادر الفرق الفنية وامكاناته أداءً واخراجا، غير ان هذا لايعني عدم توظيف نفس القدرات والامكانات لخدمة النص المحلي. فالنص المحلي هو الذي يمنح المسرح الكردي محليته وخصوصيته القومية...». ومازلتُ أقول إننا بحاجة الى نص محلي أكثر من حاجتنا الى نص عالمي، ولكن شريطة أن تتوفر فيه مستلزمات نجاح العرض المسرحي. وعندما يغيب هذا الشرط يأتي النص العالمي كحالة ضرورية. وتجربة السليمانية شاهد على التقدم في اجتذاب الجمهور. ولم يتوانَ فنانوها في تقديم النص المحلي عندما وجدوا انه يحقق هدفيهم الآنفي الذكر، ليمنحوا مسرحهم خصوصيته وملامحه. وتتمثل هذه التجربة في محاولات الفنان أحمد سالار في: نالي حلم أرجواني، الصقر يحلق عاليا، والجزيري، والفنان شمال عمر في: انتظار سيامند. بينما ظل فنانو اربيل لعقدين من الزمن يخوضون تجربة النص المحلي عبر عشرات العروض دون أن يمنحوا هذه السمة لمسرحهم. ان مشروع المسرح الكردي السبعيني تحقق على أيدي فناني السليمانية فاضل الجاف، احمد سالار، جليل زنگنة، عثمان چيوار. ولا أغالي اذا قلت ان السليمانية كنظيرتها بغداد غدت أنموذجا للمسرح الكردي. وهذا ماستؤكده أكثر مرحلة الثمانينات.

من الملفت للنظر خلال الحرب الايرانية العراقية ١٩٨٠-١٩٨٨ تحول مسار المسرح العراقي الجاد الى مسرح تجاري بينما كان المسرح الكردي يسير بخطوات حثيثة نحو الابداع والتفرد والأصالة، مُحدثا ثورة حقيقية على المسرح التقليدي الذي فشل خلال أكثر من نصف قرن في تطوير أساليب اخراجية تُغني المسرح الكردي بتراكيب فنية ذات دلالات ورموز موحية. فبرز في هذه الفترة الى جانب أحمد سالار من السليمانية شمال عمر، كامران رؤوف، بكر رشيد، گه زيزة عمر، ميديا رؤوف، نيگار حسيب قره داغي، احسان فؤاد، ومن اربيل كريم عثمان وفؤاد جلال. فتبلورت الاساليب

الاخراجية على أيديهم، متأثرين بالاساليب الحديثة السائدة في العالم، والتي وصلت اليهم عن طريق مشاهداتهم للأعمال المعروضة في بغداد، سواء للاساتذة المشرفين على تدريسهم او لسواهم من المسرحيين المعروفين الذين اكتسبوا هذه الاساليب بدراساتهم خارج القطر، أو عن طريق متابعتهم الجادة للمصادر الخاصة بالمسرح. فتأثر شمال عمر في اسلوبه الاخراجي بمسرح الثورة المستمدة من اسلوب استاذه الدكتور صلاح القصب والذي استمده بدوره من المخرجة الرومانية ساندوا مانو والذي يقوم على شبكة من التكوينات والاشكال والانسجة المركبة الغامضة كما في عروضه الغوريلا، في انتظار غودو، وماراصاد. وأحمد سالار تأثر بتجربة الفنان قاسم محمد المستقاة أصلاً من تجربة الطيب الصديقي التي تقوم على أساس نصوص حوارية المظهر، درامية الاحداث، وبشكل مسرحي جديد كما في نالي وحلم ارجواني، الصقر يحلق عاليا والجزيري. وميديا ونيگار في (انتظار سيامند) وبكر رشيد في (الغجر) وفؤادجلال في (ساليري وموزارت) وگه زيزه عمر في (شجرة التوت) باسلوب أنتونان آرتو القائم على تجسيد العناصر الدرامية الخالصة التي تؤدي الى القضاء على شاعرية الحدث. وكريم عثمان في (ساليري وموزارت) بنفس اسلوب آرتو ولكن من المنظور الرافض لشاعرية المكان واشاعة الفوضى لما يسميه آرتو بمسرح «القسوة». ومارس منهج ستانسلافسكي الادائي تأثيراً كبيراً على أعمال كامران رؤوف في أغنية التُم، رحلة حسن، والملك لير، واسلوب مايرهولد البيوماتيكي (آلية الحركة) على احسان فؤاد في (الناس والحجارة) وتمخض هذا التبلور عن ظواهر ومعطيات جديدة من حيث مكان العرض، وتوظيف العناصر الدرامية الخالصة (شاعرية المكان) وكسر طوق خشبة المسرح وتجاوزها الى الفضاء المسرحي، وتوزيع تكوينات الكتل في ايقاع هارموني، والتزاوج بين العناصر الفنية وشعرية المفردة او مجموعة المفردات، وأداء الممثل، والتأليف، والاعداد. ان المسرح الكردي بين ١٩٧٠-١٩٩٠ لم يشهد للأسف نكوصا مثل الذي شهده بعد الانتفاضة بسبب إفساح المجال للمنظمات الجماهيرية والشعبية والديمقراطية المنضوية تحت لواء الاحزاب الكردستانية لأنْ تقدم عروضاً متدنية المستوى عبر من لا صلة لهم بالفن عموماً والمسرح خاصة، وكذلك لعزوف معظم المسرحيين الذين كان لهم شأن في بلورة هذه الاساليب عن الاخراج في المسرح الكردي:

ــ احمد سالار: حالياً عضو في البرلمان الكردستاني. وتفرغ لفترة للعمل في وزارة الثقافة وكيلا للوزارة.

ـ شمال عمر: غادر الوطن مع زوجته نيگار حسيب.

ـ ميديا رؤوف: (ابنة القاص الكردي رؤوف بيگه رد) غادرت الوطن مع زوجها المسرحي هادي المهدي.

گه زيزة عمر: بعد زواجها من الفنان التشكيلي المعروف اسماعيل الخياط، تفرغت لتدبير شؤون المنزل.

ـ كريم عثمان: يعمل مذيعاً في التلفزيون.

ـ فؤاد جلال: غادر الوطن.

ـ كامران رؤوف: تفرغ لفترة للعمل في الدراما التلفزيونية.

وينطبق الشيء نفسه على الاسماء العاملة والمعروفة في المسرح الكردي من السبعينات أمثال فاضل الجاف، كاوة أحمد ميرزا، نوزاد مجيد، طه خليل، عمر علي امين، صباح عبد الرحمن، سمكو عزيز، صفوت الجراح، سعدون يونس، طلعت سامان، فرهاد شريف، دانا رؤوف، هوشنك الوزيري، جليل زنگنة، عثمان چيوار، فتاح خطاب، ومهدي ئوميد.

بعد الانتفاضة شاعت مفاهيم خاطئة عن المسرح ادت الى افساد ذوق الجمهور وتمييع القيم الجمالية من خلال عروض طغت عليها الشعارات البراقة والمضامين الآنية حول قضايا الساعة باسم البيشمركه والنضال والانتفاضة والحرية والديمقراطية والشعب الكردي، وباساليب اخراجية على يد الذين يجهلون الف باء المسرح فيما تهافت المسرحيون الحقيقيون للعمل في استديوهات التلفزيونات التابعة للاحزاب وغادر آخرون الى الخارج.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه بالحاح: ترى هل برزت بعد الانتفاضة أسماء شابة استطاعت أن تكون بديلاً للاسماء السابقة وتأسيس اسلوبها الاخراجي المميز.

كانت ثمة آمال على الهرجان المسرحي الأول في السليمانية لاخراج المسرح الكردي من أزمته على يد مجموعة من الشباب أمثال دانا علي سعيد، رزگار امين، محمد صديق، هورين غريب، موفق عارف، وابراهيم چيوار. الاّ أن لا اعمال هؤلاء ولا أعمال غيرهم من الفنانين المعروفين بمن فيهم عرض كامران رؤوف من «رأس المملوك جابر» استطاعوا ان يخرجوا المسرح الكردي من ازمته. وبالرغم من ان مسرحية «الدراويش يبحثون عن الحقيقة» اخراج حسين ميسري قد فازت بالجائزة الاولى الا انها لم ترتق بمستواها الى مستوى العروض المقدمة في المهرجانات السابقة، كمسرحية الغجر مثلا ورحلة حسن

وفي انتظار سيامند وشجرة التوت وغيرها...

ان غياب الذين بذروا الخير في المسرح الكردي سيترك فراغاً يحتاج ملؤه وقتا طويلاً، بسبب عدم تفاعل خبرة الرواد مع تجربة الشباب المحصورة في حدود وامكانيات ضيقة لا تتعدى المنطقة، وهي بأمس الحاجة الى الجديد سواء داخل كردستان على ايدي المسرحيين الحقيقيين او خارج هذا الاطار...

ولاعطاء صورة أوضح عن المسرح الكردي بعد الانتفاضة أورد هنا ملاحظات سريعة عن بعض العروض في المهرجان المسرحي الثالث الذي أقامته وزارة الثقافة بين ٢٠-٣٠/١١/١٩٩٥ بمشاركة ٨ فرق، هي:

ــ فرقة السليمانية للتمثيل: بمسرحية «قصة حب معاصرة» تأليف فلاح شاكر. اخراج حسين ميسري.

ــ فرقة الطليعة للمسرح الكردي: «ئه حه ى كرنو» اعداد واخراج الفنان عثمان چيوار.

ــ فرقة مسرح كردستان: «سه نگه رى مه وگك» تأليف سلافو مورجيك. اخراج سوران عثمان.

ــ فرقة مسرح كركوك: «رغبة تحت شجرة الدردار» اعداد جليل زنگنة. اخراج جهاد دلباك.

ــ جمعية الفنون الجميلة الكردية/ المركز العام: «شروباش گوله شروبو» تأليف جان كوكتو. اخراج الآن رؤوف.

ــ فرقة مسرح ٧ آذار: «من هناك» تأليف وليام ساروريان اخراج درويش عمر.

ــ فرقة آريان للفن: «صبر أيوب» تأليف محمد مسكين. اخراج ارسلان درويش

ــ مديرية الثقافة في السليمانية: «الخادمات» تأليف جان جينيه. اخراج دلير محمد.

ومن الجدير بالذكر ان مديرية الثقافة في السليمانية سارت على نفس النهج المتبع في المهرجانات السابقة من حيث إنعقاد الجلسات النقدية في صباح اليوم التالي للعرض وتشكيل لجنة لتقييم العروض وتوزيع الجوائز على أفضل ممثل وممثلة وأفضل عرض وأفضل ديكور. من بين النصوص التي كنت أحلم بمشاهدتها مسرحية «رغبة تحت شجرة الدردار» ليوجين اونيل الذي قام باعداده الفنان جليل زنگنة واخرجه جهاد دلباك، وأدى دور (كابوت) فيه. أما دور (ايبين) فقد مثله علي كريم بينما قامت ڤيان بأداء دور (آبي). ان معرفة هوية الكاتب من خلال جملة أو شخصية أو حتى حدث ما، ليست مسألة

جديدة كما هو الحال بالنسبة لهذه المسرحية التي حدثها الاساس هو انجاب زوجة الأب من ابن زوجها وخنقها لطفلها بتحريض من عشيقها. لذا فان عدم تنسيب المعد والمخرج هذه المسرحية الى كاتبها أونيل لا يقلل من شأن عملهما الفني، اللهم عدم تجسيد نبعه الفلسفي الذي مؤداه: «ان الانسان خاطىء لا محالة ولكنه يملك ان يسمو بالندم عن الخطيئة».

يقول البروفسور الاداريس نيكول: ان المسرحية تنقصها تلك الخصائص الميتافيزيقية التي هي قادرة وحدها على خلق التراجيديا الحقة. ان المجرم الحقيقي في هذه المسرحية هو كابوت الاب العجوز وليس آبي زوجته وايبين ابنه، فقد امتص الرحيق من حياة ولديه بيتروسيمون شأنهما شأن ايبين، ويحذفهما المخرج من العرض، مع ان حواراتهما تعد استهلالا للتعرف على الحدث الاساس وصراعاتهما مع والدهما، لينتقل مباشرة ، بعد اضافة مشهدين استهلالين في تكوينات صورية، الى العلاقة التي تجمع بين ايبين وآبي. كما انه لم يعمد الى تجسيد مناجزته لايبين ومقاتلته له، ليبقيه في مكانه الذليل أبداً. وأستغنى عن ذلك بأمرأة تجر عربة، ربما هي اشارة الى والدة ايبين ورمزٌ لسحب كل شخصيات المسرحية نحو الطهارة والنقاوة، بدليل ان ايبين المتكئ على الصليب الذي يوحي بنفس المفهوم ينساق وراء والدته ويتلفح بعباءتها البيضاء، لكن ضمن السياق العام للعرض يتغير هذا المفهوم ليصبح ايبين وآبي المجرمين الحقيقيين والاب العجوز ضحية طيشهما ونزوتهما العابرة. وذلك من خلال مشاهد الدم والفزع والعواطف الفوارة التي جسدها المخرج في دواخل هاتين الشخصيتين وفجرها عبر ردود أفعالهما. فبدا انهما أقرب الى شخصيات شكسبير منها الى شخصيات أونيل. ان هذه المسرحية كما يقول نيكول: ليست مسرحية مأساة الا ان بناءها المحكم وحوارها الذي يرتفع أحيانا الى مرتبة الشعر وعواطفها الجياشة الدافقة والصراع الحاد الذي يدور بين شخصياتها بعضهم مع بعض وبينهم وبين البيئة غير المؤاتية التي يعيشون فيها. كل هذه العوامل تجعل رغبة تحت شجرة الدردار مسرحية قوية حقاً ولكنها لا ترفعها قط الى مرتبة المأساة.

قبل أن أشاهد مسرحية (ئه حه ى كرنو) اعداد واخراج الفنان عثمان چيوار همس اكثر من فنان بأنها تقع ضمن المسرحيات التجارية، ولكنني لم المس فيها ما يوحي بذلك. ففي هذا المهرجان شاهدت عرضاً واحداً فقط من المسرح التجاري وهو عرض مسرحية «صبر أيوب» اخراج ارسلان درويش، مما دفعني الى أن اتساءل مع نفسي عن السر

الكامن وراء محاولة الاساءة لمسرحية ئه حه ى كرنو التي استمر عرضها اكثر من اربعين يوماً. فهي من المسرحيات الشعبية «فن الحكواتي» الذي هو الصورة الشعبية المتأخرة زمنياً لرواة كانوا سابقاً يتنقلون في الاسواق ودور الندوة وحيثما يتجمع الناس لكي يرووا حكاياتهم وينقلوا مشاهداتهم وماسمعوه او رأوه من غرائب وبطولات، كما هو حال حاكينا هذا الملقب «ئه حه ى كرنو» وهو يعود بنا الى عام ١٩١٥ حيث كان ممثلاً قديراً يجسد مآثره ويقلد مآثر غيره من الناس الذين عاشوا في زمانه. ويعتبر المقهى بالنسبة لفن الحكواتي أنسب مكان للعرض. فأعده المخرج اعدادا يشبه الطقس التمثيلي فجعل الحاكي في موضع مرتفع ليكون على مرأى ومسمع من الجميع وجعله جزءاً من الجلسة، ومنحه فرصة تغيير أدواره من شخصية الى اخرى ومن مشهد الى آخر ومن زمان الى زمان تتصاحب في الحضور شخصيته الحقيقية والشخصيات التي يتطلبها. ولم يبدأ العرض بانقطاع زمني وتقسيم مكاني كما في بداية أي عرض تقليدي، وتم التواصل والتلاحم بين الممثلين والمتفرجين بالانتماء المشترك الى التراث واقترب الاداء من الطابع المرتجل الذي يبدو في ظاهره عفوياً وتلقائياً على الرغم من تبعيته لنص مكتوب.

يبدو ان عدم ارتياح الوسط الفني في السليمانية لهذا العرض كان نتيجة المشاهد الكوميدية التي أحتوته، علما ان الحكواتي يلجأ الى استخدام هذه الوسيلة في بعض الاحيان كنوع من التهدئة الضاحكة من التوتر الذي تخلقه حكاويهم عندما تسبي أذهان المستمعين وتأسر قلوبهم. ومن المفيد أن أذكر هنا بأن عروض فرق مسرح الحكواتي المنتشرة في الدول العربية لا تخلو من الفكاهة والكوميديا، اعتقادا بانها الوسيلة الايسر نفاذا الى نفوس المتفرجين. فتراها تغلف المرارة بالضحكة والسخرية الهادفة. والممثل في هذه الفرق متكامل المؤهلات والصفات قادر على ان يرسم بالحركة ويعزف بالصوت ويكتب بالصمت. وهو مسرح جاد ويحتل مكانة بارزة ومازال الجهود حثيثة من أجل تطوير هذا المسرح في الدول العربية بما فيها العراق. لندعم هذه التجربة الفنية الوليدة عندنا شأن حرصنا على التيارات والاتجاهات الاخرى بهدف تأصيل المسرح الكردي.

مايرسمه المخرج في ذهنه ويطمح الى تحقيقه في العرض المسرحي لا يستطيع أن يوصله الى ذهن المتلقي وفق اجتهاداته وتفسيراته ما لم يأخذ بنظر الاعتبار مدى استعداد المتلقي لفهمه وتفسيره، كما كان الحال مع عرض الفنان سوران عثمان في

اخراجه لمسرحية «سه نگه ری مه رگك» وهو يلجأ الى استخدام اطارات السيارات كدلالة على توقف الزمن وعزلة شخصياته عن العالم الخارجي، الاّ اذا كان يسعى الى تقديم حالة تغريبية ولا اقول عرضاً بريشتياً، من منطلق الخروج على المألوف في الفعل المسرحي الى اللامألوف، الاّ ان هذا الاحتمال لاينطبق على هذا العرض لما أتسم به من اخراج بأساليب المسرح الارسطي. صحيح ان الدائرة ترمز الى الانغلاق والعزلة، غير ان هذا الرضى في حالة حركة دائبه. فثمة متنفس واسع لنجاة شخصياته والخروج من مأزقهم وليس كما صوره المخرج باتجاه قتل احد الجنود الثلاثة انقاذاً لحياة الآخرين.

لقد استخدم كامران رؤوف هو الآخر في عرض مسرحيته «الخراب» الدوائر للترميز الى نفس المفهوم، ولكنه لم يوظفها كدلالة قابلة للاجتهادات والتفسيرات التي تتسم بالمرونة والمطاطية، وعندما أراد أن يفك أسار شخصيته منها، لم تنفك بفعل لامبرر له، وانما باسلوبه الاخراجي المتمثل باسلوب فاختانكوف في الواقعية الخيالية إقترانا بفانتازية الواقعية السحرية لماركيز في رواية «مائة عام من العزلة» تحديداً بشخصية (ريميديس) وهي تسبح في الفضاء أثناء نشر الغسيل، فاستطاع تقديم الحل المقنع لمعضلته في استخدام الدوائر.

فالاسلوب الارسطي المتبع في عرض الفنان سوران، أو هذا الاسلوب بحد ذاته لتحديد سماته الزمكانية بالاضافة الى الفعل المسرحي لايمكن ان يتجاوز الإطار الذي يغلفه. واذا كان المخرج يظن بأنه قد أقنع المتلقي بأن دالته قد أدت الغرض المنشود منها لكونها مفردة نصف دائرة وليست دائرة كاملة، كما عرفنا منه في الجلسة النقدية المكرسة لمناقشة عرضه، فان مثل هذا القول لايضيف شيئاً الى ما تم تجسيده امام المتلقي في كومة من اطارات السيارات الدائرية.

اما في مسرحية «قصة حب معاصرة» تأليف فلاح شاكر، فقد اختار المخرج حسين يسري نصا يتناول موضوع الساعة، تسير أحداثه وتتحد ضمن اطار الهجرة الى خارج البلد في الصراع الدائر بين الزوج المتحمس لمغادرة الوطن والزوجة المتشبثة بالاحلام التي عاشتها فيها. والنص كما يبدو ولخلوه من الاحداث المتشعبة واقتصاره على شخصيتين ولما يشع من أجواء تتسم بالتراجيكوميديا بدا قريبا الى روحية تشيخوف وفودفيلاته القصيرة، بغياب سمة المأساة من العرض والاكتفاء بالتعرف على نتائجها وحضور الكوميديا الخفيفة عن طريق التداعي والعودة الى الغابر.

ان المفردات الموظفة في هذا العرض بلغت من البساطة جدا جعلها تعبر بنفسها عن

ثيمة المسرحية. فاذا كانت الحقائب المتكدسة في يمين المسرح دلالة على اصرار الزوج على مغادرة الوطن، فان مواد الزينة الموضوعة في يسار المسرح الخاصة بالزوجة دلالة على تشبثها بالوطن. ولعل تقسيم المسرح الى هذين النصفين ينطوي على دلالات في فهم موقف الزوجين وهناك أكثر من دلالة اخرى تشير الى ان موضوع المسرحية هو موضوع الهجرة، كالقميص النازل من اعلى سقف المسرح والمثلث الكبير في الوسط الذي تعلوه علامة استفهام موحيا بالهجرة كمفردة مستخدمة لتعليق الملابس ومدلول يطرح السؤال عن اسباب هذه الهجرة.

ان الفوضى المتعمدة التي بثها المخرج في عرضه من خلال تكديس مجموعة كبيرة من الحقائب اشارة واضحة الى الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية غير المستقرة التي يعاني منها الشعب العراقي عموماً، هذه الحالة تحفز الفرد لأن ينتهز أية فرصة ليحزم حقائبه لمغادرة الوطن، كما حدث في الضربة الاخيرة للعرض عندما توقظ الاصوات الزوج النائم استعدادا لذلك. وتصيح الزوجة بذعر: «لا... دعوه ينام...» ثم ينتهي العرض.

أدى دور الزوج الفنان الكبير كامران رؤوف ودور الزوجة الشابة كويستان محمد التي أراها لأول مرة على خشبة المسرح. وقد أفرحني المخرج حين أسند هذا الدور لفتاة أستطاعت فيه أن تبز أداء كامران وأحيانا تطغى عليه. وما أفرحني اكثر هو ان الفراغ الذي تركته ميديا ونيگار ستحتله غيرهما بجدارة وتفوق.

وفي مسرحية «شه وباش گوله شه وبو» تأليف جان كوكتو، اخراج الآن رؤوف ذات الشخصية الواحدة (المونودراما) جاء أختيار المخرج لممثلته مخيبا للامال لأفتقارها الى المرونة الجسمانية الواجب توفرها في مثل هذا النوع من المسرحيات، ومما زاد من هبوط العرض اعطاء الممثلة رقعة واسعة من المسرح للتحرك عليها والتعامل مع مجموعة كبيرة من المفردات المسرحية ابتداء من السريرين ومروراً بالهاتف وانتهاءً بالنافذة والمنضدة والباب الخارجي. ذلك ان قضية المسرح لدى جان كوكتو لاتكمن في الديكور بقدر ماتكمن في الاخراج بالمعنى الحقيقي للكلمة. باب يفتح ويدخل الشقاء. شباك يغلق وتبقى السعادة. انه ثورة تفتح الباب على مصراعيه امام مستكشفيه في مجال المسرحية الخيالية. الرقص والاكروبات والتمثيل الصامت والهجاء والعزف الاوركسترالي والكلمة، كل هذا يظهر في مسرحه بشكل لم يعرف من قبل. انه فارس تجريبي وان كان تعبيراً تشكيليا عن الشعر. لهذا فان استخدام الديكور الواقعي في

عروض كوكتو يتنافى مع فهمنا لمسرح هذا الكاتب وبالذات مسرحيته هذه الكثيرة الشبه في موضوعها بموضوع مسرحية «في انتظار غودو» لبيكيت من خلال انتظار الزوجة لزوجها الذي لا يأتي...

المصادر

(١) ـــ في الملتقى المسرحي الاول المنعقد بمدينة السليمانية للفترة من ٢٥-٢٨/٦/١٩٨٨.

(٢) مجلة كاروان، العدد ١٨.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٥) نفس المصدر فيما يتعلق بعروض السليمانية، عام ١٩٧٠.

(٦) في ندوة تلفزيونية عن مسرحية الخرابة تناولتها بنفس الاتجاه.

ملاحظة

عُرضت المسرحيتان الفائزتان بالجائزة الاولى بعد انتهاء المهرجان في اربيل وهما «قصة حب معاصرة» اخراج حسين ميسري و «الخادمات» اخراج وليد محمد.

قراءة نقدية في:

رواية جنان حلاوي «ياكوكتي»

(١ من ٢)

د. حسين كركوش

«وإنها لكوابيس حالكة السواد، كثّة اللحى والشوارب، مدججة بالسلاح، تحرس دخولنا وخروجنا عند هذه البوابات، تتفحص هوياتنا وتتفرس في ملامح وجوهنا البريئة، نحن العليلين الراعشين ــ الشغيلة والصعاليك والشحاذين وصباغي الأحذية والمقامرين والمومسات والسماسرة واللصوص والباعة المتجولين ــ قدمنا من البوادي والحقول والمقابر والأكواخ والسجون والمحاجر والسراديب والغرف الواطئة والمدارس الرطبة والحارات الضيقة والشناشيل وعباءات الأمهات وأخمرة الجدات وثياب العشيقات وأفرشة العائلة المشتركة. من كل ثقب، من كل جُحر ومكان، قادمون، خارجون، أبرياء، أشقياء، سعداء...»

محمد خضير، بصرياثا، ص ٢٦.

أهمية العنوان والجملة الاستهلالية في ياكوكتي

لعنوان رواية ياكوكتي وللجملة الاستهلالية فيها أهمية استثنائية هي بمثابة المفتاح الرئيسي الذي ندخل بفضله إلى عالم هذه الرواية ورؤية مؤلفها للكون والتاريخ والحياة. فالعنوان يتطابق بشكل مدهش وبكثير من الأصالة والتفرد مع محتوى النص الروائي؛ أو على الأقل يتطابق مع الفكرة الرئيسية في الرواية، عنيت بها الغربة الانسانية، بمعنييها الروحي والجغرافي. واذا كانت بعض شخصيات الرواية لم تعلن

صراحة كيف تعذبها هذه الغربة وتدمي روحها، فإن بعضها الآخر يعلن ذلك بمرارة، مثلما يتطوع أحياناً الراوي ــ المؤلف نفسه بالاعلان أيضاً، فيقول الوحّدة هي كائن بشع بأذرع محرشفة، قاتلة ينمو (داخل الانسان) يحول الصور إلى رماد والرماد إلى هباء[1]. وإذا كان هذا ما يقوله الراوي، فإن الشابة غصون تعلن بمرارة: «الوحدة تقتلني. لاتتركني، الوحّدة تقتلني، خلصني من نفسي. خلّص نفسي من وحّدتي» ص١٩٥. أما الشيخ ايبارا فيحدثنا الراوي بهذه الطريقة عن الوحدة التي تدمر حياته: «ضائع بين الحكم التي رسختها العزلة، والعذاب الذي أملته العزلة ذاتها عليه. أين الناس؟ ماتوا، وأينهم؟ ولدوا وقتلوا ورحلوا. . .» ص ٢٢٣.

وإذ نبدأ الرواية فإننا نرى أن جملتها الأستهلالية تأتي لا لتسند مايرمز اليه عنوان الرواية فقط، وإنما لتبذر منذ السطور الأولى معظم المواضيع الأساسية التي سيعالجها المؤلف: الغربة، القهر، الاستلاب والعبودية؛ سنجد في الجملة الاستهلالية أيضاً الايقاع السريع اللاهث والنبرة الحادة اللتين ستطبعان صفحات الرواية. وسنجد أيضاً تطابق غير مفتعل بين الجملة الأستهلالية ونهاية الرواية، وهو تطابق يدلّ على تماسك هيكل الحكاية في الرواية. ومابين السطور الأولى والأخيرة في الرواية، فإننا سنجد ان ماورد في الجملة الاستهلالية سيتكرر بهذه الصيغة أو تلك، بل إننا سنجد بعض المفردات وهي تكرر نفسها، ناهيك عن الأفكار، أو عنوان الرواية ذاته.

تبدأ الجملة الاستهلالية بكلمة «الليل» ولاتنتهي إلا بكلمة «خطر» هكذا: «الليل ذلك الاختفاء الغامض في الزوايا والأركان والغرف، ذلك الذوبان في الظلام والتستر خلف النوايا الشريرة، والأماني العاطلة، والدوافع الماكرة، أو المخلصة الخيرة التي لاترى أو تبين لذلك المتعجل الذاهب الذي تطويه العتمة، أو للنائم على الرصيف مثل مسلة سومرية دمرها غزاة عابثون، أو للأغراب القادمين من مدن أخرى، للأجانب الباحثين عن لحظة لذّة، للبحارة المسكونين بالمغامرة والكبت الجنسي، للشرطة وحراس الشط وهم يبحلقون بحيوانية فائقة في أرداف راقصات ملهى (ليالي البصرة)، إذ يعبرن الشارع إلى غرفهن في بيت على الشط. . .

كل الأشياء الساكنة، الرابضة منذ زمان غابر، تضمر الان، نيّة مبيته، تخبئ سراً، تبعثه ليلاً، فيختلج به الهواء والسكون وتضطرب له النفوس. . . إنه عالم مسجون من الرغبات يعج ببصمات أناس ماتوا، وأنفاس نساء قتلهن الحب أو العهر، وأقدام عراة، وحفيف ثوب موشى بالدنتيلا وملمس شراشب طربوش، ورنين زر نحاسي يسقط على

بلاط الشرفة، وتكتكات رقاص ساعة من خشب الأبنوس وشقشقات طيور (الفاختة) تترنم فجراً (ياكوكتي): (وين بتي، بالحلة، وشتاكلين، باكلا)، وحوار خافت لشيخ يحدث نفسه، يراجع ذاكرته، وخطوات خادمة زنجية تطل على الشارع تطلق أصواتاً مبهمة ثم تذوب داخل زخرف شرفة قصر، منيف. كل الأشياء الجامدة، الان، تحكي، تتكلم، تمارس حياتها، ونواياها خلف حجاب أسود، وضباب سحري يغللها بالحذر والريبة، والشر يدب مثل أخطبوط استيقظ تواً نافثاً حبره السام باثاً عيونه الراصدات بثقة وتلوٍّ مرن». ص ٢٥-٢٦.

إن رواية ياكوكتي ستخرج كلها من هذه الجملة الإستهلالية، مثلما خرجت جميع روايات أراغون من الجمل الأولى في رواياته، كما يؤكد هو(٢).

لنبدأ الان بعنوان الرواية. في هامش ١ ص ٢٦ يعطي جنان حلاوي هذا الايضاح: «الكوكتي هديل طيور الفاختة الحزين الذي يوقظ الأطفال كل صباح فيترنمون به، وينادون الطيور (ياكوكتي). هذا الايضاح مفيد للقارئ الذي لايعرف جيداً الفولكلور العراقي أو الأساطير والخرافات العراقية. وهو أيضاح قد يحتاج إلى تكملة لم تتم على يد الروائي لأنه ربما افترض ــ وهو على حق اذا كان ما نقوله صحيحاً ــ بأنه ليس مجبراً أن يشرح للقراء والنقاد كل مايكتبه في روايته.

الكوكتي هو هديل طيور الفاختة الذي يتسم بالحزن والفجيعة. وهذه الفجيعة ترتبط بغربة ووحدة وقلق ومعاناة جميع الذين وجدوا أنفسهم في «مصيدة بشرية... الضالين... الأفاقين والمشردين» ص ١٣٩. هؤلاء يرددون في غربتهم، مثلما الفاختة: ياكوكتي، وين بتي، بالحلة، وشتاكلين، باكلا وشتشربين ماي الله.

ماي الله وسماء الله وأرض الله هي التي تحتضن الغريب في غربته. وفي أرض الله الواسعة هذه يبحث الغريب، أعزلَ ومخذولاً، عن موقع قدم يقف عليه، لايظلله سند إجتماعي أو عقائدي دوكمي أو اقتصادي أو عرقي. لاتظلل الغريب غير سماء الله، ولايغسل هموم غربته ويبقيه حياً، روحياً وجسدياً، غير ماء الله. ألم يخلق الله من الماء كل شيء حياً. وليس صدفة أن يكون الماء ــ سنرى فيما بعد، الظلام أيضاً ــ هو الحاضر الأكبر من بين عناصر الطبيعة في رواية حلاوي. الماء هو الذي لايموت. موته حياة. عندما يتحول الماء الى بخار فانه يعود ماءً ثانية. الماء هو الوحيد من عناصر الطبيعة الذي لايمكن أن يتلوث للأبد، لأنه متحرك ولأنه يملك بذاته قدرة على غسل أوساخ البشر وأدران الطبيعة وأحيائها. الماء في رواية ياكوكتي ملاذ وصديق والأصل

والرحم الذي خرج منه البشر والمعيار الأكبر الذي يوحد جميع الأجناس البشرية ويؤكد أمميتها أيضاً. فعندما كان الزنجي سلمان يتأهب لسرقة البحارة الهنود، شعر بالأطمئنان وهو وسط الشط: «الشط زنجي أكبر فهو أبوه، أو أحد أجداده، أحشاء الشط هي أحشاء أجداده، من عصارة دمهم، أصلهم ماء، وأصله ماء» ص٥٧. وعندما كان جد سليمان يتأهب، هو الآخر، للسرقة، لاذ بالشط وبمائه لأن: «النهر صديقه يدغدغه بأعشابه، ويضاحكه. النهر حاميه لأنه أبوه، غرف منه، غسل وجهه». ص ٨٢. ومثلما يخلق الماء الحضارات البشرية بقوانينها العادلة والظالمة، فإنه يمحقها أيضاً، وعند هذا الموت ـــ الطوفان يتساوى الجميع أمام حضرة الماء، عندما «تتوالى الانهيارات، تستمر، تندفع إلى المياه، إلى قدرها الأبدي الذي لاتحيد عنه»ص٢٥٤.

الماء، ماء الله، هو الذي يجعل الحضارات تحيا، ويجعل الغريب حياً، مثلما في أنشودة الفاختة. هذه الشظية من الفولكلور العراقي، أعني ترنيمة الفاختة، ألتقطها جنان حلاوي موظفاً أياها عنواناً لرواية عراقية، تعالج هموماً عراقية، ولكنها تطمح أن تعالج أيضاً هموم البشرية كلها، بعد أن أرتكب جدها الأكبر آدم خطيئته الكبرى فهامت بعده ذريته في التيه والعراء. وربما لهذا الهدف جمع جنان حلاوي في روايته أجناساً بشرية متنوعة، تعاني كلها من الغربة، بعضها يعرف جيداً أنه منبوذ فيركن لقدره، ويغالب آخرون.

ولو عدنا إلى الجملة الاستهلالية لوجدنا فيها مايرشدنا إلى هذه «الثيمة»، أي الغربة الانسانية، سواء تعبيرات واضحة محددة أو صور واستعارات أو شخصيات بعينها. نجد مثلاً: الليل. الاختفاء الغامض. الذوبان في الظلام. الأماني العاطلة. نجد أيضاً: المتعجل الذاهب. النائم على الرصيف. غزاة عابثون. أغراب. أجانب. راقصات ملهى ليالي البصرة. عالم مسجون بالرغبات. نساء قتلهن الحب. حوار خافت لشيخ يحدث نفسه. هذا الشيخ (إيبارا؟) وهؤلاء الغرباء ومعهم ـــ سنجد بعد ذلك ـــ شخصيات كثيرة في الرواية، لايقترن وجودهم بالصخب والأنوار والبهرجة، حيث القوة والاطمئنان واليقين رسوخ القدم والثقة بالنفس وادعاء الوضوح والمعرفة، إنما يقترن وجودهم بالعتمة (لاننسى أن الرواية تبدأ بكلمة ليل) حيث الاستلاب والقهر والحيرة والتردد والانكفاء نحو الذات وتدميرها. وعكس هؤلاء، فإن الشخصيات القوية المتنمرة في رواية ياكوكتي يرتبط وجودها بالاضواء والبهرجة.

يقول جان جينيه في كتابه «مذكرات سارق» وهو سيرته الذاتية التي يتحدث فيها

عن أولئك البؤساء الذين قادتهم تعاستهم الى السجون، حيث العنف والاحباطات الجنسية والعاطفية «إن لهؤلاء الناس لغة تخاطبهم الخاصة بهم، وهي لغة لا تُكتب، إنما تسمعها الآذان بوشوشة تلفظها أصوات متعبة ليلاً. وعندما يحل الصباح ينسى الجميع ما قالوا(٣). لأنهم سيكونون في النهار أمام زعيق الحياة وقسوتها الصاخبة. وهكذا هي شخصيات حلاوي، تطمئن في الليل وتقوم بأفعالها في العتمة. والواقع، أنها ليست أفعالاً بقدر ما هي تأملات يخلقها ويقودها الاحباط، وللاحباط تعود. ولأن الليل «مغارة السكون» ص١٣٥. فإن هذا السكون وهذه الطمأنينة المؤقتة تحول «الليل صديق» ص١٤١. وتجعل منه «صندوقا لجنون الرغبات»ص ١٤١، رغبات الغرباء المهجورين الذين لا يجدون مأوى للروح والجسد في واقع الحياة اليومي، الضاج بالقهر والممنوعات والقوة. وحتى إذا تجرأ هؤلاء الغرباء للظفر بحريتهم وتبديد غربتهم فإنهم يلجأون إلى الليل. هذا هو علي الأعرج، وهو أشجع شجعان الرواية، يستمد قوته بوجه مطاردة الشرطة له، من الليل: «انا قوي بليل كهذا»ص ١٤٣. أما اولئك الغرباء، الوحيدون الذين لايجدون شجاعة علي الأعرج، وهم كثيرون في رواية ياكوكتي، فإنهم يفرون من ذواتهم لذواتهم في الظلام، لأن «في الظلام لايمكن للوحيد إلا أن يرى الحقيقة الكلية الشاملة، والأسرار الدفينة للذين يبدون صريحين واضحين صباحاً... تفووو... على النهار» ص١٨٢. هذه الـ (تفووو) التي يبصقها الراوي ـــ المؤلف، ليست على النهار حقاً، إنما على اولئك الذين تتجمع بأيديهم كل مفاتيح القوة بأنواعها: سياسية، أقتصادية، أجتماعية، عرقية... الخ. هؤلاء يسنّون قوانينهم ويطبقونها نهاراً. فـ «الباشوات لايخافون ولايعاقبهم أحد» ص٨١. لذلك يقومون بأفعالهم وسط النهار ووسط البهرجة والأضواء. ففي الوقت الذي «يطمئن به داوود الزنجي لساتر الظلام» ص٨٠. فإن الباشوات يعيشون في أنوار الشر وبهرجته، «متوهجاً بالأنوار كان الجسر: أنوار المصابيح والشموع، والمشاعل، جسر من نار، وضياء، حتى بدت المياه تحته مطلية بذهب وهّاج، أو لربما أشعلوا الماء، ونوروا قاع النهر بالأضواء السحرية... كل شيء كان مشعاً: أعمدة بيوت الباشوات أسطوانات تبرق بوميضات ذابلات الشموع والفوانيس ومظلات السقوف العالية، تشرع شراشبها النورانية». ص٨٢. ومثل الباشوات، فإن الانكليز الذين أحتلوا العراق وكان أحدهم مثل (إله) ص١٧٧. ينجزون أعمالهم في وضح النهار، يستمدون ثقتهم من القوة التي يهتفون لها: «تحيا الملكة. يحيا الملك. المجد لرجال الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، رجال بريطانيا العظمى»

ص١٧٨. وإذا كان الباشوات والأنكليز صريحين فيقومون بأفعالهم نهاراً، فإن أستاذ محمد ـــ وهو نذل الرواية بحق ـــ الشيوعي السابق والنادم فيما بعد، الذي «يبدو صريحاً وواضحاً، هو الآخر ينجز أعماله عندما «سطح البيت مشمس، والجو صحو» ص ١١٥.

أستاذ محمد والباشوات والانكليز هم الذين «يتسترون خلف النوايا الشريرة» والرواية تضع قطيعة شاملة بين هؤلاء وغيرهم من «أصحاب الأماني العاطلة». و (أصحاب الأماني العاطلة) كثيرون في رواية ياكوكتي: الزنجي سلمان العبد، الزنجيات الخادمات، الراقصة الفيليبينية، الهنود النائمون على سطح مركب (البوم)، سالم نو، محمود الطباق، غصون، حالوب، وحتى الشيخ ايبارا وعلي الأعرج. فهم في نهاية المطاف، من أصحاب الأماني العاطلة.

الزنجي سلمان العبد والراقصة الفيليبينية والبحارة الهنود هم اول من يظهر في الرواية. بعدهم يظهر سالم نو، غصون والشيخ ايبارا وعلي الأعرج. المجموعة الأولى تعاني من غربة جغرافية وروحية. أما الثانية فتعاني من غربة روحية. هم غرباء داخل مجتمعهم. ومن بين المجموعة الأولى، فإن الراقصة الفيليبينية هي أول من يظهر، كالتالي: «أشتعل ضوء أحدى غرف الراقصات الفيليبينيات ثم انطفأ: قد تكون إحداهن تبحث عن قرص منوم، أو ربما أرقها السكون. . . أصابع الدبق تتلمس أبطها. خيط عرق يدغدغ صدرها مثل سرب نمل نعسان، يتعثر في مفرق نهديها الخافقين ببكاء صامت. تتمتم: مالذي أتى بي إلى البصرة/ إلهي.. مالذي أتى بي إلى البصرة؟» ص٢٨–٢٩.

عندما «تغفو الراقصة الفيليبينية في الحمام تحت ماء الدوش»، يقفز أحد الهنود النائمين على سطح مركب (البوم) ينزع (وزرته)، فيمسح صدره بها ثم يستلقي شابكاً يديه خلف رأسه. أرق مفاجئ. يتطلع إلى بيت الراقصات، يقول لنفسه: حرارة. . . أظنها قادمة من بلدي، أف. حرارة خانقة. . . البصرة، متى نغادر هذه المدينة الملتهبة» ص٣٢–٣٣.

ليست حرارة الطقس هي التي تؤرق هذا الغريب، فهو قادم من مدن لاتقل حرارة عن طقس البصرة. ما يؤرقه هو حنينه إلى الجذور التي تركها وراءه. ولتلك الجذور، فإنه يغني الان، مغالباً أرقه: «هنالك في البنجاب/ بحثت عن الحب، تحت أشجار الجوز/ تحت السماء الزرقاء../ هناك في البنجاب قررت الرحيل/ باحثاً عنها.. في البحر بعيداً» ص ٣٢.

بعدهما، يظهر سلمان العبد الذي، إستناداً إلى نشأته ولغته وذكرياته، من اهل البصرة، فيها ولد وآباؤه وأجداده الأقربون. لكن سلمان من الناحية التاريخية، جلب، وقبله أجداده الأبعدون من افريقيا. وظل سلمان غريباً في مجتمع البصرة. لونه الأسود علامة فارقة تشعره بغربته دوماً: «أولاد الزنى البيض يضحكون عليه (...) فهو أضعف منهم. فهم قادرون على ضربه أو زجه خلف قضبان السجن، وربما قتله» الصفحات ٣٩-٤٥. وحتى إذا تجاوز سلمان العبد عقبة لونه، ولو مؤقتاً، فإن «أسر وعوائل الزنوج الباقية الان تزويها الأكواخ القصبية» ص١٤٠. ستشعره دوماً بدونيته وهامشيته وغربته. ولهذا فإن كل شيء يُذكر سلمان بغربته: «الشط زنجي أكبر فهو أبوه. القمر زر لماع في سترة الليل، الشهب نبوءات الأنبياء السود، والأشجار شواهد قبور الزنوج والأسماك أطفال السود القادمين من أفريقيا... والنهار كذبة الليل، وكل أذان هو صوت بلال الحبشي، والحجر الأسود، حجر الله» ص٥٧.

ومثلما على خشبة المسرح، يقدم المؤلف غرباءه واحداً بعد الآخر. لايقدمهم لكي نتعرف على همومهم اليومية الحياتية التفصيلية؛ فهذه ليست مهمة لهم ولا حتى للمؤلف. ولايقدمهم لنتعرف على مسراتهم وإفراحهم، فهم لايملكون منها شيئاً. جنان يقدم غرباءه ليؤكد على محنتهم الأعظم، أي على غربتهم وأستلابهم. وهكذا، عندما ينتهي من المجموعة الأولى، يعمد الأن لتقديم المجموعة الثانية، مفتتحاً اياها بشخصية سالم نو. انه إبن البصرة، لكنه ليس إبنها. إنه «ملاك» ــ هكذا يصف سالم نفسه ــ وسط شياطين. ولكي يتغلب هذا الملاك على غربته ولو مؤقتاً، ولو بالحلم، ولو بالوهم ولو بالخيال ولو بالأماني العاطلة، فإنه يعاقر الخمره. سالم نو الذي نراه ثملاً أمامنا يردد مثل نبي دون دعاة أو متنبئ لايجد من يصغي إليه: «سيأتي الشط إلى هنا، وتغرق البصرة، لتغرق، ماشأني، سأسبح، يموتون أفضل. كلما رحلت الشياطين أرتاحت الملائكة» ص٦٢. هذه هلوسة، وهذا كابوس تغلفه لذّة انتصار وهمي، هو الهزيمة بعينها. وسط هذا الكابوس يعلن سالم نو، نادباً ونائحاً، عن غربته، مردداً أغنية قديمة لصديقته الملاية: «يا الله يمجرى الماي ذبني عليهم / من ايديهم.. من ايديهم رحنه/ من ايديهم.. ماتنفع الحسرات».ص٦٢.

نعرف، أو على الأقل نفترض أن غربة سلمان هي بسبب غياب الصلح الروحي مع المجتمع الذي يحيا فيه. ولكن الحنين لمن؟ أيدي من تلك التي ضاع منها سلمان؟ لأي ماض يحن؟ هذا ما لايقوله سالم نو ولاتقوله الرواية.

فنياً، لم تقدم لنا الرواية، سواءً الراوي أو سلمان ذاته، أي تلميحات عن حياة سالم نو وماضيه. لانعرف لسالم أهلاً يحن لهم أو علاقة عاطفية مع حبيبة هجرته أو زملاء عمل أو رفاق درب أفتقدهم أو مرتع صبا عاش فيه طفولته ويحن إليه الآن. الرواية تقدم سالم نو مثل غصن قطع من شجرة الحياة.

فلأي ماض يحن هذا (الغريب)؟ نفترض ــ وصفحات الرواية القادمة تشجعنا على هذا الافتراض ــ أن سالم نو يحن لأيدي جده آدم قبل أن يرتكب هذا الأخير الاثم الأكبر، أي قبل «نزول آدم من حضرة الحضن المقدس في الجنة» ص١٤٥. آنذاك لم تكن هناك غربة أنسانية تسببها فوارق عرقية واقتصادية وسياسية واجتماعية؛ آنذاك مامن مكان لأي تابو أو ممنوع؛ آنذاك «ماكان آدم يعرف القلق ولا كانت حواء تعرف غشاء البكارة لذلك عاشا سعيدين» ص١٤٦. سالم يحن لتلك السعادة المفقودة، يحن «لبكارة الماضي» ص١٤٦.

وقبل أن يوعز المؤلف لسالم نو ليغادر خشبة المسرح، فإنه يعمد، هذه المرة، لتأكيد الجانب الفاجع التراجيدي، وإذا جارينا مفردات ياكوكتي، فنقول (الجانب الخرائي) لغربة الانسان: «تقيأ (سالم نو) داخله سال بوله بين فخذيه. صارت بطنه خفيفة ــ ضرط. . . خيول البول تنمل ساقيه. . . بوله مخاضة يخوضها، كومة القيء جزيرة مخربشة على بلل الاسفلت» ص٦٣. وسط هذه المخاضة البائسة التي أسمها الحياة لايستطيع سالم نو أن يعوم، أن ينقذ نفسه. لايستطيع أن يردد حتى ولو وهماً، مثلما ردد بعده علي الأعرج والشرطة تطارده « أنا مارد في مخاضة لاتصل أطراف ردائي» ص١٤٣. كل ما يستطيع أن يفعله هو تحذير الاخرين، خاصة أبناء موطنه، من مصيره الفاجع. صرخ سالم بالبيوت: «آخر انذار، عليكم بالقوارب ومن يتقن العوم فليلحقني. يا أهل البصرة، أيها النيام إن لم تستيقظوا ستشبعون نوماً إلى الأبد» ص٦٣.

هل هذا حقاً تحذير سالم؟ هل يستطيع هذا الشبح الآدمي المطوق بالبول والخراء أن يردد تحذيراً مسؤولاً كهذا؟ أم هو تحذير المؤلف نفسه؟ لو حاكمنا سالم نو كشخصية تنطبق عليها المواصفات الفنية، مثل أي شخصية روائية اخرى، نستنتج أن مايقوله سالم نولا يتلاءم قط مع تكوينه النفسي والثقافي كما صورته لنا الرواية. أن تحذيراً خطيراً كهذا لابد أن تطلقه شخصية روائية خطيرة أيضاً. وهي صفة لا تنطبق على سالم نو. ولهذا فإننا نقول أن هذا التحذير هو تحذير المؤلف، تحذير جنان حلاوي نفسه. ربما استمده حلاوي من زميل له هو الشاعر الانكليزي الفرد أوين. قال أوين، وكان

وقتها يخوض مخاضة حقيقية لا مجازية هي الحرب العالمية الأولى: «كل مايستطيع شاعر أن يفعله هو التحذير»[٤]. وجنان حلاوي يريد أن يقول محذراً، ان غربة الجنس البشري، أو قل غربة العراقيين ستتحول، إن لم يفيقوا عاجلاً، إلى كابوس حقيقي فاجع، ليس فيه وحوله غير البول والخراء.

أما من ثمة أمل، من باب للأمل، من كوة حتى كوة يشرعها حلاوي حتى يغادر منها الانسان العراقي هذه المخاضة، هذه الغربة الانسانية؟. عندما نستمر في قراءة صفحات الرواية، سنجد مثل هذه الكوى. الفتاة غصون تتمرد على مجتمعها لتحظى بحريتها وتتغلب على غربتها. الشيوعي علي الأعرج يتمرد ضد السلطة السياسية للوصول إلى الحرية. هاتان كوتان للأمل أشرعهما حلاوي، لكنهما سرعان ما أُغلقتا. نقول أُغلقتا ولم نقل أن جنان هو الذي أغلقهما. إن جنان الحلاوي يريد أن يكون نزيها وشريفاً مع القراء. فهو ليس سوداوياً يائساً ولكنه لايريد، في الوقت نفسه، أن يبيع أوهاماً أو أحلاماً مجانية للقراء. إنه ينقل الواقع مثلما يراه. والواقع العراقي الذي يناقشه حلاوي يقول إن طوفان الدم والخراب يطفئ كل الآمال. غصون فشلت في تمردها وانتهى بها المطاف قتيلة غسلاً للعار على أيدي أخوتها. وعلي الأعرج هو الآخر أنتهى قتيلاً على يد الدولة.

والشيخ ايبارا؟ هل تستطيع هذه الشخصية أن تنقذ شيئاً وقبل ذلك أن تنقذ رواية ياكوكتي حتى لاتتحول، هي ذاتها، إلى كابوس؟ المشكلة الحقيقية مع ايبارا هي شيخوخته. لم تعد الحياة مطواعة بين يديه، يشكلها مثلما يريد. لايملك هذا الشيخ (الابياقراطي نسبة الى EPIQURATE) الذي يتساهل في توفير اللذّة لعشاق أواخر الليل ويمارسها هو أيضاً بعض الأحيان ص١٥٣، إلا تجربة حياة وحكمة علمته أياها الحياة. وهو: «ضائع بين الحكمة التي رسختها العزلة، والعذاب الذي املته العزلة ذاتها عليه» ص٢٢٣. رغم ذلك، فان الشيخ ايبارا يقدم حكمته على شكل نصيحة لسلمان العبد: «اذهب ودمر ذلك البيت (باشا النقيب)». ولكن النقطة التراجيدية في شخصية ايبارا هي أن هذا الشيخ «يحدث الناس عن الأمل، وهو بلا أمل» ص ٢٢٤. ويعترف بيبابه الروحي «انا قتلوني منذ زمن بعيد» ص ١٨٢. ولكن هذا لايمنع أن تكون عند الشيخ ايبارا ما يسميه هو «بقايا روحي» ص١٨٣. وهو يصب هذه البقايا في روح سلمان العبد قائلاً له: اذهب ودمر بيت باشا النقيب» ص ١٨٢. فهل يستطيع سلمان العبد، مهما كان حماسه واخلاصه وصدقه أن ينفذ وصية الشيخ ايبارا، أم إنه سيفشل مثل غصون وعلي الأعرج.

المكان

يرى الشاعر هاشم شفيق أن ياكوكتي «رواية استلهمت أجواء الحرب العراقية ــ الإيرانية عبر منطلقها المكاني في البصرة(٥)» لم نجد عندما أنتهينا من قراءة هذه الرواية ما يسند قول شفيق، لأن الحرب العراقية ــ الإيرانية لا وجود لها في الرواية، تصريحاً او تلميحاً. ولعل هاشم شفيق يتحدث عن رواية أخرى كتبها حلاوي أو مجموعة قصصية. وإذا كان شفيق يعتمد فقط على البصرة كمكان تدور فيه أحداث الحكاية، ليستنتج بعد ذلك أن الرواية أستلهمت أجواء الحرب مع ايران، فإننا نجد من الصعب أن نتفق معه. البصرة في رواية ياكوكتي هي العنصر الغائب والحاضر في آن واحد. البصرة حاضرة لأن الرواية ماكانت تتم أو حتى تخلق بدونها، فهي تستلهم تاريخها: معركة الزنج، القرامطة، الزط، حرب الجمل، معركة الشعيبة. والبصرة غائبة في النص الروائي، لأن الروائي أستخدمها كتاريخ أو كرمز لتاريخ، أكثر من كونها مكاناً جيوبوليتيكياً أو ديمغرافياً. ليس للبصرة حضور فولكلوري او سوسيولجي. وطوال صفحات الرواية، يتجنب الروائي أصطحاب القارئ، مثلاً لبيوت البصرة ليتعرف على عادات وتقاليد وطرق معيشة البصريين. ولم تجد في الرواية مشهداً واحداً يجتمع فيه أهل البصرة ليتحدثوا عن همومهم ومشاكلهم في هذه المدينة. وحتى الأماكن الجغرافية البصرية، التي تذكرها الرواية، لانجد لها وصفاً موسعاً، ونظن أن ـ بسبب الطريقة الحيادية التي وصفها بها المؤلف، عند القارئ حنيناً خاصاً. وكانت أمام الروائي فرص كثيرة يجمع فيها البصريين ليناقشوا همومهم اليومية، لكنه لم يفعل. كانت احدى الفرص مثلاً هي أن يجمع بعض الشخصيات في بار آسيا ـ والبار كما نعرف يرد كثيراً في الروايات العراقية ــ ليتحدثوا بدون خوف عن مدينتهم. وكانت فرصته الثانية أن يجعل الفتاة غصون، وهي امرأة خبرت المجتمع البصري، تتحدث عن نساء المدينة مثلاً، لكنه لم يفعل. وكانت فرصته الثالثة أمام دكان علي القزم أو أمام دار السينما، لكنه أهمل، عامداً متعمداً، هذه الفرص واخرى غيرها.

ولو قارنا ياكوكتي بنص آخر عن البصرة هو بصرياثا الذي كتبه محمد خضير لوجدنا في هذا الأخير تفصيلاً جغرافياً وأجتماعياً وديمغرافياً لمدينة البصرة، لم نجده في رواية ياكوكتي. حلاوي يعتصر البصرة ويحولها إلى تاريخ ورمز. وإذا كانت البصرة هي المكان الذي تدور فيه أحداث الحكاية في رواية ياكوكتي، فإن المؤلف ينقلنا عبر شخصيات متعددة إلى أماكن تبدو، جغرافياً، بعيدة عن البصرة أو العراق، ولكنها

ليست كذلك كالهند والخليج العربي. ويكرس المؤلف لهذه الأماكن، في بعض الأحيان أكثر من صفحة.

وإذا كان للعراق منافذ برية متعددة، فالبصرة هي الباب البحري الوحيد للعراق (علينا أن نتذكر إن لدينا سندباداً واحداً في العراق، وهو سندباد بحري وليس برياً، على أية حال). ومن هذا الباب دخلت وخرجت قوتان محركتان في تاريخ البشر، لا في تاريخ البصرة وحسب، هما السيف والثروة. خرج السيف العربي منتصراً ليجلب الثروة المادية والبشرية (الزنوج) من أصقاع العالم. ثم لما ثلم السيف العربي دخل هذه المرة السيف البريطاني منتصراً ليسرق الثروة.

وليست شخصيات مثل سلمان الزنجي، الراقصة الفيليبينية، والبحارة الهنود وكذلك الاشارة الى الجنود البريطانيين الذين جاءوا البصرة والعراق من الهند، هي شخصيات أختيرت بعشوائية. لكل هذه الشخصيات دلالات تاريخية قديمة ومعاصرة. تشير الى علاقات متصارعة ومتناقضة: غالب ومغلوب، جلاد وضحية. ولايمكن أن نفهم هذه العلاقات إلاّ إذا وضعناها ضمن الدورة الكبرى للتاريخ: تاريخ الفتوحات العربية الاسلامية، تاريخ الاحتلال العثماني، تاريخ الاستعمار البريطاني وبالتالي تاريخ العراق قديماً وحديثاً. وقد تكون بعض هذه الشخصيات عابرة في الرواية، كالراقصة الفيليبينية. هذه شخصية غير مهمة فيما يتعلق بالفعل الروائي، لكنها مع ذلك ليست ديكوراً أو إيكسيسواراً. إذ تكمن اهميتها في تكوين رؤية المؤلف وفلسفته.

يقترن ظهور الراقصة الفيليبينية بظهور البحارة الهنود والزنجي سلمان العبد. وعندما تظهر، فإن المؤلف يؤكد على إستلابها الروحي، مركزاً على مواضع الشهوة في جسدها، أي على وظيفة هذا الجسد باعتباره سلعة تباع وتشترى. إنها في البصرة من أجل أن «يتلقفها حضن أحد الطالبين، فيقيء أمعاءه الباذنجانية على فستانها» ص ٢٨. الراقصة الفيليبينية جاءت أو جيء بها للبصرة المعاصرة، الغنية باموال النفط في سبعينات أو ثمانينات هذا القرن لتوفر فائض اللذّة لأثرياء البصرة الجدد، تماماً مثلما كانت تفعل جارية سيران في البصرة العباسية وكان ثمنها من عمان ثمانين الف درهم(٦). جيء بالراقصة الفيليبينية مثلما جيء بالزنجي سلمان العبد وقبله أجداده لتوفير فائض بالانتاج لأثرياء البصرة القدامى. فهما تجسيد ورمز لتاريخ مغرق بالقدم، لكنه لم يمت بعد. انه تاريخ ستاتيكي، جامد، يكرر نفسه حتى لحظة كتابة الرواية. الفيليبينية من الرقيق الأبيض المعاصر وسلمان من الرقيق الأسود. فلاتزال

تجارة الرقيق قائمة، بصرف النظر عن اللون، لانتاج فائض في الثروة أو في الشهوة الجسدية.

أثناء الدورة التاريخية الكبرى التي شهدتها البصرة، أو بالأحرى العراق، تغيرت الأمور، لكنها لم تتغير جذرياً نحو الأفضل. أثرياء البصرة الذين جلبوا الزنوج لخدمتهم فتحولوا، أو تحول أحفادهم ـ لا فرق ـ إلى عبيد عند العثمانين أولاً وعند الانكليز لاحقاً. وخلال ذلك ظلت البصرة، وخاتمة الرواية تقول أنها ستظل، مكاناً شهد ويشهد معارك وصراعات تحتدم مرة وتنطفيء ثانية. وهذا الصراع لابد أن يحدث وإن اتخذ كل مرة أسماء جديدة: ثورة الزنج، القرامطة، معركة الجمل، الزط، العيارون. المعتزلة، ثورة العشرين، الشيوعيون.

أثرياء البصرة القدامى يضطهدون الزنوج فيثور هؤلاء لاسترداد كرامتهم وحقوقهم. ثم يتحول المضطهد، عندما يدور التاريخ دورته، إلى ضحية على يد العثمانين والانكليز، إلى مضطَهد.

تقدم لنا رواية ياكوكتي نوعين من العلاقات التاريخية. الأولى تربط الفيليبينية والزنجي. هذه علاقة لتاريخ ستاتيكي، لكنه فاجع: الاضطهاد العبودي يكرر نفسه. العلاقة الثانية هي بين المضطهدين أنفسهم، بين الذين أضطهدوا سلمان العبد وأجداده من جهة وبين العثمانين والانكليز من جهة أخرى. هذه العلاقة قد تبدو ديناميكية، لكن الأمر ليس كذلك. لأنها تلامس القشرة ولا تنفذ للأعماق. فالأمور بالنسبة للزنجي العبد ظلت مثل ما عاشها أجداده. أجداد سلمان كانوا عبيداً في بصرة العباسين، وهاهو حفيدهم لايزال عبداً في البصرة المعاصرة، مثلما كان أبوه عبداً في بصرة الانكليز وجده في بصرة العثمانين. في الواقع، إن مايحرك الفعل عند سلمان العبد كشخصية روائية هو ليس شخصاً مثله يتعارض مع أهدافه أو يقف عقبة أمامه انما هو الماضي ـ الحاضر، أي التاريخ. صحيح أن سلمان العبد يشعر بغربة تولدها العلاقات البشرية، إذ لابد من وجود بشر أو شخصيات بشرية في الرواية، ولكن هؤلاء البشر الذين يقفون بالضد من حرية سلمان، هم أنفسهم عبيد. وبالتالي، حتى إذا إنتصر سلمان على (الباشا) فإن الانتصار لن يكون كاملاً، بل لن يكون انتصاراً قط، فسلمان لم يظفر بحريته؛ إذ أن أفراد المجتمع الاخرين الذين سيحيا سلمان في وسطهم سيكونون (باشوات) من نوع آخر، رغم أنهم في الحقيقة، مثل سلمان، عبيد ولكنهم لايعون عبوديتهم. من هنا تكون للبصرة باعتبارها حاضنة قديمة للزنج أهمية تاريخية في

رواية ياكوكتي. البصرة هي رافعة أو أسطوانة من أساطين عديدة بنى عليها المؤلف رؤياه الأيديولوجية.

الهوامش

(١) جنان حلاوي، ياكوكتي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩١ ص ١٩٥. وسنذكر، من الآن فصاعداً، صفحات الاستشهاد في متن المقالة:

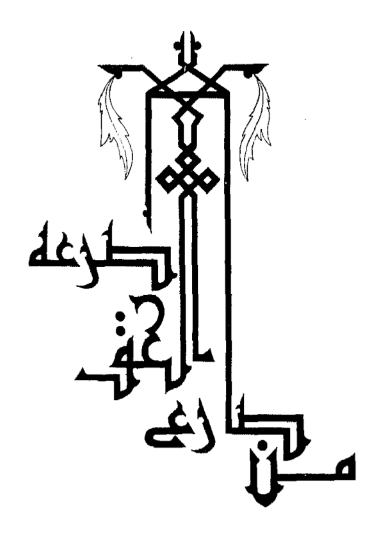
(٢) R. BOURNEUF et R. OUELLET, L`UNIVERS DU ROMAN, Ed, puf paris 1981, p 45.

(٣) JEAN GENET, JOURNAL DU VOLEUR, Ed, folio, paris 1992, p 10.

(٤) WILFORD OWEN, POEMS, Edinburgh, R. and R. Clark Limilted, 1949, p 52, انظر مقدمة الشاعر.

(٥) هاشم شفيق، صحيفة الحياة، ٢/٥/١٩٩٥.

(٦) الف ليلة وليلة، صفحة ٣٤٤.



«من صارع الحق صرعه» للخطاط حميد ـ السويد

حوار مع المخرج رياض أحمد

متعة المغامرة في «هذيان بين اثنين»

مؤيد عبد الستار

يوجين يونسكو من اعلام المسرح الاوروبي، نجح المخرج العراقي رياض أحمد، المقيم في السويد، في تقديم مسرحيته «هذيان بين أثنين» في مدينتي مالمو، ولوند. فحازت المسرحية على اعجاب النقاد والمشاهدين. تدور أحداث المسرحية في سرداب بناية يلجأ اليه نحّات وفنانة، في زمن استثنائي، زمن الخراب والدمار اثناء حرب مدمرة في الخارج فيضطران الى الاختباء، ويعملان للتغلب على الواقع الصعب من خلال تفاصيل الحياة اليومية: العمل، الجنس، الكلام، الصراع، الهذيان. . .

حاول رياض احمد، تقديم عمل مسرحي متميز، فاستخدم لغات مختلفة داخل العرض، وعمل مع ممثلين من أصول مهاجرة، ومنح باعداده الجريء ابعاداً جمالية للعرض، فنجح في امتاع وادهاش المشاهد. حضرت أحد العروض في مدينة لوند الجامعية ثم حاورت المخرج.

«هذيان بين اثنين» نص مسرحي ليوجين يونسكو لم يكن مترجماً الى السويدية سابقاً، أي أنه كان مجهولاً للمشاهد السويدي، ألم يكن مغامرة منك اختيار هذا النص كي تقدمه؟ وما الذي استفزك فيه؟

المغامرة في المسرح لها متعتها الخاصة، فهي تعني، بالنسبة لي، خوض غمار عمل ابداعي يخضع للبحث والاجتهاد، وهي محاولة لاعادة صياغة الفضاء المسرحي صياغة

غير مألوفة تمنحني الحرية، وتطلق مخيلتي كمخرج مسرحي في العوالم والفضاءات المفتوحة لفكرة بناء العرض. إن ما استفزني هو طواعية النص للنسف وامكانية اعادة بنائه من جديد، النسف من أجل الخلق والتجديد. تفكيك النص المسرحي واعادة صياغته، أو تشكيله بما يخدم فكرة العرض، هي واحدة من المهمات الأساسية للمخرج المعاصر، والتي تعمّق فكرة البحث، البحث عن أشكال ومضامين جديدة تلائم طبيعة العصر الذي نعيش. نصوص يونسكو المسرحية، المتميزة باسلوبها الجاد والساخر من خلال استخداماته اللغوية المعقدة، وموقف اعماله من الواقع المهترئ، هي التي تمنحني الجرأة للمغامرة بتناول أعماله ومن الزاوية التي تمليها عليّ فكرة العرض.

الفرد عند يونسكو، مستلب، منعزل في عالم خال من المعنى، فالاواصر القائمة داخل الشخصية مصابة بالانهيار. يسعى يونسكو، في نصوصه المسرحية، الى تهشيم الواقع وتشكيله من جديد، باسلوب متميز، فله نظرة ثاقبة وناقدة، وهو ما يدفعني لتناول اعماله. شخصياً وجدت في نص هذيان بين اثنين تلك الطواعية والمرونة التي تمنحني امكانية اعادة بناء الواقع المسرحي بناء يستند الى تأسيسات جمالية/ فكرية، ومنح العرض ديناميكية أكبر من أجل خلق المتعة والفرجة. الفكرة في هذا النص معاصرة، والشخصيات شديدة الحضور، مدمّرة، مستلَبة، محاصرة، ضمن الخراب الروحي العام للمدينة المعاصرة، يقول يونسكو «ان العالم الذي نعيش، يبدو وهمياً وخيالياً، السلوك الانساني يكشف عن سخفه، كما يكشف التاريخ عن تفاهته اللامتناهية...».

ان فكرة المسرحية العامة، تلامس بشدة واقعنا كمنفيين، وتعكس بصدق هذيانات المدنية المعاصرة.

الحرب التي كانت تدور في الخارج، والتي تجري أحداث المسرحية تحت ظلالها، هل هي حرب معينة، كأن تكون الحرب العالمية الثانية مثلاً، أم أنها إيحاء رمزي وظفه يونسكو من أجل الهدف، الهذيان؟

الحرب هنا تجري خارج مساحة العرض، لكنها تسمع بشدة من خلال دوي القنابل والصواريخ، فماهي الا شاهد على ذلك (الخارج) المتمترس في دوامته الفكرية، هي دلالة على الخراب الروحي للانسانية، وهي رمز للتعسف والعنف، وحالة الوهم والعجز في التحاور والتعايش.

ان هذه الحرب هي نتاج العزلة والتوتر الحاد للصراع اليومي للبشرية، انها هذيان

المدنية المعاصرة وبشاعتها. لقد حاولت في اعدادي للنص منح هذه الحرب شمولية أكبر، فهي لاتحدث في مكان وزمان محددين، بل يمكن ان تحدث الآن، أو غداً، أو بعد أعوام.. الجميع يشارك في هذه الحرب، فهي تحدث بسبب القصور الفادح في علاقات الانسان بالانسان.

الاعداد المسرحي منح الحرب عمقاً أكبر، فباضافتي مشاهد دخول الجنود بملابس عصرية مرة، واخرى بملابس سائقي الدراجات النارية، ومن ثم بملابس مشابهة لملابس العنصريين الجدد، منح ذلك العرض فكرة وبناء، ديناميكية أكبر في التأثير على عقل واحساس المشاهد. لقد وصف النقاد السويديون مشاهد دخول الجنود بانها كوميدية، مثيرة ومرعبة في آن واحد.

لاحظت استخدام مفردات وعبارات من لغات مختلفة في المسرحية، أظن أنها مقحمة على النص الأصلي ليونسكو، هل تعمدت ذلك من أجل ادهاش المشاهد الاوروبي، أم أنك تهدف الى غاية محددة من وراء ذلك تخدم العمل المسرحي؟

ليست هناك حدود للفنان الباحث، بل هناك فضاءات وعوالم مأخوذة بالسحر والفنطازيا. لم أضف مفردات للنص الأصلي، بل هشّمت بناءه المرن باعادة صياغته صياغة شاملة، فقد طوّعت النص لصالح الفكرة الاخراجية، مضيفاً وحاذفاً مشاهد كاملة، من أجل تعميق الصراع، وإعطاء العرض ديناميكية أكبر، ومنح الشخصيات عمقاً. أنت تعد ذلك اقحاما على النص الأصلي، وأنا أعتبره إضافة فاعلة تصب في اللامألوف وإعادة تأسيس من أجل خلق الجديد وتقديم الفرجة والمتعة، وليكن كذلك من أجل ادهاش المشاهد. استخدمت في العرض لغات متعددة، الصربية، المجرية، الصينية، الاسبانية، الانكليزية وقليلاً من العربية، بالإضافة الى السويدية، التي هي اللغة الأساس للعرض. ولم يكن استخدام هذه اللغات على شكل مفردات، بل ان مشاهد كاملة كانت بالصربية او الصينية والاسبانية معاً، ورغم هذه اللغات الغريبة على المشاهد السويدي، لم يكن العرض غامضاً، بل اعتبره النقاد والجمهور من أهم العروض التي تعرض الآن في جنوب السويد. ان استخدام عدة لغات داخل المشهد الواحد هو محاولة لدعم فكرتي المتمثلة بقصور اللغة ومحدوديتها كمنطلق تفاهم بين البشر، والتأكيد على الفعل المسرحي والايماءة وحركة الممثلين.

اعتبرت المقالات النقدية التي كتبت عن العرض هذه الاضافة، استخدام عدة لغات

داخل العرض، على أنها محاولة فذة لتعميق نص يونسكو ومنحه شمولية أكبر.

الفرقة التي عملت معها مكونة من عناصر مختلفة الجنسيات، ومن مختلف دول العالم. كيف استطعت الانسجام مع كل هؤلاء الممثلين والعاملين، ألم تواجههم صعوبة التمثيل بلغة غير لغتهم، وكيف استطعت التغلب على المعوقات؟

أثير سؤال مشابه في مقابلة لي مع التلفزيون السويدي. أن أحد أدوات المخرج الابداعية هو الممثل، لذلك أحرص بشدة على أن تكون هذه الأدوات طيّعة، فاعلة ومبدعة.

مهمة المخرج ليست ابداعية فقط، فهو منظم العلاقات داخل المجموعة الابداعية، وهو الذي يسعى الى خلق الحد الأدنى من التقارب في وجهات النظر المشتركة داخل المجموعة. ما ذلل من صعوبات تواصلنا الابداعي ـــ رغم اننا جميعا من ثقافات مختلفة ـــ هو عملية البحث الفني، والذي شكل قاسماً مشتركاً وهاجساً للتواصل ذوّب الكثير من الاختلافات في وجهات النظر. لا أخفي أن البداية كانت صعبة بل معقدة في بعض الاحيان، ولكن الخبرة التي اكتسبتها، في التعامل مع الممثل الاوروبي، والتي بدأت في بلغاريا، ومن ثم في السويد، منحتني القدرة على التواصل الابداعي، وخلق حالة من الالفة بين الجميع، مبنية على تزاوج الخبرات الفنية، وهذا ما يعطي العرض ميزة خاصة، ميزة امتزاج الثقافات في انتاج عرض مسرحي متميز، يجمع بين الشرق الحالم واوروبا الشديدة الواقعية.

ماهي الامكانات المتاحة أمامك لانشاء أو تكوين نواة لمسرح عراقي أو عربي مهاجر في السويد؟

كما ذكرت سابقاً، أن توفر الحد الأدنى من تطابق وجهات النظر، في أي مشروع ابداعي، كفيل بنجاح هذا المشروع. في الواقع لست بالضد مما تطرحه، ولكن الحوار هو الخطوة الأولى قبل تشكيل أي مجموعة مسرحية. إن خلافاتنا كمبدعين وهمية، وهي مبنية ـــ في كثير من الاحيان ـــ على قصور فادح في وجهات النظر، بل أن جزءاً هاماً منها هو من مخلفات الغربة وخرابها، ومحاولات تأطير الأمور بأطر أيديولوجية فجّة، جامدة، لاتخدم إلا في تعميق كسلنا. إن الحوار من أجل الخروج من مأزق فرقتنا ـــ عند البعض مأزق ابداعي ايضاً ـــ هو الطريق السليم للبحث في مشروع لقاء مسرحي يضم الجميع دون استثناء، ولايقتصر على «صديقي» فقط، كما حدث في أحد المهرجانات المسرحية الأخيرة.

الجهل (يلعب) دوراً فاعلاً في علاقاتنا الابداعية، فمثلاً، في نفس ذلك المهرجان شارك أحد المهتمين بالنقد المسرحي محاضراً عما يسمى بمسرح المنفى، في الوقت الذي لم يمض على منفاه سوى عامين أثنين، في حين أن منفانا السياسي والابداعي قارب العقدين!! واذا كانت هناك النية الحسنة والحقيقية للقاء فعلينا التخلص مما يلي: أولا، وهم الكفاءة والعبقرية. ثانيا، النزعة الابوية في التعامل. ثالثاً، المداهنة وتلفيق المديح. رابعاً، المهاترات الضيقة الأفق. وبتجاوزنا لهذه المظاهر، يمكن أن نجتمع ونتحاور.

هل فكرت في اختيار نص من الادب العربي المعاصر أو من التراث الاسلامي أو الشرقي، كي تقول من خلاله ماتريد للمشاهد السويدي أو الاوروبي؟

ليس من السهل تقديم عمل عربي أو تراثي، فمثل هذه الأعمال تحتاج إلى امكانات كبيرة جداً على الصعيد المادي والكادر، وكذلك فان ترجمة النص ليست أقل أهمية، فهي تكلف مبالغ كبيرة لا استطيع اليوم تجاوزها، رغم ذلك كله، تلح عليّ فكرة العمل على انتاج عمل عربي قد يكون من التراث، او من الأعمال المعاصرة، وقد يكون ذلك في المستقبل القريب.

***

بطاقة:

رياض أحمد: مواليد بابل عام ١٩٥٦.

عضو فرقة المسرح الفني الحديث ٧٣ ــ ١٩٧٩.

درس التمثيل في اكاديمية الفنون الجميلة ٧٤ ــ ١٩٧٨.

حصل على الماجستير في الاخراج المسرحي من بلغاريا.

شارك في أعمال مسرحية عديدة داخل العراق وخارجه.

يعمل حاليا في المسرح السويدي وقدم أربعة أعمال بالسويدية حتى الآن آخرها هذيان بين أثنين ليونسكو والتي لاتزال تعرض بنجاح كبير/

تشرين الثاني ١٩٩٦.

هموم وتطلعات عراقية على المسرح الاسترالي

«حب من طرف واحد»

مازن يوسف قلو

قبل الحديث عن مسرحية «حب من طرف واحد» التي قدمتها فرقة «لارسا» في سدني باستراليا لابد من الاشارة الى أن الحركة المسرحية العراقية قد ترعرعت بين أحضان الحركة الوطنية، وارتبطت منذ نشأتها بهموم وتطلعات الانسان العراقي التواق للديمقراطية والتحرر، تلك الطموحات التي وجدت تجلياتها في مضامين النصوص والعروض المسرحية. وبذلك اصبحت الحركة المسرحية جزءاً من حركة التاريخ العراقي الوطني. وهكذا صارت آلام الشعب وتطلعاته المنهل الذي اغترف منه المسرحيون العراقيون وترجموه في نتاجهم الابداعي بصدق. وعلى هذا الأساس المتين تربت اجيال المسرحيين العراقيين، وهذا مايفسر التشجيع والدعم الذي حظى به مسرحهم من قبل الجمهور. وبالمقابل فقد حرص المسرحيون على تقديم الاعمال الابداعية الراقية وان يخلقوا تقاليد مسرحية ساهمت في تشكيل وعي فني وانساني متقدم حيث تحول الجمهور الى عنصر فاعل في العرض، ليس متلقيا له وحسب وانما كذلك مفسراً ومحللاً له يناقشه ويقارنه بواقعه اليومي المعاش ويتقصى رموزه في محاولة لادراك المغزى الكامن وراء الكلمات ومايحمله العمل من دلالات.

وهكذا فان مسرحية «حب من طرف واحد» هي امتداد لتلك الحركة التي ارسى تقاليدها الكثير من المبدعين العراقيين كتابا ومخرجين وممثلين وفنيين. «حب من طرف واحد» توليفة مسرحية اعتمدت ثلاثة نصوص هي:

«وداعا ياوطن.. مرحبا يا وطن» لمحمد البياتي، «جلسة خمر عراقية» لمحمد سعيد

الصغار، «الاطفائي» لفلاديمير بولياكوف. وفي اعدادها قام المخرج عبد الهادي ماهود باعادة صياغتها وفق رؤية اخراجية تنسجم مع طبيعة النصوص باعتماد شخصية الرجل/ الراوي الذي قام بادائها بطلاقة ومرونة جسدية ساعدت على تنفيذ الموازنة بين الاحكام والتلقائية، ليقدم لنا نصاً كاملاً مستفيداً من الحوار الفصيح تارة والعراقي الدارج تارة اخرى.

تبدأ المسرحية باثارة حالة التداعي على لسان الرجل..

لماذا قدر لي أن اولد على أرض العراق

واعيش في سواها

اهرم واموت وأدفن في سواها

لماذا لا احب سواها

وتستمر حالة التداعي هذه باستحضار المفردات اليومية الحياتية، وذلك من خلال الزمان والمكان ومايرتبط بهما، ليرشح عنهما من صور وذكريات وطقوس وممارسات تفعل فعلها في تصعيد الخط البياني للمشاهد الرئيسية الثلاثة التي يتضمنها العمل لتتعامد في كل مقطع شعراً (باستعارة مقاطع من قصائد للشعر سركون بولص، غيلان، زاهد محمد) أو نثراً في السياق لتسهيل عملية الانتقال سواء داخل المشهد الواحد أو بين المشاهد بايقاع مسرحي متلون وتضافر منطقي تساوق في تلاحم ساخن لانضاج العمل المسرحي وشد اجزائه باعتماد ديناميكية السجال المتألق وترابطه الممتع الذي يمثل العمود الفقري لقوام العمل المسرحي.

وقد نجح المخرج في الاستفادة من توظيف الدرج للصعود والنزول ليؤشر عملية استحضار المتخيّل/ العراق باندفاعه من جانب الجمهور / الخارج الى المسرح/ البلد.

المشهد الأول: مائدة خمر ضمت صديقين يتناولان همومهما التي تعكس هموم المرحلة الحالية تتجلى برغبة «ستار» في الرحيل الى الضفة الاخرى، بعيداً عن الجحيم الذي لم يعد بوسعه تحمله. فقد ضاقت به سبل العيش تحت وطأة ما افرزته الحرب من دمار وحصار. ولذا فهو يمني النفس بان يبعث له شقيقه المقيم في الخارج بعض المال لتحقيق حلمه بالسفر فيقول:

« مكاني مو هنا. مكاني هناك يم الناس المستريحة» ليعكس ببساطة ووضوح حال الاغلبية الساحقة من العراقيين.

في ذات الوقت الذي يعكس فيه الحوار (على المائدة الاخرى) بين ابو علاء/ الشاعر

وابو سمير هموم المثقف ومعاناته وما شهدت السنوات العجاف من هدم وتدمير لقيم الانسان الجميلة في هذا المشهد يمتزج الحزن بالضحك الساخر الذي يمارسه نجم على صديقه ستار وذلك من خلال عدم حصوله على المال كإشارة لتجاهل قطاع واسع من المقيمين في الخارج لهموم ومتاعب الناس في الداخل. فإذا لايجد مَن هم في الداخل لقمة العيش يبعثر البعض امواله على متع يمكن الاستغناء عنها، ولاسيما في هذه الظروف القاسية التي يمر بها البلد. كما تشير أيضاً الى التأثير الذي تمارسه البيئة الجديدة. الخارج على المقيم/ المهاجر باضعاف حدة المشاعر والروابط تجاه الناس والوطن.

المشهد الثاني: هنا يقوم القاص بعرض قصته على سكرتير رئيس التحرير ليتحول الاخير ليس الى ناقد ادبي بل ليمارس ذات السلوك العدواني الذي تمارسه السلطة بشكل يومي. وقد اختارت المسرحية ان تقدم نموذجاً من هذا السلوك من خلال المجلة كمؤسسة ثقافية لتؤكد أن الدكتاتورية تستثمر كل المواقع بما فيها الفكرية منها، لممارسة القمع. وبذلك تُبرز المسرحية تحول بعض المثقفين الى ادوات في مؤسسات السلطة لتطبيق برامجها وابداع ما لاتتخيله رموز السلطة احيانا من ممارسات قمعية. ينتهي المشهد ببكاء حار من جانب القاص واستخدام الدعاء الديني ضد السلطة في الوقت الذي يكون فيه سكرتير رئيس التحرير ورئيس التحرير الذي يرمز الى الرئيس أيضاً منخرطين في البكاء ايغالاً في السخرية المريرة التي تغلف المشهد بأكمله.

المشهد الأخير: هنا يتصاعد التداعي بالعودة ثانية للمكان الأول. الحانة لتنعقد الصلة بين الطاولتين عبر قراءة من جانب الشاعر ابو علاء وغناء نجم. ويتناوب التناقل مع التركيز على هموم الشاعر وصديقه «حافظ» الذي يلاحق توثيق المرحلة من خلال جمع نماذج من النتاج الشعري معتمداً على العمق التاريخي والحضاري في رهانه على الغد المشرق القادم لامحالة.

ينساب صوت الرجل مرة أخرى:

لماذا قدر لي أن اولد على ارض العراق
واعيش في سواها
اهرم واموت وادفن في سواها
لماذا لا احب سواها

اسئلة وتداعيات استطاع العمل المسرحي اضاءتها عبر المشاهد الثلاثة بماتردد في الحوارات اليومية السريعة حينا (نجم ــ ستار) والفكرية العميقة حيناً آخر (الشاعر ابو

علاء وحافظ) باعتماد منحى اخراجي سلس، دون تعقيد أو بهرجة، مستفيداً من فضاء المسرح لتحقيق الانسيابية في الحركة. كذلك فان بساطة الديكور واعتماد الملابس اليومية وعدم استعمال المكياج لتحقيق الانسيابية في الحركة، كذلك فان بساطة الديكور واعتماد اسلوب البقعة في الانارة (لابراز الحدث) استطاع ان يسحب العمل الى اليومي والمالوف ويمنحه الحيوية التي جعلته قريباً من المتفرج.

ان عمل المخرج في مرحلة اعداد النص قد ساعد في جعل العملية الاخراجية اكثر مرونة وتلقائية. حيث استطاع عبد الهادي ماهود تخليص العملية الاخراجية من الكثير من الصعوبات، التي تعترض العمل المسرحي، باعتماد وسائل المخرج العارف امكانيات ادواته المسرحية وماتتطلبه العملية الاخراجية. وبذلك يمكن أن يعد هذا العمل ضمن الاسلوب التجريبي. فالتجريب لايعني قفزا في الفراغ بل تمثلا للتراث ومعرفة بالقواعد الاصولية ثم تحطيم هذه القواعد، بعضها أو كلها، التماساً لقواعد اخرى لتصبح بدورها في قلب التراث. وهذا هو الجدل الحقيقي بين التقليد والتجديد. كما استطاع جمال باوي، الذي لعب دور ابو علاء الشاعر ودور القاص، ان يقدم شخصيتين جميلتين ليضيف الى العمل عمقا وجمالاً ويؤشر معرفة طيبة بطبيعة العمل المسرحي عبر قدرته في التلوين الصوتي والاداء التلقائي الذي يشد المتفرج ويحمله على التفاعل مع الشخصية. كذلك فان حلاوة صوت احمد البدري وامكانياته تنبئنا بطاقة مسرحية يمكنها ان تقدم المزيد.

كما تجدر الإشارة الى الجهد الطيب الذي قدمه كل من احمد محسن وحافظ ابراهيم، علما ان هناك امكانيات اخرى كان يمكن تفجيرها من خلال هاتين الشخصيتين اللتين بدتا باهتتين احياناً. كما ان شخصية النادل لم يجر توظيفها بحيث ظلت دون فعل مسرحي يذكر. هذا الى جانب بعض الملاحظات الاخرى.

بيد أن ذلك لايقلل من القيمة الفنية والمتعة الجميلة والمغزى العميق الذي نجح العمل المسرحي، كجهد جماعي، في تقديمة الى الجمهور.

لغة اللون والتجريد في أعمال خالد بابان

فلاح موسى

أستقبلت صالة Borsn في مدينة غوتنبورغ في السويد، وللفترة الممتدة من ٩-٢٢ أيلول. أعمال أربعة فنانين عراقيين متبايني الأساليب والرؤى، جمعتهم مبادرة مؤسسة «الحرف العربي» التي ساهمت في الترتيب لهذا المعرض.

عدد الأعمال التي ساهم بها الفنان خالد بابان ١١، جميعها بالألوان الزيتية على أرضية خشنة. وتميزت أعماله ببعد تشكيلي وجمالي خاص. اذ ابتعد الفنان في لوحاته عن الوصف والتوثيق على حساب المادة التشكيلية. لقد وضعنا أمام مفهومين للشكل المنظور في اللوحة. فهناك الشكل الذي تراه العين؛ والشكل الذي يرسمه الادراك من التجريد. وما حاولته لوحات خالد بابان هو التعامل مع الحس بهدف انتاج شكله، بعيداً عن القوالب المسبقة التي كان هدف صنعها هو تحديد الفكرة داخل اطار اللوحة فقط. الفنان هنا يتخلص بشكل واضح من هذه القوالب، بحيث تبدو لوحاته وكأنها قاطرات تشكيلية تسير نحو أفق غامض. وهكذا تطرح هذه الأعمال تجربة مليئة بزخم ابداعي، واختلاف في الاسلوب الخاص الذي خضع لتطور وعي الفنان لعلاقته الجمالية مع الواقع بكل تجلياته وغوامضه.

فبعد أن مر خالد بابان (الذي عمل كمهندس معماري لمدة ١٥ عاماً) بمرحلة التشكيل المعماري، حيث كانت الأشكال الهندسية (المكونة من المثلثات والاقواس والمربعات وكذلك التركيز الواضح على زخرفة الواجهات بالاشكال الهندسية القائمة على الحسابات

الدقيقة التي لا يفوتها تجسيد تحولات الضوء واللون) مادة مهمة في لوحاته، نجد في هذا المعرض إنسحاباً كاملاً لهذا الحضور الطاغي للعمارة الهندسية.

فالاعمال المقدمة في المعرض الحالي تمثّل مرحلة جديدة لدى الفنان؛ مرحلة نجح فيها في المزج بين التجريد والرمز، وفي الجمع بين نسق من الحساسية الذاتية والجماليات العصرية، في محاولة إعادة صياغة الحس والشكل بآليات تشكيلية جديدة قوامها تراكيب لونية غاية في الثراء يرافقها استخدام ذهني عال للألوان بكل موحياتها وابعادها الرمزية.

من الواضح ان الفنان يستخدم طريقة الرسم بالمجموعات. وهذه ليست الا حالة ذهنية وعاطفية متولدة من الرغبة في اطالة او تكرار التجربة: موضوع البحث. هذا بالاضافة الى محاولته، من خلال التكرار، اعطاء العمل التجريدي أكثر من قراءة ومن تأويل. فهو يؤكد على التجريد المفتوح الذي لم يُؤسَسْ لاعطاء اجوبة محددة.

مجموعة «بقايا مسافر»، التي هي ثلاث لوحات، تشكل حدساً لرؤى تغلفها مشاعر التداعي والتوتر التي يفتح الفنان أعيننا على علاماتها واشكالها. الكثير من جزئيات هذه المجموعة هي أشياء قائمة بذاتها. الا أن التجريد والابهام اللوني المستعمل جعل منها بعض آثار او بعض بقايا ذات دلالات تشبيهية تهيم في الرمز والتجريد. على أن هذا لايمثل بأية حال تخلّيه عن الموضوع، بل هو أحتفاء بالحس واللون.

هذا الاحتفاء يمتد بعض الاحيان الى درجة تعيق اللوحة عن اعطاء أية إحالات، ما عدا التهويم في فضاءات غير محددة: كتل لونية متداخلة لا تمنح الرائي فرصة محددة للقراءة. هذا مانجده بوضوح في لوحة «تعارض» ولوحة «علاقة»، حيث يعتمد الفنان على اللون أساساً حركيا ـــ لا مساعدا ـــ في سبيل تقديم عالم متمازج. فهو في لوحة «تعارض» يضفر اللون الاسود والاحمر والاصفر بوضوح شديد لتأكيد غموض عالمه. في هذه اللوحة يتسيد الاحمر والاسود على كل الابعاد ليعطيا إيحاءات مختلفة تخرج بنا الى حالتين: اما الاحباط المفرط أو التفاؤل المفتوح. وكذلك الحال مع لوحة «علاقة» حيث يتضافر اللون الازرق مع الاصفر في تحقيق المشهد وفي تحقيق التجربة الجمالية التي تتبلور في متعة التأمل وفي الابحار بعيداً في أقاليم الذهن والعاطفة.

في مجموعة اخرى تضم لوحة «الأوائل» و «هور من الذاكرة» و «شيء من الميناء» نجد أن الشكل الاصطلاحي أو النموذج الخيالي وليس الحقيقي هو الطاغي بشكل كامل. فكل مفردة من مفردات الواقع المقصود باللوحة (كالمشحوف أو رصيف الميناء

المستوحش) تجسدت في كتلة لونية تتناهى بتداخلات ضوئية متدرجة تنتهي بالدكنة احياناً أو بالشحوب، فيما تنسحب في خلفية جميع هذه اللوحات زرقة الماء المبنية على مستويات عدة، من القاني حتى الفاتح. هذه الزرقة، التي تحمل في طياتها الكثير من الرموز الموحية، تعود ثانية لتتداخل مع الكتل اللونية الاخرى المواجهة (كتل مفردات الواقع) لتمثل في النهاية صورة من الهواجس المعلنة، صورة للواقع ليس كما هو مرئي بل أيضاً كما هو محسوس في المخيلة.

اللوحات التي شارك بها خالد بابان في هذا المعرض تجمع بينها خاصية الكثافة اللونية في التعامل مع المساحة وكذلك الاستخدام الايحائي الموفق للون، علاوة على ماذكرنا من رمزية في التعبير دون التضحية بالقيمة الجمالية لموضوع اللوحة.

إن أغلب أعماله لاتحتمل الشروحات، بل تمنح المشاهد فرصة القراءة على اوجه عدة لعل اهمها القراءة الذهنية التي تعتمد التجريد. إنها فرصة للتأمل والحلم.

غوتنبورغ ـ السويد

النهر*

يوسف ابو الفوز

الغروب يحتضن المكان. الجو عاصف. النهر بدا غاضباً يتلاعب بزوارق الصيادين. النوارس هائجة تبحث عن ملاذ لها وتطلق اصواتا حادة كالاستغاثة.

بمحاذاة النهر تمرق السيارات. مغلقة الابواب، مسدلة الستائر، مكتظة بالركاب أو فارغة الا انها كانت تمرق بسرعة، عدا سيارة تقف قبالة المرسى القديم. سائقها ينبش في ماكنتها متجهما والى جانبه وقف مساعده يرتجف من البرد والحيرة.

عند الشاطئ وقف شاب يحدق إلى النهر الغاضب غير عابئ بالبرد أو الريح. داخل السيارة كان الركاب يتطلعون الى ساعاتهم بالحاح والتذمر يلوح على محياهم.

مال الرجل البدين الجالس في مقدمة السيارة الى جاره ذي الحقيبة (السامسونايت) وقال بصوت مسموع وهو يشير بكفه الغليظة باتجاه الشاطئ: ماذا يفعل هذا المجنون هنا في مثل هذا الطقس؟

رد صاحبه ذو الحقيبة بصوت أجش: مجنون!

ضحكا بصوت عال واخذا يهتزان في مقعديهما. توجهت انظار الركاب الى حيث أشار الرجل البدين فلاح لهم الشاب منتصباً مثل سارية علم والريح تخفق بملابسه.

قالت ارملة شابة متشحة بالسواد لجارتها ذات الضفائر الطويلة: مسكين، يبدو أنه يعاني من الوحدة.

اجابت جارتها وهي تعبث بضفيرتها بعصبية: ربما و. . . قد يكون يعاني من تجربة حب فاشلة، ومن يدري قد يكون اللحظة يفكر بـــ. الانتحار!

خلفها يجلس شاب بقميص أبيض موشى بزهور ناعمة، تنهد، حاول أن يرد عليهما إلا أنه قدر أن ذلك سيكون تطفلاً، فقال لجاره ذي الوجه المجدور: انهما واهمتان، انه ينتظر حبيبته، بالتأكيد هناك سبب ما اخّرها، انظر، لايتحمل طقساً كهذا إلا عاشق.

نظر ذو الوجه المجدور الى جاره مليا، تفحص وجهه بحذر ثم قال بلا مبالاة: ربما! ثم أدار بصره ليحدق جيدا بالشاب الذي لايزال منتصباً عند الشاطئ، قال لنفسه: كلكم واهمون ياكلاب.. وبحاستي الخاصة اشم رائحة اخرى، قد يكون هذا السافل متآمراً ولديه موعد ما.

من خلفهم مال عليهم رجل حليق الشارب وقال بتأدب وهو يشدد على مخارج الحروف: عفواً، قد يكون تطفلاً مني، ولكن الا تعتقدون أن هذا الشاب يود العبور الى الضفة الثانية؟

من مؤخرة السيارة لوح شيخ بذراعه المعروقة وصاح بصوت عميق: بدلاً من مؤتمر الاحتمالات هذا، أليس من الاجدر معرفة خلل السيارة كي نسرع في مغادرة المكان؟

ساد الهدوء لفترة من الزمن. نظر الجميع اثناءها الى الشيخ بتبصر، كل شخص حملت نظراته معنى ما، ثم قطع الهدوء صوت السائق وهو يجاهد لافتعال ابتسامة بدت باهتة: يا اخوان سنتأخر قليلاً، فقط تحلّوا بالصبر وان شاء الله سنتحرك.

عند الشاطئ، فرك الشاب كفيه ببعضهما وهتف لنفسه: سيصل لابد أن يصل.

ثم فكّر وهو يراقب زورقا يصارع الموج ليبلغ الشاطئ الآخر:

النهر، الزورق، الريح والانسان. كل هذا يمكن أن اوظفه في كتابة قصة جديدة! وشعر بشيء يكبر في داخله ويطغى على كل ما يثار بسبب الريح او البرد.

وصل!

هتف عالياً ولوح بيديه كالطفل وهو يرى الزورق يبلغ الشاطئ. غادر مكانه وشعور طاغ يتملكه بأن ريحاً أخرى أشد تدوى في اعماقه وأن النهر يصخب في خلاياه. بحركة رشيقة بارعة تخطى الحاجز الحديدي الواطيء، نحو الشارع، بلغ السيارة، اجتازها دون ان يلتفت اليها. كانت عيون ركابها تتفحصه بأهتمام كبير.

همس الرجل البدين: لايبدو عليه الجنون.

هز ذو الحقيبة كتفيه: ربما!

قالت الأرملة لجارتها ذات الضفائر: لايبدو عليه الشعور بالوحدة.

أجابت الفتاة وهي تتنهد: ولايبدو ممن يفكرون بالانتحار.

قال الشاب ذو القميص الأبيض: يبدو ان امرأً مهما جعل حبيبته تتخلف عن الموعد.

قال ذو الوجه المجدور لنفسه: لايبدو مريبا للحد الذي تصورته.

تمتم الرجل الحليق الشارب: يبدو أنه سيستخدم الجسر للعبور.

صاح الشيخ: هل كتب علينا ان نتحجّر هنا؟

قال الشاب ذو القميص الأبيض: يبدو كذلك.

وتابع بنظراته الشاب الذي كان عند الشاطئ وهو يندفع للامام على طول الشارع بمحاذاة النهر مبتعداً نحو قلب المدينة.

* من مجموعة مخطوطة بعنوان «طائر الدهشة»

قرية جه ماني ـ كردستان ٣٠/١٠/١٩٨٦



«ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» للخطاط حميد ـ السويد

غربةٌ أليفة

محمد حسين الأعرجي

غريب شَعرُكَ الأسودُ   في هَفهفة الشُّقره
وعبءٌ وجهُكَ الأسمرُ   لولا سُحنَةٌ حُمرَه
فقد تُنظَرُ إعجاباً   فتأسى أن تَرى النّظره
فمن يصطادُ لي أطيا   فَ أحبابي ، ولو مَرّه؟!
فقد دارتْ بيَ الدُّنيا   فما وازَنَت الدَّوره
وغنّت لي أغاني الخِصب   لكنْ لم أرَ الخُضره
فلي في كلِّ يَومٍ مَنزِلٌ   يُبنى على غِرّه
وسبحانَ الذي أنشأ   دارَ اثنين في «صُرّه»
وطوبى للمُخفّفيْنَ   فلا زادٌ ، ولا وفره
ومن كانت لَه أُذُنا   ن فليسمعْ شَجى الزّفره
لبستُ صِباي منفيّاً   ولا ندمٌ ، ولا حَسره
فرحتُ أُريقُ ماء العُمـ   ـر حيثُ الضيقُ والعُسره
وكنتُ أخافُ من عَشرٍ   تُراقُ ، فزدتُها عَشْره
وأضيعُ مُعسرٍ من لم   يَصُنْ مُتعمِّداً عُمْرَه
وإذ عاشرتُ أحلامي   فما بالغتُ في العِشره
وأين مبالغاتُ الطيرِ   يحلُمُ أن يَرى وكَره؟!
وماتَ أبي ، ولم تلمسْ   دموعُ بنوّتي قَبره
فمن ينفضُ عن غُرّة   أيامي أذى الغَبره؟!
ومَن يُدفئُ آصالي   بذكرى الشمسِ مُحمرّه
ويا ليلي الرَّصاصي   ألم تشْتَقْ إلى سَحْرَه؟

غريبَ الرُّوحِ، لا تيأسْ! ... ويستوفي الفتى صبرَه
فما بلغ الغناءُ العذبُ ... قلبَ الناي أو صَدره
ولا و أمسَ عصفَ الريحِ ... لن يلويه في بُكره
ويدري الطحلبُ الغافي ... ودَعْ مايدّعي جَذره
ويعرفُ يومَنا الموعود ... نخلقُ بعده شَهره
لسوف أظلُّ في مُقَل الصغار مُضاحكاً فجره
ولولا أنّه وطني ... لكنتُ أريتُه قَدره
فلم أرَ مثلَه أفعى ... أذلَّ بنيه عن خبره
فشرّدَ كلَّ ذي شَرَف ... ودلَّ كلَّ ذي غَدره
وراهَنَ أن يطير حَمَامُه مُتحدّياً صَقره
ومجنونٌ مَن اعتزلَ الـ ... ـفراتَ، وعَامَ في جَرّه
أقول، هُديتَ، لا أعني ... نبيَّ الشعر، أو شعره:
غريبَ الوجه، لاتحزنْ ... فأرضُ الله للهجره
وكان السندبادُ يَرى وضوءَ الرُّوح في البصره
ففيم تضيق بالمنفى ... كأنّك جاهلٌ حَرّه
وفيم تخافُ من روض ... أنيق لم تذُق عطره
تُماحكُه لعلّك واجدٌ ... في نظمه عَثره!!
أفقْ لي ياهداك الله واستحضر رؤى السَّكَره
فَهل أجداكَ لونُ الوجه ... في مُسْتَنقعِ السُّمره
أم أنّك قد ظللتَ الأجنبيَّ ... الرُّوحِ، والفطره؟!
تُجمجمُ ناصعَ الخَطَرات ... خوفَ عواقب الخَطره
لأنتَ أجلُّ من أن تنـ ... ـتمي نسراً إلى حُفره
فحلِّقْ ثم زدْ حتى ... ترى جنحيكَ من جَمره
وفي الإنسان لي وطنٌ ... فسيحٌ قلبُه زَهره
وكلُّ الأفق معراجٌ ... فماذا قُبّةُ الصخره؟
غريبَ الوجهَ، لاتحزنْ ... فكلٌّ بالغٌ أمرَه
فللدود الثرى، لكنّما للأنسُرِ الزُّهره
فماذا شعرُكَ المستغربُ اللونِ؟
ومَا السُّمره

بوزنان: ٦/ ١٠/ ١٩٩٦

زهيريات (مواويل)

كريم الاسدي

يـــاســـاري الـــلـــيـــل وديـــهـــم ورد ودنـــا
احـنـا عـلـى حـبـهـم ابـد الـلـي ابـتـعـد ودنـا
تـطـفـي الـشـمـس نـارهـا ونـشـعـلـهـا مـن ودنـا
وفـي ودنـا احـتـار كـل صـاحـب غـرام وهـوى
والـــنـــجـــم مـــن ودنـــا ودع مـــداره وهـــوى
كـل حـچـي الـحـبـاب بـالـتـالـي ريـاح وهـوى
بـس حـچـيـنـه بـودنـا مـالـي الأرض ودنـا

* * * *

كـل الـوصـف غـاب مـن ردتـه بـوصـف ولـفـي
تـايـه بـالاشـواك مـاعـدت اسـتـچـن ولـفـي
كـل يـوم اگـول الـگـلـب تـاب وهـجـع ولـفـي
طـيـر الـگـلـب شـاه بـشـتـان الارض بـصـره
وضـيّـع طـريـجـه ونـويـتـه وحـكـمـتـه وبـصـره
يـا سـاري الـلـيـل عـبّـرنـي لـطـرف بـصـره
ارد اهـجـع هـنـاك مـابـيـن الـنـخـل ولـفـي

دمشق ٩٦

صوت المسافات

بلقيس حميد حسن

ينزوي بعيداً
أملٌ مهاجرٌ
يحطُ على اهدابِ الروحِ
ويرحل.........
ريشته تتحدث بالوردِ
واقدار الأوتار الظمأى...
يخفق خلف واحات ،... كانت
لوحتهُ الغربةُ .
ابكتهُ لعبة طفلٍ وثنايا فستان .
اجلس من فضلكَ ،
يكفيك دوران الارض
لتسقط بين سنين القهر ،
يكفيك شريانا للنزف
يبكي وطنا في الاعماق
....
اسند رأسك واحلم
فالحلم هنا مسموح
ولغتك ممنوعة

لاتعطي ظهرك للريح
مرتجف أنت
والبرد شديد
بلادك آه...
حين تسافر بلدان الناس ،
تدعونا
لطاولة اخبارك ،
ولمركز الأرض...
استعن بحفيفك في الليل
فالصوت يا كل المسافات ،
والدرب طويل......
هل ادرت مفاتيح الأبواب؟
لا ندري
من أين تأتينا هذه الافاعي
اطفئ السراج
اقرأ آيات النور
فانت وحيد .

الاشتراك السنوي

50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 42-467127

ANI HAMED AYOUB

BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وما ليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب: ٧١٢٢. تليفاكس: 4449724


فكر علمي
ثقافة تقدمية